

كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: مقدمة في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إسبانيا قبيل
الفتح العربي:

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : **Introduction to the political, economic and social**

:conditions in Spain prior to the Arab conquest

مقدمة في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إسبانيا قبيل الفتح العربي:

عرفت شبه الجزيرة الأيبيرية، أي إسبانيا والبرتغال، في الأزمان القديمة بـ (إيبيرية)، وعندما جاء الرومان أطلقوا عليه اسم (Hispania)، ومن هنا جاء اللفظ العربي (إسبانية) أو (إسبانية) .. وقد تحول هذا اللفظ في لغة القرون الوسطى الرومانية إلى (Espana). أما مصطلح (الأندلس)، الذي يشمل المناطق التي حكمها العرب والمسلمون من شبه الجزيرة، فقد اشتقه الجغرافيون والمؤرخون العرب من الكلمات الآتية: الأندليش أو الأندلس أو الأندلس، وهي الأسماء التي سُمي بها الوندال، الذين سيطروا على أجزاء من شبه الجزيرة الأيبيرية، في الفترة من 408 - 429 م .

إن إسبانيا بلاد جبلية تضم ودياناً وأحواضاً نهريّة عظيمة، من أمثال، نهر الأبرو Ebro، ونهر المنهو Minho، نهر دويرة Douro، ونهر تاجة Tajo، ووادي آنة Guadiana، والوادي الكبير Guadalquivir. وتحتل الميزيتا (Meseta)، التي تعني بالإسبانية النجد أو السهل المرتفع الواسع، معظم شبه الجزيرة الأيبيرية، ولكن تجمعات السكان الكبيرة، كانت دائماً مركزة قرب الشواطئ ووديان الأنهار الكبيرة. وكانت المدن الداخلية الرئيسية في العهد الروماني، سرقسطة Zaragoza، وطليلة Toledo، وماردة Merida، وأشبيلية Sevilla، وقرطبة Cordoba، حصونا على الأنهار، وقد استمرت هذه المدن في أهميتها في العهد القوطي، والعهد العربي الإسلامية اللاحقة.

اشتهرت إسبانيا منذ القدم بثروتها المعدنية، وإنتاجها الزراعي، وتجارها المزدهرة. ولقد كانت هذه العوامل من الدوافع المغرية التي أدت إلى حدوث سلسلة من الهجرات والغزوات الأجنبية للبلاد. ويشكل الأيبيريون Iberians، الذين جاؤوا من أفريقية، أساس جنس البحر المتوسط من السكان. ولقد عبر الكلت Celts، والأقوام الهندو - أوروبية Indo-European، جبال ألبرت Pyrenees، واستوطنوا في الأجزاء الشمالية والغربية من شبه الجزيرة. كما أسس الفينيقيون مستعمرات على السواحل الشرقية والجنوبية. وأخيراً وبعد صراع طويل من أجل السيادة والتفوق سيطر الرومان على إسبانيا، ولكنهم سرعان ما جوبهوا من قبل السكان المحليين، ولم يستطع الرومان إخضاع كل القبائل في شبه الجزيرة إلا في عهد الإمبراطور أوغسطس (27 Augustus ق. م - 14 م). وقد أشار سترابو Strabo، المؤرخ اليوناني في القرن الأول قبل الميلاد، إلى بعض القبائل التي استوطنت شبه الجزيرة، من مثال الغاليسيين، والكانبترانيين، والباسك، والشدانيين، وغيرهم، ومع هذا، ففي بداية التاريخ الميلادي المسيحي، اصطبغ الكثير من هؤلاء السكان بالصبغة الرومانية .

وبرغم سيادة الرومان على إسبانيا لفترة طويلة، فإن الظواهر الحقيقية لانحطاط سلطتهم فيها بدت بوضوح منذ بداية القرن الخامس الميلادي، وذلك عندما ابتدأت القبائل الجرمانية البربرية بالاستيطان في شبه الجزيرة. ويصف سانت ازيدور الأشبيلي Saint Isidore of Seville، المتوفى عام 636 م، استيطان الوندال Vandals، والآلان Alani، والسويفي Suevi، في إسبانيا عام 408 م على أنه احتلال مدمر، أدى إلى نشر الخراب في كل أنحاء البلاد .

ونتيجة للحروب الكثيرة التي قامت بين هذه القبائل الجرمانية وبين القوط الغربيين، الذين كانوا يسكنون في تلك الفترة في غالة Gaul جنوب فرنسا، تحطمت قوة الآلان، والوندال الذين اضطروا إلى العبور إلى شمال افريقية في عام 429 م . ثم تمكن القوط أخيراً من السيطرة على إسبانيا والتغلب على مملكة السويفي التي كانت ما تزال موجودة في الشمال الغربي من البلاد، وذلك في عهد الملك ليوفيخلد (568 - 586 Leovigild م) .

مملكة القوط الغربيين في إسبانيا:

كانت مملكة القوط الغربيين هي الأخيرة في سلسلة ممالك البرابرة التي خلفت الإمبراطورية الرومانية، وذلك بعد أن انتهت هذه الأخيرة ككيان سياسي، واختفت من مسرح التاريخ. ولقد تمت عملية استيطان القوط الغربيين في إسبانيا في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس للميلاد. وكانوا يمثلون أقلية صغيرة فقط ضمن السكان الأصليين. ولا تتوفر معلومات إحصائية عنهم في هذا العصر، ومع هذا، فقد قدر أحد المؤرخين المحدثين، أن نحواً من مئتي ألف إلى أربعمئة ألف من القوط استوطنوا بين كل ستة إلى تسعة ملايين من السكان الإسبان - الرومان Hispano-Romans (9). ولقد استوطن القوط في مناطق الأرياف والمدن على حد سواء. ولكن حتى في المدن، كان السكان الإسبان - الرومان يتغلبون عليهم بنسبة ثلاثة إلى واحد، ومما لا شك فيه، أن الفرق في النسبة كان أكبر في مناطق الأرياف .

نظام الحكم القوطي:

كان نظام الحكم القوطي ملكياً قائماً على مبدأ الانتخاب، حيث ينتخب الملك من قبل النبلاء ورجال الدين. وقد حاول العديد من الملوك أن يقيموا نظاماً ملكياً ثابتاً يعتمد على نظام الوراثة، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل. وكان يفترض بالملك أن يكون من أصل قوطي نبيل ويتمتع بأخلاق حسنة، ويختار من بين النبلاء، ولكن العادة جرت أن يتولى العرش أقوى هؤلاء بحد السيف. وكان الملك هو الرئيس الأعلى للجيش، ويتمتع بحق تعيين وعزل الأساقفة عن مناصبهم الدينية، ويحكم مستبداً، يتصرف في أمور البلاد كما يشاء. وكان للملك مجلس من النبلاء لمساعدته في الحكم، لكن الملوك استبدوا بالأمور ولم يعد لهذا المجلس من أثر في السلطة، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها ويقضون في الأمور كما يريدون .

وكانت مجالس كنيسة طليطلة هي القوة الكبرى في الحياة السياسية والدينية في العهد القوطي. وهذه المجالس كانت بمثابة جمعيات وطنية لمملكة القوط الغربيين تجتمع بين الحين والحين للنظر في مسائل الدولة الكبرى. وكان أصل مجلس طليطلة دينياً يتألف من كبار رجال الدين الكاثوليك ويعقد للنظر في أمور كنيستهم ورعاياها. ولكن بعد اعتناق القوط للكاثوليكية، أصبح هذا المجلس رسمياً يعقد بأمر من الملك، ويحضره كبار رجال الدولة، ثم تحول مع الزمن إلى مجلس سياسي وديني في آن واحد يصدر القوانين والأحكام في مختلف القضايا، ثم اتسع سلطانه، وأصبح محكمة عليا، وانضم مجلس النبلاء إلى هذا المجلس الديني، فأصبح مجلساً أعلى للدولة. ومن الناحية النظرية كانت مجالس طليطلة قيداً على سلطة الملك، أما من الناحية العملية فقد كانت سندا مهماً لسلطته وبخاصة بعد تحول القوط إلى الكاثوليكية عام 587 م، حيث أصبحت الكنيسة في إسبانيا على علاقة وثيقة بالباط. وفي القرن السابع الميلادي، لم يكن بإمكان أي مجلس أن يعقد إلا إذا أمر الملك بذلك. وكان الأساقفة عادة يناقشون ويقررون القرارات التي تتضمنها المسودة التي يقدمها الملك، ولم يهملوا في أية قضية تعليماته، ولم ينتقدوه بصورة مباشرة، بل كانوا ينفذون كل مطالبه ..

الأحوال الاجتماعية في عهد القوط:

وفيما يخص التنظيم الاجتماعي، فقد حافظ القوط على نفس التركيب الذي وجدوه قائماً في إسبانيا أيام الرومان. وهكذا استمرت مساوئ العهد الروماني بالبقاء، وتركزت الثروة والممتلكات بيد مجموعة قليلة من الناس، وكان هناك عدم مساواة كبيرة في البنية الطبقيّة. فالمجتمع القوطي كان يتألف من ثلاث طبقات؛ وهم طبقة كبار ملاك الأراضي والنبلاء وكبار رجال الدين، والطبقة العامة، وطبقة العبيد. وكان أبناء الطبقة العامة يتألفون من الأحرار البسطاء الذين ينتمون إلى أصول قوطية ورومانية، عاشوا في المناطق الحضرية وفي الأرياف. ومن هؤلاء أيضاً، العمال في المدن والذين كانوا ينتظمون ضمن أصناف ونقابات، ولا يحق لهم التحول عنها أو الانتقال إلى مدينة أخرى، ومن يهرب منهم كان يُجبر على العودة إلى مدينته الأصلية. وكانوا محرومين من الانتظام في سلك رجال الدين، أو أن يصبحوا موظفين قضائيين. وبالنسبة إلى سكان الأرياف، فقد اضطر العديد منهم، نظراً لظروفهم الاقتصادية الصعبة، إلى تسليم أراضيهم إلى كبار النبلاء، ورضوا بالعمل والبقاء فيها كمستأجرين لقاء تمتعهم بحماية النبلاء. ولقد أصبح هؤلاء بالتدريج مشدودين بالأرض، وارتبطت علاقاتهم بأصحاب الأملاك مدى الحياة، حتى أنهم تحولوا أخيراً إلى ما يشبه الأبقان. وكان من جملة الالتزامات المفروضة عليهم أن يدفعوا عشر محاصيلهم إيجاراً، إضافة إلى تأدية بعض الخدمات الشخصية الأخرى للنبيل، وضريبة الرؤوس، أو الجزية.

وتأتي طبقة العبيد في الدرجة الدنيا من السلم الاجتماعي، ويكون هؤلاء الجماهير الغفيرة، ضحايا كل أنواع القهر والاضطهاد، وكانوا مملوكين لكبار النبلاء ورجال الدين، ويستخدمون للأغراض الزراعية والأعمال المنزلية على حد سواء. ويبدو من مراجعة القوانين والتشريعات القوطية أن الظروف المعاشية للعبيد المهرة الذين كانوا يعملون في المدن، كانت أفضل من نظرائهم العمال الزراعيين. وكانت الكنيسة الإسبانية تمتلك أيضاً عدداً كبيراً من العبيد، ولكن

يتضح من تشريعات مجالس الكنيسة أن هؤلاء العبيد عاشوا في ظروف سيئة للغاية. ولهذا فليس من الغريب أن حاول العديد منهم الهرب والتخلص من عبوديتهم. ويضاف إلى ذلك أن القوط، خاصة في أواخر عهدهم، ابتدأوا بتجنيد العبيد بالإكراه واستخدامهم في الجيش، مما أدى إلى تدمير هؤلاء وازدياد محاولاتهم في الهروب والنجاة. وقد اعترف الملك أخيك (687 - 702 Egica م) في بداية القرن الثامن الميلادي، بأن العبيد الآبقين يختبئون في كل مكان من البلاد، حيث لا تخلو منهم أية مدينة أو قرية أو حصن أو دار ريفية أو خان. وقد شرع قانوناً وضع بموجبه عقوبات صارمة على كل من يفشل في مطاردة العبيد الهاربين، وإلقاء القبض عليهم. .

أما الطبقة العليا، أي طبقة النبلاء فكانت تتألف من أغنياء القوط الغربيين، وبقايا طبقة النبلاء الرومان. ويتميز أفراد هذه الطبقة عن الأحرار الاعتياديين بأصلهم النبيل، وامتلاكهم للمزارع والضيع الكبيرة التي تزرع من قبل المستأجرين، وبخدمتهم في المناصب العليا في القصر وفي الإدارة. وكانت البلاد حتى منتصف القرن السابع الميلادي تحكم وتدار بواسطة إدارة مشتركة من الطبقة النبيلة القوطية والرومانية. ومن المظاهر المهمة لهذا النظام، أن الطبقة النبيلة القوطية كانت مسؤولة عن السكان القوط، والطبقة النبيلة الرومانية تمارس سلطاتها على السكان الرومان، بينما كان الملك القوطي وموظفوه الكبار يقررون السياسة العامة للجميع. وكان ملاك الأراضي الرومان والقوط، وكما هو الحال بالنسبة إلى الملك وكبار موظفيه أيضاً، يشرفون على مزارعهم بواسطة الوكلاء ومديري المال في مقاطعاتهم. وبصورة عامة فإن أفراد هذه الطبقة النبيلة كانوا أغنياء جداً، بنوا ثروتهم على حساب الطبقات الفقيرة المعدمة الأخرى، وقد أفلح بعضهم في الاحتفاظ بثروته حتى بعد الفتح العربي الإسلامي. .

أما الحالة الدينية: كانت المسيحية هي ديانة الغالبية العظمى من السكان. وكان الإسبان - الرومان يدينون بالمذهب الكاثوليكي، بينما كان القوط الغربيون قد اعتنقوا المذهب الآريوسي، الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية، منذ سنة 377 م. وقد عمل القوط الغربيون، منذ أيامهم الأولى في إسبانيا حتى تحولهم إلى الكاثوليكية في عهد ريكارد (601 - 586 Reccared م)، على الفصل الكامل بين السكان القوط والإسبان الرومان، فكان أبناء كل طائفة يقيمون شعائرهم بحرية تامة بمساعدة رجال الدين التابعين لملتهم، وفي كنائسهم الخاصة. وقد تبين للملك ريكارد أنه لا صلاح لدولة القوط في إسبانيا ما لم تتخلى الآرية وتعتنق مذهب الغالبية من سكان البلاد. وهكذا فقد أعلن في مجمع طليطلة الديني سنة 587 م تخليه عن الآرية واعتناقه، هو وأهل بيته، للمذهب الكاثوليكي، وتبعه في هذا الأمر وكبار رجال المملكة. وهكذا توحدت الكنيسة الإسبانية تحت ظل الملكية القوطية. وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في البلاد، وتوثقت العلاقة بالبابوية مما شجع البابوات على بسط نفوذهم الديني والسياسي على إسبانيا. وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل البابا. وقد أيد السكان الإسبان الرومان هذا الإجراء، ولم تتخلى إسبانيا عن الكاثوليكية بعد هذا التاريخ. وكانت هذه الخطوة عاملاً فعالاً لامتزاج الشعبين القوطي والآيبيري الروماني، ولكن هذا الامتزاج لم يتم بشكل كامل بسبب حرص القوط على اعتبار أنفسهم الشعب الحاكم المتميز، مما كان له أثر بعيد على مصير دولة القوط في إسبانيا. .

وبالإضافة إلى المسيحيين كان ما يزال هناك عدد لا بأس به من السكان الوثنيين في شبه الجزيرة. وتشير التشريعات المتتالية الصادرة عن مجالس الكنيسة وملوك القوط إلى مدى الانتشار الواسع للوثنية، والكهانة، والعرافة، والسحر في البلاد.. وكانت هذه الممارسات قد ترسخت في معظم أرجاء إسبانيا تقريباً، وانتعشت إلى الحد الذي دفع مجلس طليطلة الثالث (589 م) أن يقرر بأنه يتوجب على كل أسقف بالتعاون مع القاضي المحلي أن يحقق في انتشار الوثنية في منطقته، ويعمل على مكافحتها.. وكان الباسك Basques أو البشكنس، حسبما تسميهم المصادر العربية، من جملة الجماعات الوثنية التي تعيش في منطقة الشمال الشرقي المتاخمة لجبال ألبرت. وقد فشل الأساقفة والملوك القوط في زرعتهن عن الوثنية أو إخضاعهم طيلة العهد القوطي. ولا يعرف لحد الآن الأصل الحقيقي لهؤلاء الباسك، ولكنهم ربما كانوا من بقايا القبائل التي سكنت منطقة جبال ألبرت في عصور ما قبل التاريخ.. ولقد كان هؤلاء السكان الجبليون متمرسين على القتال والتمرد على ملوك القوط المختلفين، وظلوا مصدرراً للقلق والاضطرابات طيلة العهد القوطي والعهد العربية الإسلامية اللاحقة. بل إن انتفاضاتهم ومطالبتهم المستمرة من أجل الاستقلال أو على الأقل الحكم الذاتي، ما تزال تعكر صفو الحكومات الإسبانية المختلفة حتى الوقت الحاضر.

لقد شكل اليهود عنصراً مهماً آخر من عناصر السكان في مملكة القوط الغربيين. ويعود تاريخ استيطانهم في شبه الجزيرة إلى زمن بعيد جداً. وكانوا ينتشرون في مناطق عديدة من البلاد، لكنهم تركزوا بالدرجة الأولى في المراكز الحضرية المتقدمة، مثل العاصمة طليطلة، وفي مناطق الجنوب، وعلى طول ساحل البحر المتوسط في شرق إسبانيا. وتختلف حالة اليهود الاقتصادية، وطرائقهم في الحياة في إسبانيا اختلافاً كبيراً. فمنهم من كان يعمل بالتجارة داخل البلاد وخارجها، بينما كان الآخرون فقراء لا يمتلكون أية ممتلكات. ويشير بعض المؤرخين إلى أن ملكية الأرض كانت الأساس الذي تقوم عليه معيشة بعض اليهود في إسبانيا، فكان هؤلاء يعيشون في قرى ويزرعون أراضيهم بأيديهم، بينما تولى آخرون الإشراف على المزارع التي يمتلكها المسيحيون. ولكن يبدو من التشريعات الكثيرة التي تخص اليهود في إسبانيا، أن فعاليتهم التجارية، كانت مهمة بقدر أهمية نشاطهم الزراعي.

لم يكن وضع اليهود في ظل القوط الغربيين حسناً، فقد ضُيق عليهم وعوملوا معاملة غير جيدة من قبل ملوك القوط المختلفين. ويعد الملك سسبت (621 - 612) Sisebut (م) بنظر العديد من المؤرخين، الملك القوطي الأول الذي ابتدأ بوضع القيود على اليهود. ولكن هذا الأمر يرجع في الحقيقة إلى عهد تسبق الحقبة التي حكم فيها هذا الملك. فهناك تشريعات معادية لليهود منذ عهد الملك ألاريك الثاني (507 - 484) Alaric II (م)،. وكذلك نصت قرارات مجلس طليطلة الثالث (587 م) على إكراه اليهود على اعتناق المسيحية، وحرمت على أي يهودي أن يشتري عبداً مسيحياً.

ولقد ظل هذا التشريع سارياً، وأعيد تطبيقه من قبل ملوك القوط المتعاقبين، كما أُيدٍ وعزز من قبل مجلس الكنيسة إلى نهاية العهد القوطي. وجرد اليهود من قبل الملك سسبت من العبيد والمستأجرين، ولهذا أصبح من الصعب عليهم أن يزرعوا أراضيهم، أو أن يمتلكوا المزارع الكبيرة. وفي عهد الملك ايروج (687 - 680) Erwig (م) أبعد اليهود

عن كل وظائف الدولة، وعن تولي المزارع الكبيرة. لذلك فقد أُجبروا على أن يبيعوا إلى خزينة الدولة، وبسعر محدد، عبيدهم، وأية ممتلكات سبق وأن اشتروها من المسيحيين. يضاف إلى ذلك، أنهم منعوا من مزاولة التجارة على مختلف أشكالها، أو أن يتاجروا فيما وراء البحار .

ولا تتوافر لدينا معلومات عن الدوافع الحقيقية المتخفية وراء هذا التضييق، أو لماذا مُنح اليهود من ممارسة أي نوع من أنواع التجارة. ولكن من المحتمل جداً أنه كان بسبب اختلاف عقيدتهم وتعاطيهم الربا، أو بسبب تعاليهم على أبناء الديانات الأخرى، وانغلاقهم على أنفسهم، واستغلالهم لغيرهم من الناحية الاقتصادية. وربما كان لتأمرهم السياسي أيضاً أثر كبير على تشريع بعض القوانين المعادية لهم. وقد استطاع اليهود التخلص من هذه القوانين بسبب دفعهم للرشوة إلى النبلاء ورجال الدين . لكنهم مع هذا تأثروا إلى حد كبير، مما دفع العديد منهم إلى الالتجاء إلى شمال أفريقيا، وغالة في جنوب فرنسا، كما قام بعضهم بالاشتراك في بعض الحركات المناوئة للسلطة . وقد تعرض اليهود في عهد الملك أحيكا إلى الاتهام بالتآمر مع يهود من خارج البلاد للعمل ضد المسيحيين في إسبانيا . ويرى بعض المؤرخين المحدثين، أن هذا الاتهام ما هو إلا محض خيال أو اختراع من قبل الملك حتى يبرر إجراءاته ضد اليهود . ولكن هناك من يعتقد بصحة هذه الحادثة، ويعدها حقيقة تاريخية، بل اعتقد بعضهم أن اليهود المقصودين بالتآمر من خارج البلاد هم من شمال أفريقيا. ومن البربر بالذات . كما ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك -ربما بسبب تعاون اليهود فيما بعد مع المسلمين زمن الفتح- فذكروا بأن اليهود كانوا يتآمرون من أجل تسليم إسبانيا إلى العرب . وبطبيعة الحال، لا يمكن تصديق مثل هذا الافتراض، لأن العرب في ذلك الوقت كانوا يعيدون عن إسبانيا، وكانت فتوحاتهم مركزة في المناطق المجاورة للقيروان.

إن عدم التكافل الاجتماعي الذي كان يسود في دولة القوط الغربيين، والتضييق الذي لحق باليهود، والظروف التعيسة التي كان يعيش في ظلها العبيد والعديد من أفراد الطبقة العامة، أدت إلى تفكك المجتمع وانهاره. ولقد حدث قبل الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا بسنة واحدة تقريباً، أقوى وأقوى تنافس على السلطة في البلاد، مما زاد في حالة الضعف والتفكك، وسهل أمر القضاء على دولة القوط الغربيين.

عصر الملك غيظشة وتفرق كلمة القوط:

ابتدأت الأزمة منذ أيام الملك غيظشة (710 - 702) م، الذي حاول أن يصلح الأمور ويخفف من التأثير السيء الذي تركه أبوه أحيكا، فمال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط، وأحب في آخر أيامه أن يرفع القيود عن اليهود، فكرهه النبلاء ورجال الدين، الذين أبعدهم عن نفسه، وحرّمهم من بعض امتيازاتهم، وفرق شملهم. فأخذ النبلاء يثرون عليه في نواحي البلاد المختلفة، وتآمر عليه أهله، واستطاعت زوجته أن ترغمه على تعيين ابنه الصبي (أخيلا Achila) حاكماً على طركونة وسبتمانيا. وكان هذا التعيين حافظاً للنبلاء وكبار القوط إلى مضاعفة العمل للقضاء على غيظشة ودولته. وفي هذه الأثناء توفي غيظشة في حدود سنة 710 م، والبلد منشق على نفسه مفرق بين رجال

الدين وكبار النبلاء الطامعين. وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر الناس انقساماً. فقد ترك غيطشة أرملة، وثلاثة بنين، هم أخيلا، وألمند، وأرطباس، وأخين كان أحدهما أسقفاً لأشبيلية يدعى أبة Oppa، والآخر وصياً على أخيلا الذي كان مرشحاً لوراثة العرش بعد أبيه. ولكن كبار القوط لم يرغبوا في الخضوع لصبي مثلاً أخيلا، هذا بالإضافة إلى عدائهم لأبيه، وتخوفهم من استبداد الوصي بالحكم. فامتنعوا عن طاعة أخيلا، واستقل بعضهم في الأطراف والنواحي، وسادت حالة الفوضى والارتباك في البلاد، استطاع على أثرها كبار القوط وأعيانهم في طليطلة أن يوحّدوا جهودهم ضد أخيلا وعمه الوصي عليه، وأن يعهدوا بالعرش إلى أحدهم ويدعى رودريكو أو لذريق. وما يزال أصل لذريق مختلفاً فيه، فتذكر إحدى المصادر اللاتينية على أنه كان سليل بيت أحد ملوك القوط السابقين. بينما يذكر المؤرخون العرب أنه كان رجلاً شجاعاً، ولكنه لا ينتمي إلى بيت الملوك، وأنه كان قائداً وفارساً.. ونظراً للظروف التي تولى فيها هذا الملك، فقد كان في حاجة ماسة إلى الأموال. فابتدأ حكمه بأن حاول الاستيلاء على خزائن أسلافه الملوك من كنيسة سان بيدرو San Pedro وسان بابلو San Pablo في طليطلة.

لم تكن مشكلة لذريق الوحيدة هي الحاجة إلى المال، بل كان عليه أيضاً أن يجابه انتشار الفوضى والانقسام والفساد في المملكة. وكانت الثورات، وحركات التمرد ما تزال تعكر صفو البلاد، وبشكل خاص في منطقة الباسك، وكان العبيد يهربون في كل مناطق البلاد. ويدل هذا على ضعف القوط المتأصل، وإلى الحد الذي وصل إليه تدهور قوتهم، لأن الغالبية العظمى من الجيش القوطي في أواخر القرن السابع الميلادي كانت تتألف من العبيد المجندين. ولهذا فليس من الصعب على المرء أن يتخيل مصير هذا الملك ومملكة القوط الغربيين عامة، عندما كان عليهم أن يجابهوا حماسة العرب والمسلمين المتدفقة، وكلمتهم الموحدة في سبيل نشر مبادئ الحق والعدل وتحرير الشعوب من الظلم والفساد.



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

اسم المحاضرة الثانية باللغة العربية: فتح العرب لإسبانيا

اسم المحاضرة الثانية باللغة الإنكليزية : **Arab conquest of Spain**

فتح العرب لإسبانيا :

أ - دوافع الفتح وممهدهاته:

لا يمكن الحديث عن فتح العرب لإسبانيا بمعزل عن بقية حروب التحرير التي خاضها العرب المسلمون في سبيل إعلاء كلمة الله، ونقل رسالة السماء إلى الشعوب المضطهدة التي كانت تترجح تحت نير القوى الأجنبية كالفرس والبيزنطيين. فلقد كان للعرب الذين وُحدهم الإسلام غاية نبيلة في الفتوح تمثلت أولاً في تحرير إخوانهم العرب أينما وجدوا، وثانياً: في تحرير الشعوب الأخرى من الجهل والوثنية والتسلط الأجنبي، ثم في نشر قيم ومثل الحضارة الإنسانية التي أنارت الدرب لهذه الشعوب، وساعدت على امتزاج الثقافات، والتجارب والخبرات، خدمة للبشرية جمعاء. ولقد نجح العرب في شمال أفريقيا - كما نجحوا في غيرها من الأماكن - في كسب سكان البلاد الأصليين، أي البربر، إلى جانبهم، ولو أن ذلك تأخر لفترة من الزمن بسبب تواجد القوى الأجنبية المتمثلة بالبيزنطيين الذين كانت تربطهم علاقات مع بعض البربر الموالين لهم والذين قاوموا الفتح العربي إلى حين. ولكن عندما أدرك البربر جوهر الرسالة السامية التي يحملها العرب، وأنهم لم يأتوا من أجل مغنم أو كسب مادي، تعاونوا معهم وامتزجوا بهم، ووجد الإسلام بين الاثنين، فأصبحوا قوة كبيرة في المنطقة. واعتمد العرب اعتماداً كبيراً على البربر، لا سيما في عهد الوالي موسى بن نصير، حيث عهد إلى زعماء من البربر بقيادة الجيوش الإسلامية التي استمرت تؤدي رسالتها في استكمال تحرير شمال أفريقيا. وبفضل هذا التعاون الفعال استطاع العرب أن يحققوا فتح إسبانيا.

في بداية العقد الأخير من القرن الأول الهجري (في حدود سنة 708 هـ / 708 م) عهد القائد العربي موسى بن نصير إلى طارق بن زياد بتولي قيادة البربر المسلمين الذين انتظموا في صفوف الجند العربي في منطقة المغرب الأقصى، فاتخذ مدينة طنجة مقراً له. ولقد كان حماس هؤلاء البربر إلى الجهاد ونشر مبادئ الإسلام التي جاء بها العرب كبيراً. ونظراً لطبيعة المنطقة الجغرافية، فلم يكن أمام طارق وجنده سوى التوجه بأنظارهم إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، ولا سيما أن مناطق الجنوب كانت صحراوية لا تشجع على التجارة إليها أو التوغل فيها. يضاف إلى ذلك، أن البربر كانوا على اتصال دائم مع السواحل الإسبانية لقربها، وكانوا أيضاً على علم تام ومعرفة أكيدة بمدى خصب شبه الجزيرة وغناها، وعن خطورة مشاكلها الاجتماعية والسياسية، التي ذكرناها آنفاً، وضعف دولة القوط الغربيين بصورة عامة. ولقد شجعت هذه العوامل العرب والمسلمين على التفكير بفتح إسبانيا، وضمها إلى حظيرة المناطق التي تم تحريرها في المشرق العربي وشمال أفريقيا. أما ما يذكره بعض المستشرقين المغرضين، وما يروجه بعض الكتاب من

التلميح إلى أن الدوافع المادية، والغنائم، وحب التوسع هي التي دفعت بالعرب إلى الفتوحات، فأمر لا يؤيده الواقع .. فلم يكن هدف العرب الكسب المادي، بل كانت لهم غاية نبيلة أهم من ذلك بكثير، وأبعد تأثيراً، ألا وهي نقل مبادئ وقيم السماء السمحة إلى البلاد المفتوحة، والجهاد في سبيل الله من أجل تحريرها. أما الغنائم والمكاسب، فهي تحصيل حاصل، ونتيجة طبيعية من نتائج الحروب التي كانت وما تزال تقوم بين الأمم، فالغالب لا بد أن يستولي على مخلفات المغلوب، ولو أن موقف العرب من هذا أفضل بكثير من مواقف غيرهم من الشعوب، نتيجة لنظرتهم الإنسانية السامية.

لقد تطرقت المصادر التاريخية العربية إلى الأسباب التي أدت إلى الفتح العربي الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية، ولكنهم يرجحون السبب الرئيس إلى وازع الانتقام الشخصي، ويسوقون على ذلك قصة أسطورية ملخصها أن الكونت يوليان، أو جوليان Julian حاكم مدينة سبتة قد شجع العرب على الفتح انتقاماً لنفسه من لذريق ملك إسبانيا الذي اعتدى على شرف ابنته. وتروي القصة أنه كانت لجوليان ابنة جميلة، أرسلها جرياً على عادة الأشراف في ذلك الوقت إلى بلاط طليطلة لتتعلم وتتثقف مع بنات الملك.

وقد رآها لذريق وسحر بجمالها، ثم حاول أن ينال منها، ولكنها قاومته ورفضت، فلجأ إلى القوة واعتدى على شرفها برغم إرادتها. وعندما كتبت إلى أبيها بالحادث أسرع بالسفر إلى طليطلة وعاد بابنته إلى سبتة، وهو يضمشر والانتقام. وقد دفعه حقه هذا إلى التوجه إلى موسى بن نصير وحثه على فتح إسبانيا .. وتذكر روايات أخرى أنه سار إلى طارق بن زياد، حاكم مدينة طنجة، وأعلمه برغبته في الانتقام واستعداده لمساعدة العرب في حرب القوط الغربيين .

ولا نجد هذه القصة في المصادر الإسبانية المعاصرة للأحداث، ولكن بمرور الزمن انتقلت هذه القصة إلى القصص الإسبانية والأغاني الشعبية الإسبانية التي تعرف باسم Romancero. ثم اختلطت هذه الروايات بالتاريخ الإسباني كما لو أنها كانت حقيقة واقعة . ويختلف المؤرخون المحدثون في هذه القصة، فمنهم من يرى أنها صحيحة، ومنهم من يرى أنها من اختراع القصاص . وعلى أية حال، فنحن لا نستطيع الاعتماد عليها كثيراً في تحليل تعاون جوليان مع العرب، نظراً للظروف السياسية التي كانت تحيط بسبتة والتي دفعت أخيراً إلى الوقوف مع العرب في عملية الفتح.

وفي الحقيقة تتضارب الآراء بشأن شخصية جوليان حاكم سبتة فهناك من يرى أنه قوطي الأصل، وهناك من يرى أنه بيزنطي، أو بربري من قبيلة غمارة، ولكن معظم الروايات تتفق على أنه كان يحكم سبتة وما يجاورها في الوقت الذي وصل فيه العرب إلى الطرف الغربي الأقصى من شمال أفريقيا. ومن المرجح أنه كان الحاكم البيزنطي لإقليم موريطانيا الطنجية Mauretania Tingitania الذي كان تابعاً للإمبراطورية البيزنطية، ولكنه بعد تقدم العرب في شمال أفريقيا انقطعت به الأسباب عن بيزنطة، فأصبح مستقلاً في هذه الناحية، واضطر للاتصال بالقوط في عهد الملك غيطنشة، وقام بين الاثنين تعاون قوامه إرسال المؤن والامدادات من إسبانيا إلى جوليان. ويبدو أن موت غيطنشة

واستيلاء لذريق على العرش قد وضع حداً لهذه العلاقات الطيبة لا سيما أن جوليان كان من أصدقاء غيطشة. ولهذا فلم يكن أمام جوليان إلا الرضوخ للعرب والتعاون معهم، لا سيما أنه رأى أن الأمور تسير لصالح العرب والمستقبل يبشر بتفوقهم على القوى الأخرى في المنطقة. وقد أخفق موسى بن نصير في أن يسيطر على سبتة بالقوة بسبب حصانة أسوارها، ومقاومة جنود جوليان، فتم عقد الصلح بين الطرفين. وبموجب هذا الصلح ظل جوليان حاكماً على سبتة مقابل اعترافه بالسيادة العربية، ورجع موسى إلى القيروان وتذكر الحوليات اللاتينية رواية أخرى مفادها أن أولاد غيطشة هم الذين اتصلوا بالعرب ودعوهم إلى فتح إسبانيا ومساعدتهم في إعادة ملكهم المفقود، وأن الفتح العربي، ونجاحه كان نتيجة لهذا الاتصال. وتشير بعض المصادر العربية أيضاً إلى مباحثات جرت في طنجة قبيل الفتح بين طارق بن زياد وأحد أولاد غيطشة. بينما يقول آخرون أن هذه المباحثات حدثت قبيل بدء المعركة الفاصلة بين طارق بن زياد وجيش القوط بوقت قصير. وذلك عندما أصبح طارق فعلاً في إسبانيا؛ فعرض أبناء غيطشة، أن يتخلوا عن لذريق، ويؤيدوا طارقاً بجنودهم شريطة أن يضمن لهم كل ممتلكات والدهم، والتي تبلغ ثلاثة آلاف ضيعة، وهي التي سميت فيما بعد بصفايا الملك، وذلك بعد أن يخضع إسبانيا جميعها. ولا تعرض المصادر العربية الأخرى لذكر أية مباحثات بين طارق بن زياد وأولاد غيطشة، بل كل ما في الأمر أن هؤلاء الأولاد وبعض نبلاء القوط قرروا التخلي عن لذريق في ساحة المعركة لأنهم اعتقدوا خطأ بأن العرب لا ينوون الاستقرار في البلاد، بل أنهم جاؤوا فقط من أجل الغنائم، وأنهم سيعودون بعد اندحار لذريق، ويرجع العرش إلى أسرة غيطشة. وبطبيعة الحال، فإن رأي هؤلاء المؤرخين أقرب إلى الصواب، وينسجم مع طبيعة الأحداث، فضلاً عن أنه يعارض فكرة نجاح الفتح بمساعدة قوى من داخل إسبانيا، الأمر الذي يروجه أعداء العرب للتقليل من شأنهم وقوتهم، فيبالغون في دور أسرة غيطشة في مساعدة العرب، وكذلك في دور اليهود، كما سنرى فيما بعد.

وإذا ما سلمنا بأن دور أسرة غيطشة وأنصارها قد اقتصر على الوقوف إلى جانب العرب بعد عبورهم فعلاً إلى إسبانيا، فإن دور الكونت جوليان يبقى أمراً لا يمكن إنكاره بسبب إجماع الروايات، على وجوده وموقفه من الفتح. ولكن ما هي مصلحة جوليان من فتح العرب لإسبانيا، لا سيما أننا استبعدنا دافع الانتقام الشخصي المتمثل برواية ابنته في بلاط طليطلة؛ لقد سبقت الإشارة إلى العلاقات الطيبة بين جوليان والملك غيطشة، وإلى المساعدات التي كان يتلقاها الأول من إسبانيا. ولكن بوفاة غيطشة ومجيء لذريق، توقفت هذه المساعدات نتيجة لانشغال الأخير بمشاكله الداخلية العصبية. وقد استاء جوليان من هذا الموقف، وشعر بأهمية التعاون مع العرب وبشكل خاص في العبور إلى إسبانيا، لأنه أدرك قوة العرب ومستقبل سيادتهم على المنطقة، هذا بالإضافة إلى أنه كان من أصدقاء الملك غيطشة، وبالتالي فهو لم يرض عن استيلاء لذريق على عرش إسبانيا بدلاً من ورثة غيطشة. ولهذا فقد بدأ اتصاله بطارق بن زياد لأنه كان قريباً منه في طنجة، أو ربما يكون طارق نفسه هو الذي اتصل به واطلع على رأيه في مسألة العبور إلى إسبانيا، لا سيما أننا نعلم أن دوافع العرب والمسلمين، والتي ذكرناها في أول الفصل، كانت قوية للفتح والتحرير، فلم يكونوا بحاجة لمن يحثهم على هذا الواجب المقدس، بل هم الذين اتخذوا بادرة الفتح بقيادة قائدهم الشجاع طارق بن زياد.

وتذكر بعض المصادر أن موسى بن نصير هو الذي اتخذ قرار الفتح، وهم يشيرون أيضاً إلى مراسلات تمت بهذا الشأن مع الخليفة في دمشق . ولكن بُعد المسافات بين طنجة والقيروان ودمشق تدعو المرء إلى التحفظ في قبول هذه الرواية، وبخاصة أن العديد من المؤرخين الآخرين يشيرون صراحة إلى أن عبور طارق إلى إسبانيا كان دون معرفة موسى بن نصير .. وبطبيعة الحال، فإن هذه المسألة ليست جوهريّة، لأن هدف كل من القائدين كان حتماً خدمة المبادئ الإنسانية التي حملها العرب، وتوصيلها إلى شعوب الأرض الأخرى، وبالتالي، فإن النتيجة واحدة، وهي فتح هذا الجزء من العالم وتحريره وليس أدل على هذا من مسارعة موسى بن نصير، حين سماعه بأنباء الفتح، إلى نجدة قائده طارق، والعمل على استكمال الفتح الذي تم أخيراً بالتعاون الفعال والمثمر بين القائدين.

ب- خطة الفتح وحوادثه في زمن طارق بن زياد:

لم يكن فتح العرب لإسبانيا مغامرة حربية ارتجالية بل كان فتحاً منظماً مدروساً حسب خطة ذكية وضعها القائد طارق بن زياد. فعلى الرغم من معرفته بالوضع المتردي الذي كانت عليه إسبانيا، لم يغامر بأرواح جنوده دون اتخاذ الاحتياطات اللازمة والقيام بغارة استكشافية على جنوب إسبانيا لجس النبض ومعرفة مدى مقاومة الأعداء في الجانب الآخر. وقد عهد بقيادة هذه الحملة الاستطلاعية إلى قائد يدعى أبو زرعة طريف ابن مالك المعافري، الذي عبر إلى الأندلس في رمضان سنة 91هـ/ آب - أيلول 710 م . وكانت قوة طريف الاستطلاعية تتألف من أربعمئة رجل ومئة فارس، أبحر هؤلاء على متن أربعة مراكب هيئت من قبل الكونت جوليان، ونزلت على جزيرة تسمى بالوماس (Las Palomas) والتي تقع على الشاطئ الإسباني في موضع أصبح يعرف حتى اليوم باسم طريف (Tarifa) . ولقد تكلفت جهود طريف بنجاح باهر، في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الأيبيرية، وقام بعدة حملات موفقة في المنطقة دون أن يلاقي أية مقاومة، وأصاب كميات وافرة من الغنائم والأسلاب، ثم رجع إلى الشمال الأفريقي .

حملة طارق بن زياد:

إن النتائج المرضية التي حققتها مهمة طريف شجعت طارقاً على المضي في خطته بالفتح، فقرر أن يقود بنفسه الحملة المقبلة التي كانت تتألف من اثني عشر ألف رجل من مقاتلي العرب والبربر المسلمين. وكانت نسبة البربر المشاركين في هذه الحملة عالية نظراً لاعتناقهم الإسلام وانتظامهم في الجيش. وكان معظم المقاتلين من العرب قد رجعوا إلى القيروان مع موسى بن نصير ولم يبقَ مع طارق بن زياد إلا عدد قليل من العرب من أجل أن يعلموا البربر مبادئ وتعاليم الإسلام . ويُعد عبد الملك بن عامر المعافري، الجد الأعلى للمنصور بن أبي عامر، من أشهر الرجال العرب المساهمين في هذه الحملة . ويذكر بعض المؤرخين أن جيش طارق كان يتألف أول الأمر من سبعة آلاف رجل، ثم لحقهم خمسة آلاف آخرون أرسلهم موسى بن نصير ، ولكن الأرجح أن الاثني عشر ألف جندي، المذكورين أولاً، هم الذين كانوا يأمرة طارق وبهم جميعاً عبر إلى الأندلس .

وتشير الظروف التي رافقت عبور طارق بن زياد ونزوله على الشاطئ الإسباني إلى أنه كان لا بد قد أبحر من سبتة. ويمكن أن نعلم على هذه الحقيقة، لأن المصادر تذكر باستمرار أن جيش طارق تم نقله إلى إسبانيا على متن مراكب تجارية قدمها جوليان حاكم سبتة . وبطبيعة الحال فقد كان طارق يمتلك سفنه الخاصة به في طنجة، هذا بالإضافة إلى السفن العربية الأخرى التي كانت تنتجها دار صناعة السفن في تونس . ولكن يبدو أنه أراد أن يحيط عملية نزوله بالسرية التامة، وذلك باستعمال مراكب تجارية، والاقلاع من ميناء آخر، أي من سبتة. ويصف المؤرخ التونسي عبد الملك بن الكردبوس عمليات نزول جيش طارق إلى الأندلس، فيذكر أن الأخير كان يرغب في إيجاد مكان ملائم للنزول على الشاطئ الإسباني (ربما منطقة الجزيرة الخضراء التي تقابل سبتة). ولكن طارفاً تخلى عن النزول في هذا المكان عندما وجد جماعة من القوط حاولت منع نزوله، فأبحر منه ليلاً إلى مكان وعرف من الشاطئ. وقد استخدم المجاذيف وبراذع الخيول التي ألقيت على الصخور لتسهيل عملية النزول، وبهذا ضمن سلامة جنوده . وقد نُفذت هذه العملية في الليل، وربما استغرقت أكثر من ليلة واحدة بسبب قلة المراكب، التي كانت مستمرة بنقل الرجال بين الشاطئين، إلى أن هبط كل أفراد الحملة على الأراضي الإسبانية بسلام.

ويجدر قبل استكمال عرض أحداث الفتح في عهد طارق أن نشير إلى القصة الشائعة التي تقول بأن طارفاً قد أحرق سفنه بعد نزوله إلى الشاطئ ليقطع على جنوده خط الرجعة وليحفزهم على الاستبسال في القتال، ثم خطبته المشهورة التي يبتدؤها بالقول: " أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... " . ولقد شك العديد من الكتاب المحدثين في نسبة هذين العاملين إلى طارق، لأن معظم المصادر العربية التي تحدثنا عن فتح الأندلس، لا سيما القديمة منها، لا تذكر شيئاً عن حرق السفن والخطبة. يضاف إلى ذلك، فإن أسلوب الخطبة وفصاحتها لا يشجعان على نسبتها إلى طارق، الذي تشير معظم الروايات إلى أنه كان من البربر. أما أسطورة حرق السفن فلم تدون إلا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد، أي بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون، ولهذا فهي أيضاً عرضة لكثير من الريب ..

نزلت حملة طارق على صخرة تسمى جبل كالبى (Mons Calpe) ، التي اتخذت اسم طارق منذ ذلك اليوم، فأصبحت تسمى بجبل طارق .. وهناك خلاف بشأن الموعد الصحيح للحملة، فيذكر بعض المؤرخين السنة التي حدث فيها الفتح فقط، أي سنة 92 هـ (تبدأ في تشرين الأول 710 م)، ويثبت آخرون اليوم والشهر الذي حدث فيه العبور، ومع هذا فإن الأغلبية تعتقد بأن نزول طارق على الشاطئ الإسباني حدث في رجب 92هـ/ نيسان 711 م .. وهذا وقت مناسب جداً لا سيما أنه يقع في موسم الربيع الذي يتميز باعتدال الجو. ولقد أقام طارق عدة أيام في الجبل الذي اتخذه قاعدة لعملياته العسكرية، التي ابتدأت بفتح الجزيرة الخضراء والمناطق المجاورة من أجل السيطرة على المضيق وحماية خطوطه الخلفية وتأمين اتصالاته بشمال أفريقيا. وفي الوقت نفسه أرسلت كتيبة قوية من الجند بقيادة القائد عبد الملك بن عامر المعافري لفتح حصن قرطاجنة، الذي يقع شمال غرب جبل طارق. وبعد سقوط هذا الحصن، وقعت كل المناطق المحيطة بمضيق جبل طارق بيد المسلمين. وتولى عبد الملك

المعافري مسؤولية حماية الجزيرة الخضراء، يساعده في ذلك جوليان، وبهذا أصبحت مؤخرة جيش طارق آمنة، وسهلت خطوط اتصاله بالشمال الأفريقي.

معركة كورة شذونة:

مضى على طارق نحو شهرين ونصف قبل أن تقع المعركة الفاصلة بينه وبين لذريق في كورة شذونة. وتذكر الروايات أنه هوجم في هذه الأثناء من قبل قائد قوطي يسمى تدمير الذي لم يستطيع إعاقة تقدم جيش طارق، فأرسل إلى لذريق بطلب المساعدة الفورية. واعتماداً على روايات أخرى، فإن لذريق كان قد أرسل قوات عديدة لإيقاف الجيش العربي الإسلامي، كانت إحداهما بقيادة ابن أخ له يدعى بنج Banj (بالاسبانية) ولكنه قتل مع رجاله. ولا يتوفر لدينا دليل يمكننا من أن نقطع برأي جازم في صحة أحداث هاتين الروايتين، ولكن يبدو أنه من غير المحتمل أن يقوم لذريق بإرسال قوات من مكان بعيد في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة، حيث كان مشغولاً بالقضاء على اضطرابات خطيرة في مقاطعة الباسك. وعلى أية حال، فما أن سمع لذريق بنزول طارق حتى رجع نحو الجنوب، وقام بالاستعدادات اللازمة لمواجهة جيش الدولة العربية، ومنها أنه توصل إلى مصالحة أسرة غيطشة وأنصارها للوقوف صفاً واحداً أمام المسلمين. وتبالغ الروايات العربية في تقدير جيوش الأعداء، فتذكر بأن عدد جيش لذريق كان يتراوح بين أربعين إلى مئة ألف رجل. وبطبيعة الحال، فإن الأوضاع السيئة التي كانت تعيشها إسبانيا في ذلك الوقت، تجعلنا لا نميل إلى تصديق الروايات التي تتبالغ كثيراً في عدد الجيش القوطي، ومع هذا، فمن المؤكد أنه كان يفوق جيش طارق بكثير. وتقابل الجيشان في كورة شذونة جنوب غرب إسبانيا، ولكن موقع المعركة الدقيق غير معروف تماماً. وهناك العديد من الدراسات الحديثة بشأن المكان الذي وقعت فيه المعركة الفاصلة بين لذريق وطارق، ومصير لذريق في هذه المعركة. وعلى سبيل المثال، فإن المستشرق الإسباني سافيدرا، يرى حدوث معركةين: الأولى: وقعت قرب مدينة شذونة، بين جبل رتين (Retin) وبحيرة لاخاندا (la Janda) ، والثانية: عندما هرب لذريق نحو الشمال وحارب جيش الدولة العربية بالقرب من مدينة سلمنقة Salamanca، حيث قتل ودفن في منطقة مجاورة. ويعارض ليفي بروفنسال وغيره من المستشرقين هذه الفكرة، ويتفقون مع المؤرخين العرب على حدوث معركة واحدة فقط بين القوط والمسلمين، وقعت بالقرب من ضفاف نهر وادي بكة أو لكة Guadalete، في كورة شذونة، وأن لذريق هزم وقتل، أو فقد قرب هذا النهر .

ويذكر بعض المؤرخين العرب أن لذريق هرب من ساحة القتال، وأنه قتل أو غرق في مكان يدعى وادي الطين، ولكنهم لم يحددوا موقع هذا المكان. ويعتمد الدكتور حسين مؤنس على التشابه الموجود بين اسم وادي الطين، واسم Guadalentin الذي هو أحد فروع نهر شقورة Seguar في محافظة مرسية في شرق إسبانيا، فيقترح بأن وادي الطين ما هو إلا نهر Guadalentin، ولهذا فهو يرى بأن المسلمين لاحقوا لذريق إلى هذا المكان، وهذا احتمال بعيد

يصعب تصديقه، لا سيما إذا ما لاحظنا بعد المسافة بين شذونة في الجنوب الغربي من إسبانيا، ومحافظة مرسية في الجنوب الشرقي.

إن موقع المعركة الدقيق ليس له أية أهمية جوهريّة بالرغم من كثرة البحوث والمقالات التي كتبت فيه. ومع هذا فعلى الباحث أن يعترف أنه بالرغم من أن المعركة استمرت ثمانية أيام فقط (28 رمضان - 5 شوال 92هـ/ 19 - 26 تموز 711 م)، فإن معركة واسعة النطاق كهذه، سميت بعدة أسماء مختلفة مثل معركة البحيرة، وادي بكة؛ وادي لكة، وادي البرباط، شريش، السواني، والسواقي، لا يمكن أن نحدد لها، كما يرى الدكتور أحمد مختار العبادي، مكاناً واحداً مثل جنوب مدينة شذونة أو شماليها، ولهذا فمن المحتمل جداً أنها حدثت كلياً أو جزئياً في كل هذه المناطق المذكورة التي تقع في كورة شذونة، فهي معركة هذه الكورة بأسرها .

استئناف حملة طارق إلى الشمال:

انهزم القوط الغربيون في هذه المعركة وتفرق جمعهم، وتكبدوا خسائر فادحة، ولكن مصير لذريق، كما أسلفنا، لم يكن معروفاً. أما المسلمون، فقد استشهد منهم ثلاثة آلاف رجل . ولقد كان هدف طارق المباشر أن يلاحق فلول المنهزمين وينهي مقاومتهم قبل أن يستأنف سيره نحو الشمال. وهذا يشير إلى أنه كان على علم تام بطبيعة الموقف في إسبانيا في ذلك الوقت، وأنه أدرك بأن فتح وتحرير إسبانيا بصورة كاملة لا يمكن أن يتم دون القضاء على قوة القوط. وقد افتتح طارق مدينة شذونة بعد انتصاره على لذريق، ولم يُضَيّع وقتاً فأكمل سيره إلى مدينة استجة Ecija، التي تجمع فيها فلول القوط في محاولة لمنع المسلمين من دخولها. وفي طريقه إلى هذه المدينة افتتح طارق مورور، وتدعى الآن Moron de la Frontera، في منطقة أشبيلية. وبعد ذلك عسكر قرب استجة وضرب عليها الحصار. وبعد معركة حامية حقق المسلمون نصراً آخر، بالرغم من مقتل وجرح العديد من رجالهم . أما فلول جيش القوط فقد هرب إلى مدن أخرى، وازدادت خشية القوط الغربيين جداً عندما تبين لهم عزم طارق على البقاء في إسبانيا، فهجروا مناطق السهول من البلاد، والتجأوا إلى الجبال وبقية المدن الحصينة الأخرى . ولمنع القوط من أية محاولة لتوحيد صفوفهم قرر طارق أن يزحف إلى طليطلة عاصمة القوط الغربيين. وأرسل حملة إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي لفتحها .

فتح قرطبة:

عهد طارق إلى مغيث الرومي بقيادة الحملة المتوجهة إلى قرطبة. فسار مصحوباً بسبعمئة فارس من استجة بينما زحف طارق ببقية رجاله إلى طليطلة. وعندما وصل مغيث إلى ضواحي قرطبة، عسكر في منطقة تسمى شقندة Seconda، قرب ضفاف نهرالوادي الكبير. وقد وجد بأن حاكم المدينة القوطي ما يزال هناك ترافقه حامية مؤلفة من أربعمئة إلى خمسمئة وُجل، أما بقية السكان فقد غادروا إلى طليطلة. ولكن مغيثاً أفلح في اقتحام المدينة بسبب وجود

ثغرة في أسوارها، فانسحب حاكمها مع حاميته، وتحصنوا في كنيسة تقع خارج الأسوار تدعى شنت أجلج San Acisclo، حيث ضرب عليهم الحصار هناك لمدة ثلاثة أشهر. وعندما أيقن هؤلاء بعدم قدرتهم على الاستمرار في المقاومة، حاول حاكمهم الهروب إلى طليطلة، لكنه وقع في أسر مغيث، وأبيدت الحامية بأجمعها. ثم وضع مغيث ترتيبات الدفاع عن المدينة وإدارتها، وتذكر المصادر أنه جمع كل يهود المدينة، وعهد إليهم بالاشتراك مع المسلمين بمهمة الدفاع عنها .

وتشير مصادرنا العربية إلى التعاون بين اليهود والعرب أثناء فتح الأندلس، وأنهم، أي العرب، كرروا ما فعلوه في قرطبة مع بقية المدن الإسبانية الأخرى، فحين يتم فتح أية مدينة، كانوا يعمدون إلى ضم سكانها اليهود إلى جملة المدافعين عنها .. بطبيعة الحال فإن التضييق الشديد الذي لاقاه اليهود على يد ملوك القوط الغربيين، جعلهم يميلون إلى العرب والمسلمين، الذين وثقوا بهم، وعاملوهم معاملة طيبة جداً، وخلصوهم من العذاب الذي كانوا فيه. إن موقف العرب النبيل، والتسامح الذي مارسوه مع اليهود في إسبانيا، بل في معظم المناطق التي شملتها الدولة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، قوبل مع الأسف بنكران وجود من قبل الصهيونية العالمية التي شردت أبناء العرب واغتصبت أرضهم في فلسطين.

ومع هذا فعلى المرء أن يتوقع بأن قصة التعاون الذي ساهم به اليهود في الفتح قد بولغ فيها كثيراً، لا سيما من قبل بعض المؤرخين الإسبان . والغرض من هذا واضح، وهو محاولة التلميح إلى أن العرب لم يتمكنوا من فتح إسبانيا لولا مساعدة اليهود. والتآمر معهم على دولة القوط. وهذا بطبيعة الحال غير صحيح كما أسلفنا في الفصل الأول، لأن اليهود ساعدوا العرب بعد دخولهم الفعلي إلى إسبانيا، ولم يكن هناك اتفاق سابق أو مؤامرة مدبرة لتسليم إسبانيا إلى العرب.

فتح طليطلة وما يجاورها:

سار طارق من استجة في طريقه إلى طليطلة عبر الطريق الروماني القديم الذي يمر بمدينة جيان Jaen، والذي يدعى هانيبال Anibal. فعبر نهر الوادي الكبير عند منجيبار Mengibar، وتقدم إلى الشمال . وعندما وصل إلى طليطلة، وجدها خالية إلا من بعض اليهود، ووجد حاكمها قد انسحب إلى مدينة أخرى خلف الجبال. وقد سار طارق لملاحقة الهاربين، مخلفاً وراءه بعض الجنود الذين تولوا مسؤولية الدفاع عن المدينة. واتخذ طارق وادي الحجارة Guadalajara، فوصل إلى مدينة تسمى مدينة المائدة .، ويحتمل أنها قلعة هنارس Alcala de Hanares التي تقع شمال شرقي مدريد الحالية .. أما اسم المائدة فهو مشتق من "مائدة" ثمينة صنعت من الذهب والفضة ومن معادن نفيسة أخرى، عثر عليها طارق بن زياد، وهي، كما يُروى، تعود إلى سليمان بن داود عليهما السلام . وقصة المائدة كما يبدو ما هي إلا محض أسطورة وإن ما عثر عليه طارق لا يعدو أن يكون مذبحاً لكنيسة طليطلة حُمل إلى هذا المكان من قبل الهاربين والقساوسة . وعلى أية حال، فبعد فتح قلعة هنارس ووادي الحجارة، غنم طارق هذه "المائدة"

مع الكثير من التحف الثمينة الأخرى. ولم يستمر في التقدم إلى أبعد من هذا المكان، بل عاد إلى طليطلة في سنة 93 هـ (المبتدئة بتشرين الأول 711 م)، وقضى فصل الشتاء هناك . ومع هذا فهناك روايات أخرى تشير إلى أنه استمر في فتوحه، فوصل إلى جليقية Galicia، واسترقة Astorga، وما يجاورها من مناطق ، الأمر الذي يصعب تصديقه، بسبب اطلالة الشتاء وصعوبة تضاريس المنطقة.



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

History of Andalusia : اسم المادة باللغة الإنكليزية :

اسم المحاضرة الثالثة باللغة العربية: حملة موسى بن نصير:

Musa bin Naseer's Campaign: اسم المحاضرة الثالثة باللغة الإنكليزية :

- حملة موسى بن نصير:

لقد كان رد الفعل لنجاح حملة طارق عظيماً في شمال أفريقيا، فبعد سماعهم بالنصر الذي أحرزه طارق على لذريق في موقعة كورة شذونة، اتجه البربر إلى إسبانيا من كل صوب، وعبروا المضيق بكل ما وقعت عليه أيديهم من قوارب ومراكب. وبعد وصولهم مباشرة، بدأوا بالاستقرار في المناطق السهلة من البلاد، لا سيما تلك التي هجرها السكان المحليون الذين هربوا إلى القلاع والحصون المنيعة. وعندما وصلت هذه الأنباء، وأحداث النجاح الباهر الذي حققه طارق في إسبانيا، إلى اسماع موسى بن نصير في القيروان، قرر أن يزحف بجيش عربي كبير إلى شبه الجزيرة ليعمل طارق وينهي المقاومة القوطية المتبقية. وتشير إحدى الروايات إلى أن طارقاً أسرع بعد انتصاره على قوات القوط الغربيين بإشعار موسى بن نصير بالنصر الذي أحرزه، وسأله القدوم للنجدة بإمدادات جديدة. أما الروايات التي تصور عبور موسى على أنه نوع من الحسد لطارق خشية أن يحصل وحده على شرف الفتح وغنائمه، فلا نصيب لها من الصحة، لأن طارقاً كان أحد قادة موسى وما يفتتحه فهو باسم أميره ولمصلحة الدولة العربية الإسلامية التي ينتمي إليها الاثنان. يضاف إلى ذلك أن موسى بن نصير، كان أعظم من أن يحسد أحد رجاله، وهو القائد العظيم الذي حرر الشمال الأفريقي بأسره، وجاهد في سبيل نشر مبادئ الحق والعدل التي حملها العرب إلى الأمم المختلفة. إن حملة موسى بن نصير لا يمكن أن تفسر إلا على ضوء المصلحة العامة التي اقتضت تثبيت الفتح وتعزيزه، ونجدة الجنود المسلمين الذين اتخذوا زمام المبادرة بالعبور إلى إسبانيا في الحملة الأولى. ولما كان موسى بعيداً في القيروان، فإن تصويره عن ظروف عبور طارق ووضعه في الأندلس لم يكن واضحاً تماماً، ولهذا، فقد كتب إليه يلومه على مبادرته بالهجوم دون تلقيه الأوامر منه، وأرسل إليه تعليمات بعدم التحرك من مواقعه التي هو فيها حتى يلحق به. ولكن طارقاً لم يستطع تنفيذ هذا الأمر بسبب المقاومة القوطية، والجيوب التي كان لا بد من القضاء عليها بسرعة، لا سيما في طليطلة وما يجاورها.

وصل موسى بن نصير إلى الأندلس في رمضان سنة 93 هـ/ حزيران - تموز 712 م. وكان يرافقه جيش عربي يقدر عدده بنحو ثمانية عشر ألف رجل. وكان معظم هؤلاء من القبائل اليمينية، وبقية العشائر العربية الأخرى التي كانت موجودة فعلاً في شمال أفريقيا، وبشكل خاص في القيروان. وضمت الحملة أيضاً أعداداً كبيرة من رجال قريش البارزين، الذين كانوا في مناصب القيادة، إضافة إلى الإداريين، ورجال الدين، وبقية القادة المحنكين من أمثال محمد بن أوس الأنصاري، وحبيب بن أبي عبدة الفهري، وعياش بن أخيل، وعبد الجبار بن أبي سلمة الزهري، والعديد من أبناء موسى نفسه، باستثناء عبد الله، الذي تخلف في القيروان ليتولى مسؤولية ولاية شمال أفريقيا.

لقد قسم موسى جيشه إلى وحدات عديدة تبلغ أكثر من عشرين وحدة، كل وحدة تحت راية. وكانت اثنتان من هذه الرايات تحت قيادة موسى المباشرة، بينما تولى ابنه عبد العزيز قيادة راية ثالثة. أما بقية الرايات، فكانت بقيادة قواده من قريش ومختلف العشائر العربية الأخرى. وقد عسكرت الحملة بالقرب من الجزيرة الخضراء لعدة أيام من أجل الراحة والاستعدادات العسكرية. وعندما قرر موسى السير، استشار قواده بشأن الطريق التي يجب سلوكها. وقد اتفق الجميع أن يبدأوا بمنطقة أشبيلية، وبقية الأجزاء الغربية الأخرى، التي لم يفتتحها بعد طارق بن زياد. وقبل أن يغادر موسى الجزيرة الخضراء، أمر بإرساء الحجر الأساس لبناء مسجد هناك تخليداً لذكرى حملته هذه، سمي بمسجد الرايات .

خط سير حملة موسى:

لقد كان لأداء جوليان وأعوانه دوراً كبيراً في تعريف موسى بن نصير بالطريق الجديدة والمدن غير المفتوحة، وهكذا فقد سارت الحملة بالقرب من شذونة، ثم زحفت شمالاً إلى قرمونة Carmona. ونظراً لقوة هذه المدينة وحصانتها، كان على موسى أن يستعمل الحيلة في فتحها، فأرسل إليها بعض أتباع جوليان الذين أظهروا لأهل المدينة على أنهم أصدقاء جاؤوا فراراً من العرب، فسمح لهم القوط بدخول المدينة. ولكن ما إن حل الليل، حتى فتح هؤلاء الأبواب للعرب، فهجموا على الحراس، وفتحوا المدينة. وبعد ذلك تقدم موسى إلى قلعة رعاوق Alcala de Guadaira، ففتحها، ثم سار إلى أشبيلية التي قاومت هجوم الجيش العربي الإسلامي لعدة شهور، ولكنها أخيراً فتحت عنوة، وفرت حاميتها إلى باجة Beja. وترك موسى قوة من جنده للدفاع عن المدينة، ثم سار إلى ماردة. وتذكر بعض الروايات الأخرى، أن موسى لم يذهب مباشرة إلى ماردة، بل لاحق فلول المنهزمين غرباً إلى لبلبة Niebla، واكشونبة Ocsconoba، وباجة في جنوب البرتغال .

وبعد أن تم فتح هذه المدن، سار موسى باتجاه ماردة Merida، وضرب عليها الحصار، ولكن جنود القوط قاوموا الهجوم العربي الإسلامي، مما أدى إلى سقوط بعض الشهداء في صفوف جيش موسى. وأخيراً وبعد مقاومة دامت عدة أشهر استسلمت المدينة في شوال 94 هـ/ تموز 713 م. وقد رافق هذا الاستسلام عقد معاهدة بين الطرفين، تعهد العرب بموجبها بعدم التعرض بالأذى للسكان المحليين الذين يبقون في المدينة أو يغادرونها إلى أي مكان آخر، كما ضمنت لهم حرياتهم وكنائسهم وأداءهم لطقوسهم الدينية، كما هو معروف عن التسامح العربي مع الشعوب التي يحررونها. ومن جهة أخرى ضمنت هذه المعاهدة للمسلمين ممتلكات الذين قتلوا في الحرب. والهاربين من القوط إلى منطقة جليقية في الشمال الغربي من البلاد.

توجه موسى بعد شهر من فتح ماردة إلى طليطلة. وعندما سمع طارق بقدمه خرج هو وقواده للترحيب به. ولقال أن اللقاء بين الاثنين تم في مكان يدعى المعرض Almaraz، بين نهري تاجة والتيتار Tietar، قرب طليطلة Talavera غربي طليطلة .

وقد عاتب موسى قائده على مباشرته الفتح دون استشارة رئيسه الأعلى، وعلى عدم تنفيذه أوامره بالتوقف لحين وصوله إليه، ولكن طارِقاً، كما يبدو، استطاع أن يبرر ما قام به، وأن يقنع موسى بوجهة نظره في الفتح، وسرعة القضاء على بقايا القوط من أجل توفير المناخ الملائم للعرب والمسلمين للاستقرار في المناطق المفتوحة. ويدل على هذا، التفاهم المتبادل، والتعاون المشترك الذي ساد بين القائدين خلال فتوحاتهما المشتركة المقبلة .

فتوحات موسى وطارق المشتركة في الشمال:

مضى القائدان إلى طليطلة، وربما تم من هناك إرسال وفد إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، كانت مهمته نقل أخبار الفتح إلى دمشق . وفي بداية ربيع عام 714 م/94 هـ، تحركت القوات المشتركة لموسى وطارق نحو الشمال الشرقي، ففتحا سرقسطة وما يجاورها، واستمرا في التقدم، فوقع العديد من المدن الاسبانية الأخرى بأيديهما مثل، طركونة (Tarragona، وبرشلونة Barcelona، ولاردة Lerida، ووشقة (64 Huesca) . وذكر بعض المؤرخين، ومنهم ابن حيان، أن موسى عبر جبال ألبرت Pyrenees، وتوغل في داخل فرنسا حتى بلغ نهر الرون (65 Rhone) . ويقول آخرون إنه أراد أن يكمل زحفه عبر أوروبا حتى يصل إلى القسطنطينية عن طريق الغرب ، ويصعب تصديق مثل هذه الروايات التي تفتقر إلى الأدلة التاريخية، وبخاصة أنها لم يرد لها ذكر في الحوليات المسيحية المعاصرة للأحداث.

بعد فتح سرقسطة والجزء الأكبر من منطقة الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية، قرر موسى أن يفتح مناطق قشتالة القديمة Castilla la Vieja، فقسم جيشه إلى قسمين: أسندت قيادة الأول إلى طارق بن زياد، أما الثاني، فظل تحت إمرة موسى نفسه . ومضى طارق بمحاذاة الجهة الشمالية لوادي نهر الابرّة، فهاجم منطقة الباسك، ثم افتتح أماية (Amaya، واسترقة Astorga، وليون (68 Leon) . أما موسى فسار ببقية الجيش إلى الجنوب من وادي الابرّة، ففتح لك Lugo، وباشر بإرسال حملات صغيرة لافتتاح المناطق المجاورة حتى صخرة بلاي (Pena de Pelayo على المحيط الأطلسي . وفي أثناء هذه الفتوحات، كان كل من موسى وطارق يقومان بوضع حاميات إسلامية في المناطق المحررة، وقد ورد ذكر إحدى هذه الحاميات في حولية مسيحية، حيث تشير إلى أن منوسة، Munnuz، أحد أصدقاء طارق، كان قد عهد إليه بقيادة حامية مدينة خيخون Gijon التي تقع على ساحل المحيط الأطلسي . ويحتمل أن تكون فتوحات موسى قد غطت مناطق أخرى في شمال غرب شبه الجزيرة، ولكن لا توجد لدينا أدلة مدونة على ذلك. وعلى أية حال، فلقد حرر كل من موسى وطارق معظم جليقية والاشتوريش، وتعقبا الفلول الأخيرة لجيش القوط الغربيين، واضطروها للفرار حتى جبال كانتبريا. ومن ثم اعتقد القائدان أنهما قد أنهيا المقاومة القوطية، ولا حاجة لهما بتتبع الأعداد الضئيلة الباقية من المنهزمين.

د - فتوحات عبد العزيز بن موسى:

رافق موسى بن نصير، كما أسلفنا، العديد من أبنائه، ومن أشهرهم عبد العزيز، وعبد الأعلى، ومروان. ولقد لعب هؤلاء، وبشكل خاص، عبد العزيز، دوراً هاماً في فتح شبه الجزيرة. وعلى العموم فهناك نقص في المعلومات، وأحياناً تناقض في الروايات التي تتعلق بذكر تواريخ وأماكن حملات عبد العزيز بن موسى. لقد أرسل موسى ابنه عبد العزيز وعبد الأعلى إلى جنوب وشرق إسبانيا، وذلك لاستكمال فتح هذه الجهات التي لم يمر بها طارق بن زياد. وكان هذا على الأغلب بعد سقوط أشبيلية، عندما اتجه موسى إلى الغرب. فاستطاع عبد الأعلى، وربما كان ذلك بمساعدة عبد العزيز أيضاً، أن يفتتح كلاً من مالقة (Malaga، والبيرة (71 Elvira). ثم توجه عبد العزيز بعد ذلك إلى شرق شبه الجزيرة، حيث تركزت المقاومة القوطية في هذه المنطقة في كورة تدمير، التي أسماها المسلمون بهذا الاسم نسبة إلى أميرها الدوق تدمير Theodemir. والتقى عبد العزيز بحاكم هذه المقاطعة قرب أوربولة Orihuela. وكان هذا الأخير رجلاً حازماً وذا خبرة عظيمة في تقدير الأمور، فقاوم لفترة قصيرة هجوم عبد العزيز، لكنه توصل أخيراً إلى عقد معاهدة صلح معه في رجب عام 94 هـ/ نيسان 713 م. وبموجب هذه المعاهدة التي ذكر تفاصيلها المؤرخون العرب، حصل تدمير على شروط مناسبة جداً للصلح، فقد اعترف به العرب حاكماً على سبع مدن تقع ضمن منطقتهم، كما احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن، شريطة أن يدفع جزية سنوية تقدر بدينار ذهبي واحد، مع كميات معلومة من القمح، والشعير، والخل، والعسل، والزيت، لكل فردٍ حرٍ مع أفراد رعيته، أما العبيد، فتؤخذ عنهم نصف هذه الكمية. وقد وافق تدمير أيضاً على ألا يقوم أحد من رعيته بتجاهل هذه المعاهدة أو الإخلال بشروطها، وألا يأووا للمسلمين آبقاً، ولا عدواً، ولا يكتموا عنهم خبراً يتعلق بأعدائهم. وبالمقابل فإنهم لن يقتلوا، ولن يُسبوا، أو يُجردوا من ممتلكاتهم، أو يُفترق بينهم وبين أولادهم ونسائهم، وسوف يُسمح لهم بممارسة شعائر دينهم، ولن تُحرق كنائسهم. وتعد هذه المعاهدة من المعاهدات الفريدة في تاريخ الفتوحات العربية الإسلامية لأنها وصلتنا كاملة، وهي تشير بصرحة إلى مدى التسامح الذي تميز به العرب إزاء الشعوب المحررة، واحترام حقها في الإدارة، وفي العيش بحرية ضمن المجتمع الإسلامي الذي أعقب الفتح. وبعد إقرار الأمور في جنوب شرق شبه الجزيرة، عاد عبد العزيز، إما حسب رغبته، أو لأن والده استدعاه بسبب تمرد مدينة أشبيلية. ولقد أيدت هذا التمرد عناصر قوطية جاءت من مدينتي نبله وباجة، فهاجموا الحامية العربية الإسلامية في المدينة، وقتلوا ثمانين رجلاً، وفر الباقون إلى معسكر موسى الذي كان محاصراً لمدينة ماردة. وبعد استسلام هذه المدينة، قاد عبد العزيز حملة إلى أشبيلية، وتمكن من إعادة فتحها بسهولة. ثم سار بعد ذلك إلى نبله وباجة لتقوية حاميتيهما. وقد عاد عبد العزيز إلى أشبيلية، ومن ثم إلى ماردة، حيث تولى القيادة العامة لكل المناطق المحررة في هذه المنطقة. ويرى سافيدرا، ويؤيده في ذلك أحد المستشرقين البرتغاليين، أن عبد العزيز ابتداءً من هنا حملته لفتح وسط البرتغال، في الوقت الذي كان فيه موسى وطارق يقومان بفتوحاتهما في الشمال، ففتح عدة مدن، وعقد معاهدات صلح مع يابرة (Evora، ولشبونة (Lisbon وقلمرية (Coimbra، وشنترين (75 Santarem).

وصلت إلى دمشق أنباء فتوحات موسى بن نصير وعزمه على التوغل بعمق في شبه الجزيرة الأيبيرية، فلم يوافق الخليفة الوليد الأول على هذا المشروع، وخشي على أرواح المسلمين من العواقب التي يصعب التكهّن بها نتيجة

لتوغل موسى البعيد في أرض الأعداء. فأرسل لاستدعاء كل من موسى وطارق من دمشق، وقد تلاكأ موسى بن نصير في تنفيذ الأمر، وذلك لاستكمال فتح المناطق الشمالية الغربية من البلاد. ولكن الخليفة أرسل رسولاً ثانياً يأمره بالتوقف والعودة حالاً إلى العاصمة. وتنفيذاً لهذا الأمر، عاد موسى وطارق، أما غالبية جنودهما ففضلوا البقاء في المدن والأرياف المفتوحة، حيث استقروا وأقاموا منازلهم . وقبل رجوعه، عين موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس، وترك معه بعض القادة العرب من أمثال حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وزياد ابن النابغة التميمي، وغيرهما مع رجال عشائهم، ليدافعوا عن البلد ويحموه. وقد اختار موسى، أشبيلية عاصمة للبلاد، وذلك بسبب قربها من البحر، ومضيق جبل طارق، كما جعلها أيضاً قاعدة بحرية للدولة العربية الإسلامية في الأندلس .

غادر موسى في ذي الحجة سنة 95هـ/ أيلول 714 م، ومعه الشيء الكثير من الغنائم والأسرى والهدايا الثمينة. وتروي المصادر أنه حينما اقترب من فلسطين طلب منه الأمير سليمان بن عبد الملك أن يترث قليلاً لحين وفاة الخليفة الوليد الذي كان مريضاً جداً، وذلك من أجل أن تؤول إلى سليمان الغنائم وشرف الفتح، ولكن موسى لم يقبل هذا، وواصل سيره إلى دمشق فبلغها والخليفة يحضر . وعندما تولى سليمان بعد أخيه حقد على موسى لهذا السبب، فاضطهده، واتهمه باختلاس الأموال، وصادر أمواله، وفرض عليه غرامة مالية كبيرة . ومع هذا، فلا يمكن للمرء أن يصدق أن سبب غضب سليمان على موسى، كان له علاقة بهذه المسألة الشخصية، فهو يعود بالدرجة الأولى إلى سياسة موسى بن نصير أثناء فتح الأندلس، وتباطئه في إطاعة أوامر الخلافة. ويدل على هذا الأمر أن الخليفة الوليد نفسه لم يقابله بمقابلة حسنة للسبب ذاته .

وعلى أية حال، فإن علاقة سليمان تحسنت مع موسى إلى درجة كبيرة فيما بعد، حتى أنها ذهبا سوية لأداء فريضة الحج. وقد توفي موسى في الحجاز عام 97هـ أو 98هـ/ 715 م أو 716 م . ولا تتوفر لدينا معلومات عن طارق بن زياد بعد وصوله إلى دمشق باستثناء أن الخليفة سليمان أراد أن يعينه والياً على الأندلس، لكنه عدل عن هذه الفكرة، متأثراً بنصيحة مغيث الرومي الذي أثار مخاوف الخليفة من نفوذ طارق واحتمال استقلاله بالأندلس . وهكذا غلف الصمت والغموض نهاية طارق الذي يعد، هو وقائده، موسى بن نصير من أعظم من أنجبتهم الأمة العربية الإسلامية من الفاتحين الذين ضربوا المثل في الشجاعة والحنكة السياسية والعسكرية. ولقد كان فتحهما وتحريرهما للأندلس بحق من معجزات قوة العرب والمسلمين الموحدة، والتي أنجزت في نحو أربع سنوات ما تعجز عنه الأمم في عشرات من السنين.



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : History of Andalusia

اسم المحاضرة الرابعة باللغة العربية: - توغل العرب ونشاطهم فى جنوب فرنسا:

اسم المحاضرة الرابعة باللغة الإنكليزية : **The incursion of the Arabs and their activities in the south of France.**

- توغل العرب ونشاطهم في جنوب فرنسا:

تفصل جبال ألبرت أو البرتات، وهي التي تعرف خطأ باسم البرانس، إسبانيا عن جنوب فرنسا. وكانت هذه المنطقة الجنوبية من فرنسا تسمى بغالة Gaul. وهي تتألف من عدة ولايات، كولاية سبتمانية، وتعني المقاطعة ذات المدن السبع، منها أربونة Narbonne وهي عاصمة هذه الولاية، وقرقشونة Carcassonne وتقع دوقية أكيثانية إلى الشمال الغربي من ولاية سبتمانية، وعاصمتها برديل الواقعة على مصب نهر الجارون. وإلى الغرب من هذا النهر، يقع إقليم برغندية، وعاصمته مدينة لودون أو ليون Lyon. وكانت المنطقة الواقعة إلى الشمال من نهر اللوار خاضعة للدولة الميروفنجية.

وتشير بعض الروايات العربية إلى أن موسى بن نصير وطارق بن زياد كانا أول من عبرا جبال ألبرت، ففتحا أراضي ومدناً في جنوب فرنسا، ومنها أربونة وأبنيون، وليون، حتى انتهيا إلى وادي رُودنة. وكما أسلفنا، فإن ما تذهب إليه هذه الروايات بعيد الاحتمال، ولا يتوفر لدينا ما يؤيد وصول هذين القائدين إلى هذه المناطق، لا سيما ونحن نعلم أن موسى اضطر إلى عدم استكمال فتوحه في شبه الجزيرة الأيبيرية ذاتها بسبب استدعاء الخليفة له. وهناك رواية مسيحية أخرى تشير إلى أن الحر بن عبد الرحمن الثقفي، الوالي الذي أعقب أيوب بن حبيب اللخمي، قد توغل عبر جبال ألبرت وافتتح أربونة عاصمة غالة .. ويذكر المؤرخ الإسباني رامون عبد ال R. Abdal إن الحر قد فتح قطلونية Catalonia وبرشلونة في الشمال الشرقي من إسبانيا ووصل إلى جبال ألبرت. ولكن لا توجد أية إشارات في بقية المصادر المسيحية، أو في المصادر العربية القديمة تؤيد هذه الفتوحات، ولهذا فمن الصعب التعويل على ما جاء في هذه الروايات.

الفتوح في عهد السمع بن مالك الخولاني:

تتفق معظم المصادر على أن نشاط حركة الفتوح عبر جبال ألبرت ابتدأ في عهد السمع بن مالك الخولاني (100 - 102 هـ / 719 - 721 م) الذي عينه الخليفة عمر بن عبدالعزيز ليكون والياً للأندلس بدلاً من الحر بن عبد الرحمن الثقفي، لنزاهته وشدة إيمانه. وما أن استقر السمع في الولاية وقضى على بعض الاضطرابات الداخلية، وأصلح الأمور الإدارية، وقام ببعض الإصلاحات العمرانية، حتى بادر بالنهوض إلى الفتح والجهاد في جنوب فرنسا، وذلك من أجل توحيد طاقات العرب والمسلمين في الأندلس مرة أخرى وتوجيهها نحو الأعداء في بلاد الفرنجة.

شرع السمع بسلسلة من الحملات والفتوح في غالة، فسار بجيش كبير عبر منطقة سرقسطة، واجتاز جبال ألبرت إلى أن أصبح أمام أربونة عاصمة ولاية سبتمانية، فحاصرها وافتتحها عنوة. ثم حصن أسوارها ووضع فيها وفي المدن المجاورة لها الحاميات. ثم توغل من هذه المدينة إلى داخل غالة حتى وصل إلى طولوشة Toulouse. وفي محاولة لافتتاح هذه المدينة بالقوة، أحاطها المسلمون بالخنادق والمنجنيقات وسائر أدوات الحصار، حتى أوشك أهلها على التسليم. وعندما سمع الدوق أودو Eudo، دوق أكيثانية، بهذا سار مسرعاً نحو المدينة، واشتبك مع الجيش العربي الإسلامي في معركة حامية بالقرب من مدينة طولوشة، أسفرت عن هزيمة السمع واستشهاده مع الكثير من رجاله (يوم عرفة سنة 102 هـ / 15 حزيران 721 م). وقد استطاع مساعده، القائد عبد الرحمن الغافقي، أن يقود فلول الباقين من الجيش الإسلامي ويرجع بهم إلى أربونة، ومن ثم إلى

الأندلس . وعلى أثر هذه الهزيمة تشجع أهالي المنطقة لخلع طاعة العرب، لكن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكنين من أربونة، وقد جاءتهم نجدات من الأندلس، فثبتوا في المناطق التي تم فتحها على يد السمح بن مالك .

وظلت أربونة قاعدة للفتوح والجهاد في جنوب فرنسا؟- ولعل قربها من البحر وسهولة تلقي المسلمين الإمدادات عن طريق الأساطيل بدلاً من عبور جبال ألبرت، هو الذي أدى إلى تمسك المسلمين بهذه المدينة . - يضاف إلى ذلك، أن مناخ أربونة يشبه مناخ المدن العربية، أي أنها لطيفة الشتاء، حارة القيظ لولا نسيمات البحر المجاور. وتكثر فيها حاصلات المناطق الحارة مثل الكروم والتين والزيتون والصبير. ونتيجة لهذا، فقد عُدت أربونة أقصى ثغور الأندلس، تتجمع فيها النجدات والحملات المتجهة إلى فرنسا، بعد أن تمر بالقاعدة الجنوبية الأخرى، وهي برشلونة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الأيبيرية .

الفتوح في عهد عنبسة بن سحيم الكلبي:

أقام الجنود الراجعون من الحملة على جنوبي فرنسا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً على الأندلس، وكانت هذه ولايته الأولى التي لم تستمر سوى فترة قصيرة جداً (من ذي الحجة 102 - صفر 103 هـ/ حزيران 721 - آب 721 م)، وذلك لأن عامل إفريقية استبدله بوال آخر هو عنبسة بن سحيم الكلبي الذي وصل الأندلس في صفر 103 هـ/ آب 721 م . وكانت الأندلس تعاني من الاضطراب بسبب الهزيمة التي أصابت المسلمين في جنوب فرنسا، وبسبب النزاع المستمر بين القبائل العربية. لذلك فقد قضى عنبسة فترة السنوات الأولى من ولايته في تنظيم وتهندة البلاد. ويضاف إلى ذلك، أنه وجه جهوده للقضاء على التمرد في جليقية، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وكان عنبسة ذا حماس للفتوح، وللسير في الطريق التي سلكها السمح من قبله. وكان يرمي إلى الحفاظ على منطقة غالة القوطية، وحماية خطوط مواصلات العرب مع أربونة. ولهذا، فلم تكد الأمور تستقر له، حتى سار بجيش عظيم نحو بلاد غالة، أو جنوب فرنسا، وحاول تدعيم خط الدفاع أمام أربونة. فحاصر مدينة قرقشونة، وافتتحها بعد فترة وجيزة، وذلك بعد أن نزل المدافعون عن البلد على شروطه. فعقد معهم معاهدة صلح وافقوا بموجبها على منح نصف المدينة وما حولها للمسلمين، وأن يدفعوا الجزية، ويطلقوا سراح جميع الأسرى المسلمين الموجودين في المدينة، وأن يلتزموا بروح هذه المعاهدة، وذلك بمقاتلة أعداء المسلمين ومحالفة أصدقائهم . واستولى عنبسة بعد هذا على جميع غالة القوطية، ووصل إلى نيمس Nimes، وأخذ رهائن من أهلها وأرسلهم إلى برشلونة، القاعدة الإسلامية في شمال شرق الأندلس. ومن هذا المكان سار المسلمون حتى أدركوا نهر رودنة، وصعدوا مع النهر إلى نهر الساوون، ومن ثم توغلوا في إقليم برغندية وفتحوا مدينة أوتون Autun في 22 آب 725 م/ ربيع الثاني 107 هـ . ويذكر بعض المؤرخين أن حملة عنبسة استمرت في سيرها حتى وصلت إلى مدينة أوزة Uzes، وفيه Viviers وفالانس Valence وليون، وماسون Macon، وشالون Chalon. ومن هناك تفرعت إلى فرعين، سار الأول نحو ديجون Dijon وبيز Beze ولانجر Langres، واتجه الثاني إلى أوتون مرة أخرى، ولم يقف تيار هذه الحملة إلا قرب بلدة سانس Sens، على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب من باريس، وذلك بسبب تصدي أسقف سانس للمسلمين ووقفه لتقدمهم . وقد عاد عنبسة ومن معه من الجند، وذلك بعد أن وصلته أنباء بحدوث بعض القلاقل في البلاد. ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى الأندلس، فقد هاجمته في طريق العودة جموع كبيرة من الفرنج، فاستشهد نتيجة للمعركة التي حدثت بين الطرفين في شعبان 107 هـ/ كانون الأول 725 م. فقام القائد عدرة بن عبد الله الفهري -وتسميه المصادر المسيحية Hodera أو Hodeyra (24) - بقيادة الجيش والعودة به إلى قواعده. وهو الذي خلف عنبسة على ولاية الأندلس.

ويبدو أن حملة عنبسة لم تكن ترمي إلى الفتح المنظم الثابت؟، والدليل على هذا أنه لم يضع الحاميات في بعض المدن التي افتتحها، ولم يعمل على استقرار المسلمين في هذه المدن. وهذا يشير إلى أن حملته لم تكن سوى حملة سريعة بعيدة المدى، قصد منها الاستطلاع والتعرف إلى البلاد تمهيداً لفتوحات لاحقة. "ولو استقر عنبسة في ليون مثلاً"، كما يقول أحد المؤرخين المحدثين، "أو في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في إمكاننا أن نقرر أنه فتح جنوبي غالة ووسطها، أما وقد عاد أدراجه بعد أن سار نحو ألف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول إلا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة... ومهما يكن الأمر فإن عنبسة بن سحيم الكلبي ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر، فخر الوصول بريايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم آخر".

ونلاحظ على حملة عنبسة أيضاً أنها بعد أن فتحت قرقشونة لم تستمر بالاتجاه إلى طولوشة في مقاطعة أكيثانية، بل عدلت عن ذلك إلى إقليم بروفانس وبرغنديّة. ويرجع السبب في ذلك كما يرى بعض الكتاب المحدثين إلى قيام علاقات صداقة بين المسلمين وبين الدوق أودو، دوق اكيثانية، الذي كان في ذلك الوقت يخشى بأس الدولة الميروفنجية، وحاجب ملكها شارل مارتل، صاحب الأمر في هذه الدولة آنذاك. وكان هذا الأخير ينفّس على الدوق أودو مكانته ويتمنى إزالته عن ولاية أكيثانية. وتربط المصادر اللاتينية صداقة الدوق أودو بحاكم شرطانية، منوسة البربري، فتذهب إلى أن الدوق أودو صاهر منوسة وزوجه من إحدى بناته لكي يأمّنه على بلاده.. ولهذا فعند قدوم المسلمين بقيادة عنبسة لم يسر لحربهم كما فعل أيام السمع بن مالك، ولم يحاول أن يهاجمهم من الخلف بعد أن تركوا بلاده، بل سهل لهم السير في مقاطعة برغنديّة، فساروا حتى قاربوا نهر السين. ولهذا فقد انصرف العرب عن بلاده، لأنه كان حليفهم.. ومن الجدير بالذكر أن هناك من الكتاب الآخرين من ينفي وقوع مثل هذه الصلات بين العرب والمسلمين وبين الدوق أودو، وينفون أيضاً تعاون منوسة مع هذا الدوق، وعدائه لبعض الولاة من أمثال عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي. بل إنهم ينكرون أصلاً وجود شخص باسم منوسة، معتمدين في ذلك على أن هذا الاسم ليس لشخص، إنما قد يكون تحريفاً لاسم مكان. ولا تخفى، بطبيعة الحال، الدوافع النبيلة التي تحمل هؤلاء الباحثين على هذا الرأي، وهي محاولة التصدي لبعض المؤرخين المسيحيين المتعصبين والمستشرقين الذين استغلوا هذه القصة أكثر مما يجب للنيل من المسلمين وتشويه فتوحاتهم في جنوب فرنسا. ومع هذا يبدو من الصعب إنكار وجود شخصية منوسة، الذي ورد اسمه ودوره صراحة في حولية سنة 754 اللاتينية أو ماتسمى بحولية أزيدور الباجي، المعاصرة لتلك الحقبة، والتي تتميز بعدم تحيز مؤلفها وموضوعيته في سرد الأحداث.

لا تذكر المصادر العربية أية أعمال حربية أو فتوح للوالي عذرة بن عبد الله الفهري. وهذا أمر طبيعي لأن مدة ولاية عذرة كانت قصيرة جداً (شعبان 107 - شوال 107 هـ/ كانون الثاني 726 - آذار 726 م). أما المصادر المسيحية فتنسب إليه القيام بأعمال حربية خطيرة، فتذكر أن النجديات جاءت من الأندلس إلى عذرة بعد توليه القيادة، فاستعرت الحرب من جديد، وأخذ المسلمون يوجهون حملاتهم نحو كل صوب. واتسمت هذه الحملات، على حد زعم رينو Reinaud، بالدمار والتخريب والعيث في المناطق التي توجهت إليها. وهذه الروايات ملأى بالمبالغات عما تسميه مساوئ العرب والمسلمين ومظالمهم التي أنزلوها بهذه النواحي. فليس من المعقول أن المسلمين لم يفعلوا في جنوب فرنسا غير التخريب وحرق الأديرة والكنائس، بينما الثابت عنهم أنهم لم يفعلوا هذه الأمور قبل ذلك في أثناء تحريرهم للعراق وبلاد الشام ومصر وشمالي أفريقيا وإسبانيا، وكل هذه الأماكن كانت خاصة بالأديرة والكنائس. فما الذي حصل حتى غير المسلمين وقلب حالهم ومعاملتهم للشعوب المفتوحة في جنوب فرنسا؟ الواقع لم يحصل شيء، ولم يتغير المسلمون، ولكن حقد المؤرخين المسيحيين المتعصبين هو الذي

صوّر لهم نسبة كل حرق وتخریب حصل في المنطقة إلى المسلمين، علماً أن العصر كله كان عصر فوضى واضطراب وحروب بين النصارى أنفسهم في هذه الجهات من غالة على وجه الخصوص. " وإذا نحن قارنًا المسلمين "، على حد تعبير أحد الكتاب العرب المنصفين، " بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين، من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن إليهم، لتبيننا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب. ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهوروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم أو عبد الرحمن الغافقي " .

وعلى أية حال، فلا يمكن أن تكون الحملات والنشاط الحربي للمسلمين في هذه الحقبة إلا سلسلة من الجهود التي قام بها المستقرون منهم في منطقة سبتمانية من أجل تثبيت أقدامهم في هذه الجهات. أما الجهاد والفتح الحقيقي فلم يبدأ إلا بتولي عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الأندلس سنة 112هـ / 730 م، وهي ولايته الثانية. وكان قد تولى الأندلس، بعد عزل عذرة بن عبد الله الفهري عدة ولاة لم يقم أحدهم بعبور جبال ألبرت لاستئناف الفتح، وهم يحيى بن سلمة الكلبي وحذيفة بن الأحوص الأشجعي، وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي، والهيثم بن عبيدة الكناني، ومحمد بن عبد الله الأشجعي، ولم تتجاوز مدة حكم كل من هؤلاء، باستثناء يحيى بن سلمة الذي حكم أكثر من سنتين، عدة شهور .

الفتوح في عهد عبد الرحمن الغافقي:

كان عبد الرحمن الغافقي من العرب البلديين، أي الذين دخلوا الأندلس مع حملتي طارق وموسى واستقروا فيها. وهو من القادة الأكفاء الذين ساهموا في حملات الفتح في جنوب فرنسا، وقاد المسلمين بسلام إلى الأندلس بعد استشهاد السمع بن مالك في معركة طولوشة. ويبدو من إجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان نزيهاً مؤمناً سليم الإيمان، حريصاً على تطبيق الشريعة فيما يخص توزيع الغنائم على الجنود. وكان عبد الرحمن يعد من التابعين، ومن رواة الحديث النبوي الشريف، فقد ورد في ترجمته أنه روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ولهذا كان محل احترام صلحاء المسلمين، فضلاً عن جنده، لعدالته في تقسيم الغنائم، وعدم رغبته في حطام الدنيا. ومما يؤسف له أننا لا نجد معلومات مفصلة عن عبد الرحمن وعهده في المصادر العربية، وكل ما هناك أخبار مقتضبة عن حملته على جنوب فرنسا، ولعل السبب في ذلك يعود إلى الهزيمة التي حلت بالمسلمين في معركة بلاط الشهداء، فاكثفت المصادر العربية بالإشارات الموجزة العابرة إلى هذا القائد والمعركة الأليمة التي خسرها المسلمون. ومن جهة أخرى تسهب المصادر المسيحية في الحديث عنه، وعن الحملة التي قادها إلى فرنسا، كما تشير أيضاً إلى توتر العلاقات بين عبد الرحمن الغافقي، والقائد البربري المسلم، منوسة، الذي كان يحكم في منطقة شرطانية في الشمال. فقد أعلن هذا الأخير التمرد على السلطة، بعد ازدياد التوتر بين العرب والبربر في كل من شمال أفريقيا والأندلس. وتزعم المصادر اللاتينية، أن منوسة عقد الصلح مع الفرنجة، ووثق علاقته معهم، دون استشارة الوالي في قرطبة. ولهذا فبعد سماع الغافقي بالموقف المعادي لمنوسة، وبالعلاقات القائمة بينه وبين الدوق أودو، دوق أكيثانية، أرسل حملة عسكرية نجحت في القضاء على التمرد، وقتلت منوسة .

وبعد أن نظم عبد الرحمن الغافقي البلاد، وقضى على الاضطرابات الداخلية، تهيأ لمجابهة تحدي الفرنجة وتهديدهم للحكم العربي الإسلامي في غالة القوطية. ويبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان يختلف عن سلفه من الولاة؟، فهو من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر. فمن جملة الأسباب التي دعت إلى استئناف الحملات على فرنسا، هو العمل على تأسيس وتثبيت موطن قدم للمسلمين عبر جبال ألبرت، وتقوية

قاعدة أربونة الإسلامية. ومن المحتمل أنه كان ينوي إسكان بعض البربر في منطقة الشمال الغربي من إسبانيا في المناطق المفتوحة في جنوب فرنسا. ويدل على هذا ما جاء في إحدى الحوليات المسيحية من أن المسلمين الذين عبروا إلى فرنسا كانوا بأعداد كبيرة، وقد اصطحبوا نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم المنقولة، مما يدل على أنهم كانوا ذاهبين للاستقرار هناك .

اتخذ عبد الرحمن من مدينة بنبلونة قاعدة لتجميع الجند المتوجهين للجهاد معه إلى جنوب فرنسا. ثم عبر جبال ألبرت ، ولم يسلك الطريق المحاذي للبحر الذي يؤدي إلى سبتمانية، بل سلك طريقاً في وسط الجبال يفضي مباشرة إلى قلب دوقية أكيثانية. ولكنه قبل أن يهاجم هذه الدوقية توجه مع فرقة من جنده نحو وادي رودنة لإعادة فتح مدينة آرل Arles التي شقت عصا الطاعة، وتوقفت عن دفع الجزية، فاسترجعها بعد معركة عنيفة . ويظن بعض المؤرخين الأفرنج أن حملة الغافقي على مدينة آرل لم تكن سوى خدعة قصد بها صرف نظر الفرنجة عن وجهة الحملة الحقيقية، وهي دوقية أكيثانية في الجهة الشمالية . فلما سقطت هذه المدينة توجهت جيوش عبد الرحمن مباشرة نحو بوردو عاصمة دوقية أكيثانية، التي قاومت مقاومة واهية، فحاول المسلمون فتحها عنوة. وقد حاول الدوق أودو عبثاً أن يمنع تقدم عبد الرحمن وتوغله في أراضيه، فاشتبك معه في معركة حاسمة بالقرب من التقاء نهري الدوردوني Dordogne والجارون Garonne، مما أدى إلى انهزامة هزيمة قاصمة، انسحب على أثرها نحو الشمال. فدخل المسلمون عاصمته، وغنموا فيها غنائم هائلة، وعاقبوا كل من قاومهم من أهلها . ثم تقدموا نحو اللوار يفتتحون كل ما وقع تحت أيديهم من المناطق التي تؤدي إلى مدينة تور Tours.

وعندما أدرك الدوق أودو استحالة صد الجيوش الإسلامية الفاتحة، اضطر إلى الاستنجاد بشارل مارتل حاجب ملك الدولة الميروفنجية، وطلب مصالحته لصد المسلمين، خاصة وأن هدف هؤلاء التالي كان الوصول إلى أراضي دولة الفرنجة ذاتها. وقد أدرك شارل مارتل الخطر، فاستجاب إلى التماس أودو، وشرع في جمع الجند والفرسان من كل صوب، وبعث يستقدم الرجال من حدود الرين، فجاءه هؤلاء وكانوا من المحاربين الشماليين الأشداء الذين لا يقلون عن العرب والبربر شجاعة وقوة وصبراً في الحروب. وبهذا اجتمع للفرنج جيش قوي قادر على الثبات أمام الجيوش العربية الإسلامية .

كان المسلمون يتهيأون للاستيلاء على مدينة تور عندما سمعوا بوصول شارل مارتل وجنده. وقد التقى الجيشان في رمضان 114هـ/ تشرين الأول 732 م، وجرت بينهما مناوشات عديدة لمدة سبعة أيام. ثم تحول القتال إلى صدام مروع، رجحت كفة المسلمين في بدايته، لكنهم عجزوا عن اختراق صفوف الفرنجة وحلفائهم من الألمان والسكسون والسوييف. يضاف إلى ذلك، أن الفرنجة هاجموا مؤخرة الجيش الإسلامي، مما أدى إلى الإخلال بنظام الجيش. وعندما حاول عبد الرحمن التدخل بشجاعة فائقة لإعادة النظام إلى صفوف جيشه، أصابه سهم من جهة العدو، فخر شهيداً في المعركة.

وقد زاد هذا من إرباك المسلمين، لكنهم استمروا في القتال، وخلصوا مخيمهم في مؤخرة الجيش من أيدي الأعداء، إلى أن أقبل الليل فحجز بين الفريقين. ثم تشاور كبار قادة المسلمين وتوصلوا إلى قرار بالانسحاب من موقع المعركة. فانتهزوا فرصة الظلام، وتسלّلوا نحو الجنوب، تاركين خيامهم وغنائمهم التي لم يتمكنوا من حملها معهم. وتوجهوا نحو قاعدة المسلمين في سبتمانية وهي أربونة . وعندما لاحظ الفرنجة في صباح اليوم التالي خلو معسكر المسلمين، ظنوا أن في الأمر مكيدة، وترثتوا في دخوله. وبعد أن تبين لهم رحيل المسلمين لم يلاحقوهم إما خوفاً من أن يكون انسحابهم شركاً، أو لاعتقاد شارل مارتل أنه قد أمن بعد هذه الموقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها من عودة المسلمين. فرجع إلى الشمال مفتخراً بما أحرزه من نصر باهر .

وهناك خلاف في المكان الذي حدثت فيه هذه الموقعة الفاصلة، فبالإضافة إلى ما ذكرنا آنفاً من أنها وقعت بالقرب من مدينة تور، فهناك من يرى أنها جرت في ضواحي مدينة بواتييه (Poitiers). ويحتمل أن المعركة وقعت، كما يرى أحد المستشرقين الفرنسيين، بالقرب من طريق روماني يربط بين شاتلرو، Chatellerault وبواتييه، على بعد نحو عشرين كيلومتراً من المدينة الأخيرة، ربما بالقرب من مكان يدعى في الوقت الحاضر موسيه لاباتاي (Moussais la Bataille). ويذكر المؤرخون العرب أن المعركة حدثت بالقرب من مكان يدعى بلاط الاندلس، مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير، ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة.

قبل الانتهاء من الحديث عن هذه الموقعة لا بد من الإشارة إلى العوامل التي أدت إلى خسارة المسلمين وتحليل هذه العوامل بشكل علمي دقيق؟ ج // فلا يخفى أن الجيش العربي الإسلامي توغل مسافات شاسعة في أرض الأعداء، وبعد ذلك عن قلب الدولة الإسلامية. ولم يكن بمقدور الجيش أن يحصل على إمدادات من مركز الخلافة، أو حتى من قرطبة مركز ولاية الأندلس، لبعد المسافة، ولتفرق عرب الأندلس في نواحيها المختلفة نتيجة لاستقرارهم هناك. أما القواعد التي أقامها المسلمون خلف جبال ألبرت، كأربونة مثلاً، فلم تكن في وضع يسمح لها بإرسال الإمدادات لحاجتها إليها في الدفاع عن نفسها. ويقابل هذا العامل من الناحية الثانية، تكتل الإمارات في غالة، واستماتتها في الدفاع والوقوف أمام المسلمين. هذا فضلاً عن معرفة الأفرنج للمواقع وطبيعتها ودروبها، وتعودهم على القتال في جوها المطير الشاتي وأرضها الموحلة، وتلالها الوعرة. يضاف إلى ذلك، أنه كان من السهل عليهم الحصول على الإمدادات من كل نوع، وهذه أمور أساسية حُرم منها جيش عبد الرحمن الغافقي بعد توغله العميق في فرنسا.

أما ما يقال عن الخلاف بين صفوف الجيش، والنزاع بين عناصره المؤلفة من العرب والبربر، فلا يتوفر لدينا ما يشير إليه من قريب أو بعيد، اللهم إلا في الروايات المسيحية التي تبني حول قصة منوسة كثيراً من الأحداث الملفوفة بالأساطير. ولكن المتمعن في تكوين عناصر الجيش الذي قاده عبد الرحمن الغافقي، يلاحظ أنه كان يتألف من أغلبية من البربر الذين كانوا مستقرين في منطقتي الأشتوريش وجبال ألبرت.

وبالإمكان التوصل إلى هذا الاستنتاج من حقيقة اتخاذ الغافقي لمدينة بنبلونة مركزاً لتجميع جنده. وكان هناك أيضاً الكثير من العرب في هذا الجيش، لا سيما القبائل اليمينية في منطقة سرقسطة والشعر الأعلى. ولكن البربر شكلوا الأغلبية، وكانوا، كما أسلفنا، برفقة أسرهم. وقد أرهق هذا الموقف الجيش، وقلل من قابليته على المناورة.

ولم يكن باستطاعة الغافقي، الذي كان على علم بهذا الموقف، أن يقوم بعمل أي شيء بسبب رغبة رجاله الشديدة لحماية أسرهم. وهذه الحقيقة بالذات كانت هي السبب في ضعف موقف المسلمين، وليس تلهفهم على الغنائم، كما تحاول أن تصور ذلك بعض الروايات المسيحية. وقد أدرك الفرنجة نقطة الضعف هذه في جيش المسلمين.

ولهذا ففي أثناء الموقعة الفاصلة، هاجمت كتيبة من جيش الفرنجة -ربما كانت بقيادة دوق أكيثانية- مؤخرة مخيم المسلمين الذي كان يضم نساءهم وأطفالهم. وما إن سمع المسلمون بهذا، حتى ترك الكثير منهم مواقعه، وذهب ليدافع عن أهله وأولاده. وكان هذا بداية لاختلال النظام في صفوفهم، وعملاً رئيساً لهزيمتهم في المعركة.

حركة الفتوح بعد معركة بلاط الشهداء:

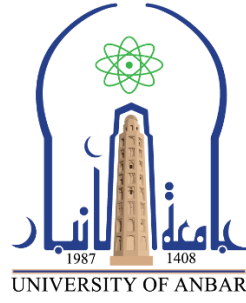
تعد موقعة بلاط الشهداء من المواقع الحاسمة في التاريخ، لأنها وضعت حداً للفتوح الإسلامية خلف جبال ألبرت. ويعلق المؤرخون الأوروبيون أهمية كبيرة عليها، فيقولون: لو أن العرب انتصروا في هذه المعركة لأصاب أوروبا مثلما أصاب إسبانيا، وكان القرآن يدرس في جامعات باريس وكمبردج وأوكسفورد. وهناك من لا يعلق أهمية على هذه الموقعة، ويرى أن الامتداد الطبيعي للفتح العربي في إسبانيا هو جبال ألبرت. أما ما قاموا به من عمليات عسكرية وراء هذه الجبال، فلم يكن سوى توغل بدافع الحماس الديني والجهاد في سبيل نشر مبادئ الإسلام، دون أن يعملوا حساباً للتقهقر أو الانسحاب. وعلى أية حال فإن حركة الفتوح الإسلامية لم تتوقف بعد موقعة بلاط الشهداء. فقد قام الوالي الذي عيّن بعد استشهاد عبد الرحمن الغافقي، وهو عبد الملك بن قطن الفهري (رمضان 114 - شوال 116هـ/ تشرين الأول 732 - تشرين الثاني 734 م) في ولايته الأولى، بالتوجه إلى شمال إسبانيا. وهناك قضى على تمرد سكان ولايات كل من قطلونية Catalonia، وأراغون Aragon، وNavarre، والباسك، الذين استغلوا فرصة اندحار المسلمين في جنوب فرنسا، فتمردوا على حكومة قرطبة. ثم توجه مباشرة، حيث قام بتحسين المدن التي كانت بأيدي المسلمين.

ولكن نشاط حركة الفتوح في جنوب فرنسا ازداد بشكل ملحوظ في ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (شوال 116 - صفر 123 هـ/ تشرين الثاني 734 - كانون الثاني 741 م) الذي أعقب عبد الملك بن قطن في ولاية الأندلس. وتتفق كل من المصادر العربية والمسيحية على أن عقبة كان من أحد كبار القادة المسلمين الذين قادوا الحملات في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا. ففي إسبانيا، كما أسلفنا، أخضع معظم المناطق القلقة في الشمال والشمال الغربي، مثل بنبلونة وجليقية والأشتوريش، حيث هاجم بلاي وأتباعه. ثم استأنف الفتوح الإسلامية فيما وراء جبال ألبرت. ونتيجة لنشاط عقبة أصبحت أربونة من أهم القواعد الإسلامية في جنوب فرنسا. وفي ولايته قام العرب المستقرين في لانجدوك بتحسين كل المواقع، التي كانت تدعى الرُبط، جمع رباط، حتى ضفاف نهر الرون. ومع هذا، فإن زمام المبادرة في هذا المجال لم يكن لعقبة، بل لعامله على أربونة، يوسف بن عبد الرحمن الفهري، الذي سيصبح فيما بعد الوالي الأخير للأندلس. فقد تحالف مع بعض الحكام والأمراء في سبتمانية، وبروفانس. وقد فضل هؤلاء الذين كانوا يخشون كلاً من شارل مارتل، ودوق أكيثانية، مساعدة المسلمين للسيطرة على ولاياتهم ووضعها تحت الحماية الإسلامية. وكان من ضمن هؤلاء الزعماء، الدوق ماورنت Mauronte، الذي امتدت سلطته على جميع بروفانس، وكان يلقب بدوق مرسيلية (Duke of Marseilles).

لقد كان عقبة بن الحجاج متحمساً للأخذ بثأر هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء، وتثبيت أقدام الدولة العربية وراء جبال البرتات. من أجل نشر الإسلام، وإغناء بيت المال. وتشير المصادر العربية إلى رغبة عقبة الشديدة في هداية سكان المناطق المفتوحة إلى اعتناق الإسلام، فتروي هذه المصادر، أنه كان من عادته التي لا يتخلى عنها حينما يأسر أسيراً أن يعرض عليه الإسلام. وبهذه الطريقة أسلم على يديه خلق كبير من المسيحيين.

ابتدأ عقبة نشاطه في الفتوح بأن اتخذ مدينة سرقسطة في الشمال الشرقي، قاعدة عسكرية له، حيث نظم قواته هناك. ويحتمل أنه بدأ من هذا المكان بمساعدة عامله على أربونة وإمداده بالجنود. وفي سنة 117هـ/ 735 م عبر الأخير نهر الرون، ودخل المناطق التابعة لمدينة آرل، ثم توغل بعد ذلك في قلب ولاية بروفانس، وهكذا وقع القسم الأكبر من بروفانس تحت ظل الحكم العربي الإسلامي الذي استمر نحو أربع سنوات. وفي هذه الفترة، قامت جيوش الأندلس، ربما بقيادة عقبة نفسه، بمهاجمة العديد من الأماكن الأخرى. ثم هاجموا ولايات شارل مارتل، وهكذا أدرکوا ثأر المسلمين في معركة بلاط الشهداء. وأعدت هذه الجيوش أيضاً فتح مدينة ليون، ودخلت برغندي. ولكن شارل مارتل، الذي ذعر نتيجة لهذه الانتصارات، بادر بالعمل فوراً على مقاومة المسلمين. وتمكن بمساعدة أخيه شلدبراند من أن يعيد احتلال الكثير من الأماكن الحصينة مثل أفنيون، ثم تقدم بعد ذلك إلى أربونة

التي انقطعت عنها الاتصالات بالأندلس بسبب المقاومة المسيحية في جبال ألبرت. وقد أرسل عقبة، الذي عاد إلى قرطبة، حملة لنجدة أربونة، كانت، كما تذكر الحواريات اللاتينية، بقيادة رجل يدعى عمر. ولم تنجح هذه الحملة التي جاءت إلى أربونة عن طريق البحر في إنقاذ المدينة لأن شارل مارتل تمكن من دحرها بعد فترة وجيزة من نزولها على الشاطئ إلى الجنوب من أربونة على الرغم من ذلك لم يتمكن شارل مارتل من احتلال أربونة التي ظلت قاعدة إسلامية في جنوب فرنسا إلى عهد عبد الرحمن الأول مؤسس الإمارة الأموية.



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

اسم المحاضرة الخامسة باللغة العربية: استقرار العرب واستيطانهم في إسبانيا

اسم المحاضرة الخامسة باللغة الإنكليزية : **The stability of the Arabs and their settlement in**

Spain.

استقرار العرب واستيطانهم في إسبانيا :

لقد سارت عملية استقرار العرب في إسبانيا جنباً إلى جنب مع الفتح العربي الإسلامي؟، حيث كان كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير يتركان حاميات عربية وبربرية في المناطق المفتوحة شكلت نواة للمستقرين المسلمين في إسبانيا. وعندما عاد الفاتحان إلى المشرق، ظل جنودهما في المناطق المحررة، كل حسب رغبته. وكان هؤلاء يتألفون بالدرجة الأولى من العشائر العربية والبربرية التي رافقت طارق وموسى، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم البلديين، لأنهم عدوا أنفسهم المالكين الحقيقيين للبلاد، فهم أهل البلد وفاتحوها. وهناك مجموعة أخرى من العرب دخلت الأندلس بعد فترة وجيزة من الفتح، تتألف من العشائر الشامية التي عبرت من شمال أفريقيا على أثر تمرد البربر في المغرب. وقد سمي هؤلاء بالشاميين، أو بطالعة بلج بن بشر القشيري، الذي كان يتزعمهم في عبورهم إلى الأندلس.

وإذا ما استثنينا المستقرين الأوائل أو البلديين، والقادمين من الشاميين، فإن عدد العرب الذين دخلوا الأندلس بعد الفتح كان قليلاً. ويتكون هؤلاء من بعض الأفراد الذين عبروا بصورة منفردة، ومن الحرس الذين رافقوا الوالي الحر بن عبد الرحمن الثقفي، وكان عددهم نحو أربعمئة رجل. وكذلك عبر بعض الرجال برفقة ولاية آخرين، مثل السمح بن مالك الخولاني، وأبو الخطار الكلبي.

البلديون: وهؤلاء، كما أسلفنا، هم الفاتحون الذين تغلبوا على دولة القوط الغربيين، واستقروا مباشرة في الأراضي المفتوحة، وبشكل خاص، على امتداد الطريق التي سلكتها طارق بن زياد وموسى بن نصير أثناء فتوحاتها لشبه الجزيرة الأيبيرية. ولم يستقر هؤلاء البلديون تبعاً لترتيبات وضعها موسى بن نصير، بل جاء استقرارهم تبعاً للصدفة، وفي المناطق التي مرت بها الحملات العربية الإسلامية.

وتختلف الروايات في الإجراءات التي اتخذها موسى بن نصير لتقسيم الأراضي المفتوحة في الأندلس. ولكن من الواضح أن قسماً من جيش موسى استقر في هذه الأراضي المهجورة. ومن المحتمل جداً، أن بقية أتباع موسى فعلوا الشيء نفسه واستقروا في العديد من الأماكن الأخرى، سواء تم عقد معاهدات مع أهلها أم لم يتم ذلك، وبشكل خاص، في جنوب إسبانيا، ووادي نهر الوادي الكبير، ووادي نهر آنة، وبعض الأماكن الأخرى في المناطق الشمالية التي تم فتحها عنوة. أما في شرق إسبانيا، فقد عقد عبد العزيز بن موسى معاهدة الصلح مع حاكم المنطقة القوطي تدمير، فاننظم بموجبها استقرار العرب وعلاقاتهم مع السكان النصارى في المنطقة. وقد استسلمت مناطق أخرى إلى المسلمين بموجب معاهدات صلح، مثل مدينة وشقة (4 Huesca). ووافق أهالي البلاد في هذه المناطق على دفع الجزية، وتسليم قسم من أراضيهم للمسلمين ليستقروا فيها. وهكذا استقر البلديون في الأندلس، ووافقت الخلافة الأموية على هذا الاستقرار. بل إن الخليفة الوليد بن عبد الملك، منح، من خمس الخلافة، إقطاعات أخرى لأولئك الذين لم يكونوا

راضين عما أصابهم من أراضٍ في الأندلس. وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة في دمشق (99 - 101هـ/717 - 719 م) اهتم كثيراً بشؤون المسلمين في الأندلس. ولقد حاول في أول الأمر -تبعاً للسياسة التي سار عليها في المشرق- أن يأمر بالانسحاب الكامل من البلاد. ولما أدرك صعوبة تحقيق مثل هذا الأمر، وجه جل اهتمامه إلى الاعتناء بشؤونها الداخلية. فعين من قبله مباشرة والياً جديداً، وأوصاه أن ينهي المهمة التي ابتدأها موسى بن نصير، وهي تقسيم الأرض، من أجل أن يُحدّد خمس الخلافة. وعندما وصل الوالي الجديد، السمح بن مالك الخولاني، إلى الأندلس مع بعض أتباعه، رفض البلديون أن يسمحوا لأي من هؤلاء القادمين الجدد أن يشاركوهم في أراضيهم. وتوجه وفد منهم إلى دمشق يشكون إلى الخليفة، ويهددون بإخلاء الأندلس، لو حاول أتباع السمح بن مالك الاستقرار في أراضيهم. ولقد حل الخليفة هذه المشكلة، بأن منح أتباع السمح أراضٍ من حصة الخلافة. وأصبح هذا الإجراء، هو الطريقة المثلى لإسكان الجماعات الصغيرة من العرب التي تدخل إلى الأندلس فيما بعد.

لقد كان البلديون يتألفون بشكل عام من رجال العشائر العربية الذين ينتمون إلى مختلف القبائل اليمينية، ومع ذلك، فقد كانت قلة منهم تنتمي إلى عشائر أخرى من مضر وربيعة. غيرهم.

الشاميون:

وهؤلاء بالأصل من القبائل العربية التي كانت ساكنة في بلاد الشام، أرسلها الخليفة الأموي، هشام بن عبد الملك، إلى شمال أفريقيا للقضاء على تمرد البربر هناك. وكان هؤلاء الشاميون بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، ويبلغ عددهم نحو ثلاثين ألف رجل، وقد استطاع البربر أن يهزمهم، ويقتلوا قائدهم كلثوم مع العديد من القواد الآخرين في معركة بقدورة بالقرب من نهر سبو (124 هـ/741 م). أما الناجون من الشاميين، فقد توجهوا بقيادة بلج بن بشر، ابن أخي كلثوم، إلى جهة المغرب، حيث دخلوا مدينة سبتة وتحصنوا فيها. وقد حاصرهم البربر لمدة بضعة أشهر، وخرّبوا المناطق المحيطة بالمدينة، وأقروا ما حولها مسيرة يومين، حتى كاد بلج وأتباعه الذين كانوا يبلغون نحو عشرة آلاف رجل، أن يهلكوا من قلة موارد العيش. وأصبحت حالتهم في سبتة تعيسة للغاية، فاضطروا إلى أكل دوابهم، وأضحوا على شفا الموت جوعاً.

وكانت الأندلس في تلك الأثناء يحكمها الوالي عبد الملك بن قطن الفهري. وقد التمس بلج بن بشر عدة مرات من عبد الملك بن قطن، أن يسمح له ولرجالاه بالعبور إلى الأندلس، ولكن الأخير امتنع عن السماح للقادمين الجدد بالدخول، ورفض طلب بلج، وكان عبد الملك بن قطن وكبار رجال البلديين، يخشون من دخول الشاميين واحتمال قيام بلج بن بشر بإبعاد عبد الملك عن ولاية الأندلس، التي كانوا يعدونها، كما أسلفنا، بلدهم الخاص بهم، ولا يسمحون باستقرار عشرة آلاف رجل آخر في أراضيهم التي افتتحوها بأنفسهم. وهكذا رفض عبد الملك بن قطن كل التماسات أهل الشام، كما منع إرسال أية تموينات إليهم، وعاقب بقسوة أولئك الذين تجرأوا على شحن الأطعمة للشاميين.

لكن تطور الأحداث في الأندلس ذاتها، اضطر عبد الملك بن قطن إلى تغيير رأيه. فقد أثرت أحداث شمال أفريقيا على الأندلس، وقام البربر بالتمرد على العرب في هذه الولاية أيضاً. وعندما فشلت قوات عبد الملك الخاصة بالقضاء على هذا التمرد، أيقن أنه لا خيار له من أجل التغلب على البربر، إلا بالسماح بدخول الشاميين إلى الأندلس. فعقد معهم اتفاقاً، كان على الشاميين بموجبه أن يسلموا إليه عشرة رهائن من كل جند لضمان مغادرتهم الأندلس خلال سنة واحدة، بعد أن يكونوا قد هزموا البربر. وبالمقابل فقد تعهد عبد الملك بنقلهم أثناء عودتهم إلى شمال أفريقيا في مجموعة واحدة، دون أن يفصلهم، أو يعرضهم لخطر البربر في شمال أفريقيا. فعبر بلج ورجاله، واستطاعوا أن ينتصروا بسرعة على البربر في الأندلس، ثم رفضوا أن يغادروا البلاد. ومن هنا فقد قام صراع مرير بين المستقرين الأوائل، أو البلديين، وبين الشاميين، استمر حتى وصول والٍ جديد للأندلس، هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى، سنة 125 هـ/742 م.

لقد كان على أبي الخطار أن يعمل على إيجاد جو مناسب لاستقرار الشاميين في البلاد، ولم تكن هذه المهمة سهلة، لأن قرطبة كانت قد ازدحمت كثيراً، والبلديون يطالبون بانسحاب الشاميين وإخراجهم من البلاد، ولحل هذه المشكلة قرر أبو الخطار أن يمنح الشاميين إقطاعات من الأرض، في مناطق لم يستقر فيها البلديون بعد، تقع في كور معينة من الأندلس، وبهذا يتمكن الشاميون من الاستقرار تحت إمرة زعمائهم، وأن يكونوا جاهزين للجهاد والخدمة في الجيش العربي وقت الحاجة.

وقد جرى توزيع الشاميين واستقرارهم في الأندلس على غرار تجمعاتهم السابقة في بلاد الشام، أي نظام الجند. وقد تحرى أبو الخطار أن يكون استقرار كل مجموعة في مكان يحمل بعض التشابه للجند الأصلي الذي كانت تنتمي إليه في بلاد الشام. ومن هنا، فقد استقر جند دمشق في البيرة، وجند حمص في اشبيلية ونبلة، وجند قنسرين في جيان، ووزع جند فلسطين بين شذونة والجزيرة الخضراء، وجند الأردن في رية (محافظة مالقة الحالية)، أما جند مصر، فقد قسم إلى قسمين، وزع الأول على أكشونبة (Ocsnaba (Faro)، وباجة في جنوب البرتغال الحالية، والثاني في تدمير (محافظة مرسية الحالية). أما أولئك الشاميون الذين سكنوا في مناطق مختلفة مع البلديين، قبل ترتيبات الاستقرار التي وضعها أبو الخطار، فقد بقوا في أماكنهم الأولى، ولهذا سموا بالشاذة، لأنهم شذوا في أماكن استقرارهم عن بقية إخوانهم الشاميين.

وباستثناء كورة تدمير، لا تتوفر لدينا معلومات تشير إلى أن أيّاً من أماكن الاستقرار هذه قد تم الاستيلاء عليها نتيجة معاهدات صلح عقدت بين العرب وأهل البلاد. ولكن يبدو من الواضح في زمن الوالي أبي الخطار، أن السكان المحليين كانوا يمتلكون معظم هذه المناطق. وكان البلديون، بطبيعة الحال، قد افتتحو بعض هذه المناطق عنوة، ولكن من المحتمل جداً أن السكان المحليين استمروا في الاحتفاظ ببقية هذه الأراضي.

ويعود هذا إلى قلة عدد المسلمين الفاتحين الأوائل، وإلى حصانة مواقع بعض هذه الأماكن. ولكن وصول الشاميين غير ميزان القوى في البلاد لصالح المسلمين، ومن هنا فلم تكن هناك مشكلة أمام أبي الخطار لإنهاء اتفاقية عبد العزيز - تدمير في منطقة مرسية، ولتوزيع أجزاء من الأراضي التي كانت ما تزال بيد السكان المحليين على الجنود الشاميين في الكور المذكورة أعلاه، والتي أصبحت منذ ذلك الوقت تسمى بالكور المجندة. وكانت تنظيمات أبي الخطار تنص أن يكون للشاميين ثلثا الأراضي والمزارع التي يستقرون فيها، ويبقى الثلث الآخر للسكان المحليين الذين استمروا في الزراعة والعمل على ازدهار قراهم وأراضيهم .

لم يكن الشاميون مطالبين بالقيام بأية التزامات أخرى ما عدا الخدمة في الجيش، والاستعداد للجهاد عند الحاجة. وكانوا معفين من أداء العثور على الأراضي التي يقيمون عليها، بينما كان يتوجب على البلديين، وبقية المسلمين الآخرين دفع هذه الضريبة. وفي العهود اللاحقة، أثناء فترة الإمارة وعصر الخلافة، حصل الشاميون على امتيازات أخرى على حساب البلديين، الذين ابتدأوا يفقدون بالتدريج سيادتهم الأولى منذ دخول الشاميين إلى الأندلس . وكان هؤلاء الشاميون يتألفون من ثمانية آلاف عربي، ونحو ألفين من الموالي. وينتمي العرب إلى ختلف عشائر اليمن وقيس ومضر وربيعة. أما الموالي فكانوا ينتمون إما إلى أصول بيزنطية، أو بربرية وشمال افريقية. وقد أصبح هؤلاء الموالي الذين دخلوا مع الشاميين يُسمّون بالموالي الشاميين، بينما أطلق على الآخرين الذين دخلوا مع البلديين اسم الموالي البلديين. وبما أن الكثير من موالي المجموعة الأولى كانوا على اتصال وثيق بالأسرة الأموية الحاكمة، فقد عرفوا أيضاً باسم موالي بني أمية. وقد تركز استقرار هؤلاء الموالي في كورتي البيرة وجيان، ومما يدل على كثرة عددهم في كورة البيرة، إطلاق اسمهم على أحد وديانها الذي كان يعرف باسم وادي بني أمية.

أما بالنسبة إلى العشائر العربية الشامية، فقد استقر العديد منها في كورة البيرة، وبشكل خاص القيسيين.

البربر:

لقد كان استقرار البربر الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد مماثلاً لاستقرار البلديين، أي أنهم سكنوا على امتداد الطريق التي سارت عليها حملات الفتح، وقد حاول بعض المستشرقين، وعلى رأسهم رينهاردت دوزي R. Dozy، اتهام العرب بأنهم لم يكونوا عادلين في قسمتهم للأرض، فأعطوا البربر المناطق الجبلية القاحلة، وخصوا أنفسهم بالسهول الخصبة . ولا يمكن العثور في المصادر على ما يؤيد هذا الاتهام الذي لا أساس له من الصحة. فقد كان البربر هم الأغلبية الساحقة في جيش طارق بن زياد، وكذلك كانوا بأعداد لا بأس بها في جيش موسى بن نصير، فضلاً عن أن الكثير منهم عبروا إلى الأندلس بعد سماعهم بنبا انتصار المسلمين على القوط. وهكذا فقد فاق البربر العرب بأعدادهم، ومن غير المحتمل أن يكون للعرب تأثير كبير على استقرار البربر في الأندلس. والواقع فإن استقرار العرب والبربر في الأماكن التي نزلوا فيها لأول مرة، كان يخضع لعامل الصدفة لا غير، إذ لم تكن لديهم فكرة واضحة في البداية عما ستكون عليه هذه الأماكن، وإن كان البربر أكثر اطلاعاً ومعرفة بالمنطقة بحكم معيشتهم في الشمال

الأفريقي المجاور. ولهذا فقد كانوا في موقف أفضل لاختيار أحسن المناطق للاستقرار فيها. ويمكن تفسير وربط اختيارهم للمناطق الجبلية في الأندلس بالحقيقة التي توضح بأن عدداً كبيراً منهم عاشوا بالأصل في مناطق جبلية في شمال أفريقيا، ولهذا فليس من الغريب أن نجدهم يستقرون في الأماكن التي تشابه مناطق استقرارهم الأصلية .

وينتمي البربر الذين دخلوا الأندلس إلى العديد من قبائل البتر والبرانس في شمالفريقيا، ولكن غالبيتهم كانت من قبيلة مصمودة وفروعها. أما الآخرون، فينتمون إلى القبائل الأخرى، مثل هواره، ونفزة، وزناتة، ومكناسة، ومطغرة. وقد استقر هؤلاء بصورة عامة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية.



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

اسم المحاضرة السادسة باللغة العربية: عصر الإمارة الأموية في الأندلس

اسم المحاضرة السادسة باللغة الإنكليزية : **The era of the Umayyad emirate in Andalusia**

عصر الإمارة الأموية في الأندلس :

- دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وتأسيس الإمارة الأموية.

انتقلت الخلافة، على أثر نجاح الثورة العباسية، من الأمويين إلى العباسيين. وقد توفي آخر خلفاء بني أمية، مروان بن محمد، في مصر، وانتهى أمر بني أمية بالمشرق سنة 132 هـ/750 م وابتدأ العباسيون في أعقاب سقوط الخلافة الأموية باضطهاد أفراد البيت الأموي الحاكم، وتتبعهم بالقتل والتمثيل أينما وجدوا. وفي مصادرنا روايات عديدة عن هذا الأمر ربما كان معظمها موضوعاً.

ونتيجة لهذه المعاملة هرب وجوه بني أمية واختفوا عند القبائل العربية في البادية. ومن هؤلاء عبد الواحد بن سليمان، والغمر بن يزيد وغيرهما. وعندما رأى العباسيون ذلك، وأن سياسة الاضطهاد لم تأت بما يرجونه من استئصال بني أمية، سلكوا سبيلاً آخر تميز بالخديعة والغدر. فأصدر أبو العباس عبد الله " السفاح "، الخليفة العباسي الأول، بياناً اعترف فيه بإسراف العباسيين في اضطهاد الأمويين، وندمهم على ذلك، وأمن من بقي منهم على قيد الحياة. وقد أذاع عم الخليفة عبد الله بن علي، هذا البيان في بلاد الشام، فخدع عدد كبير من بني أمية به، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور، فاستطاع بهذه الطريقة أن يقتل ما يربو على سبعين رجلاً آخر منهم في مجزرة نهر أبي فطرس، قرب الرملة في فلسطين، وكان يحيى وعبد الرحمن، حفيدا الخليفة هشام بن عبد الملك، من المحظوظين القلائل الذين نجوا من هذه المذبحة البشعة. ولكن العباسيين استطاعوا بعد هذه المذبحة أن يلقوا القبض على يحيى ويقتلوه، أما عبد الرحمن فقد كتبت له النجاة لأنه كان غائباً في الصيد في أثناء غارة الجند على القرية التي كانا يختفيان فيها. وعندما عاد وعلم بمصير أخيه المحزن، انتهز فرصة الظلام وهرب بعد أن أوصى أخته، أم الأصعب، وأمة الرحمن، أن يتبعانه مع ولده سليمان، إلى قرية أخرى عينها لهم.

هروب عبد الرحمن بن معاوية إلى المغرب:

ولم يفكر عبد الرحمن في المكوث طويلاً في مخبئه الجديد بعد أن لحقت به أسرته، بل كان يفكر في التوجه نحو المغرب، ولكن العباسيين سرعان ما اكتشفوا مكانه، وداهموه من جديد. وينقل لنا مؤلف كتاب " أخبار مجموعة " رواية هروب عبد الرحمن بن معاوية على لسانه في قصة مؤثرة. فقد كان عبد الرحمن يرقد في حجرة مظلمة لرمد في عينه حين دخل عليه ابنه سليمان، خائفاً فهرع الأب ليرى ماذا يجري في الخارج. فرأى رايات العباسيين السوداء تحاول تطويق القرية فأسرع لضيق الوقت بأخذ بعض المال، وأوصى أخته بأن يلحق خادمه بدر بما يصلحه إذا سلم من مطارديه. وكان هؤلاء قد سدوا عليه كل منافذ الهرب، فلم يبقَ أمامه وأمام أخيه الأصغر الذي رافقه سوى إلقاء نفسيهما في نهر الفرات. واستطاع عبد الرحمن أن يقطع سباحة، ولكن الأخ عجز عن قطعه. فرجع مصداقاً وعد الجنود المطاردين لهما بالأمان إن عادا إليهم. ولكن هؤلاء قتلوه أمام عيني أخيه عبد الرحمن في الضفة الأخرى من النهر. ولما أمن عبد الرحمن من خطر مطارديه، سار متخفياً وهو ينوي التوجه إلى المغرب. وتذكر لنا هذه الرواية أن نفس عبد الرحمن كانت تحدثه بما سيكون له من شأن في المغرب أو الأندلس، وأن ذلك بسبب نبوءة كان يعرفها بنو أمية ويرددونها قبل سقوطهم.

ولد عبد الرحمن في سنة 113هـ/731 م في بلاد الشام في قرية تعرف بدير حنين، وقيل بل ولد بالعليا من أعمال تدمر. وكانت أمه سبية بربرية من قبيلة نفزة في شمال أفريقيا، وتدعى "راح". أما أبوه معاوية، فقد توفي شاباً في أيام أبيه هشام بن عبد الملك سنة 118هـ/736 م، فكفله وإخوته جده هشام بن عبد الملك. وكان جده يؤثره على بقية إخوته ويتعهده بالصلوات والعطايا في كل شهر حتى وفاته. وظل عبد الرحمن يعيش مع أهله وإخوته في قرية دير حنين من أعمال قنسرين إلى أن حلت النكبة بأسرته، واضطرت الظروف إلى الهرب. وبعد صعوبات بالغة استطاع الوصول إلى فلسطين، حيث التحق به مولاه بدر، ومولى أخته، سالم أبو شجاع. وكان الأخير، الذي يحتمل أن يكون من أصل بيزنطي، حسن المعرفة والاطلاع على مناطق شمال أفريقيا والأندلس، لأنه كان قد دخلها مع موسى بن نصير أو بعده، وشارك في بعض حملات الصوانف في الأندلس. وقد غادر عبد الرحمن ورفيقاه إلى مصر، ومنها إلى أفريقية، أي تونس الحالية، حيث لم تكن سلطة العباسيين قد اعترفت بها بعد هناك. وكان العديد من اللاجئين من أفراد البيت الأموي قد ذهبوا أيضاً إلى أفريقية. ولكن هذا المكان لم يكن ملائماً جداً للجوء، لأنه كان يحكمه عبد الرحمن بن حبيب الفهري، الذي لم يعترف بسُلطان العباسيين، وكان يحاول الاستقلال بالحكم، والتطلع إلى تحويل أفريقية إلى إمارة وراثية لأولاده. ولهذا السبب فقد أصبح قلقاً جداً لوجود العديد من الأمراء الأمويين في بلاده. فدبر قتل ابني الخليفة الوليد بن يزيد، كما قرر إبادة الآخرين، لكن عبد الرحمن نجح في الهرب غرباً حيث طلب الأمان بين قبائل البربرنتقل عبد الرحمن في شمال أفريقيا من مكان إلى آخر ما يقرب من خمس سنوات، فأقام أولاً عند قبيلة مكناسة البربرية في موضع يقال له باري. ثم غادر غرباً حيث حصل على تأييد بربر قبيلة نفزة، وهم أخواله، حيث كانت أمه نفزية كما أسلفنا. وقد نجح أيضاً في الحصول على حماية قبائل بربرية أخرى كبيرة في المنطقة، مثل زناته ومغيلة. وعمل أحد زعماء هذه القبيلة الأخيرة، وهو أبو قرّة، أو ابن قرّة وأنسوس المغيلي، على التستر عليه أثناء إقامته الأخيرة في شمال أفريقيا.

التفكير في العبور إلى الأندلس:

ويبدو أن تفكير عبد الرحمن في ولاية الأندلس ابتدأ عندما كان مقيماً بالقرب من ساحل طنجة عند قبيلة مغيلة البربرية، وكان عبد الرحمن بصفته أحد أفراد البيت الأموي، يعرف ما يجري في الأندلس، ولا بد أن يكون سالماً، مولى أخته، قد حدثه أيضاً عن هذا البلد الواسع وخيراته الكثيرة. يضاف إلى ذلك، الأخبار التي كانت تتوارد إلى شمال أفريقيا عن اضطراب الأحوال في الأندلس، وتنازع القبائل العربية فيها.

وكانت الأندلس في ذلك الوقت، أي بعد سنة 130هـ/747 م تقريباً، قد صفت ليوسف ابن عبد الرحمن الفهري، وهو واليها الأخير، وللصميل بن حاتم الكلابي. فقد استطاع الأخير، الذي كان من زعماء جند قنسرين، أن يقود حرباً شعواء على واليها أبي الخطار الكلابي، انتهت بمقتل الأخير، وهزيمة مؤيديه، الذين كان معظمهم ينتمي إلى القبائل اليمينية، وذلك في موقعة شقندة التي جرت بالقرب من قرطبة. وبعد هذه الموقعة لم يعد هناك منافس ليوسف الفهري والصميل، ولكن يوسف لم يكن له سوى الاسم واللقب، وذلك لاستئثار الصميل بالحكم وتدبير الأمور. وقد أدى هذا الأمر إلى ضجر يوسف الفهري، ففكر بإبعاد الصميل، وذلك بتوليته على مدينة سرقسطة في الشمال الشرقي من البلاد. ورحب الصميل بهذه الفكرة التي اعتقد بأنها ستتيح له السيطرة على جماعات العرب اليمينيين في تلك المنطقة.

استغل عبد الرحمن بن معاوية هذه الأحداث، وحاول أن يستفيد منها في تنفيذ خطته بالعبور إلى الأندلس، وإعادة السلطة الأموية إليها. وقد ساعده في هذا وجود العديد من الموالي أو الأنصار الموالين للأمويين في الأندلس، وبشكل خاص في كورتي البيرة وجيان. وهؤلاء يشكلون مجموعة الموالي الذين رافقوا الشاميين ضمن جندي دمشق وقسرين. وقد أسلفنا أن هؤلاء كانوا على اتصال وثيق بالبيت الأموي، ولهذا فقد عرفوا بموالي بني أمية. وكانوا يتألفون من نحو خمسمئة رجل في هاتين الكورتين، وإن كان بعضهم قد عاش أيضاً في أماكن أخرى. ومن زعمائهم أبو الحجاج يوسف بن بخت، الذي كان رئيساً للموالي في جيان، وكذلك أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، اللذان كانا من رؤساء الموالي في جند دمشق في البيرة. وكانت حالة هؤلاء الموالي، ومكانتهم جيدة، ويمتلكون ثروة لا بأس بها، لا سيما زعمائهم المذكورين آنفاً، حيث كانت لهم أراضٍ وممتلكات، ونفوذ كبير، وهيبة قوية بين بقية المستقرين في الأندلس يضاف إلى ذلك، أنهم خالطوا كبار القادة من الشاميين والبلديين، فضلاً عن السكان المحليين، وأفراد الأسرة القوطية المالكة السابقة. وقد حصل هؤلاء القادة الثلاثة على عشرة ضياع لكل واحد منهم، منحة من أرطباس بن غيطشة، ملك القوط السابق. فاتخذ أبو عثمان مسكنه في طرش Torrox، وهي قرية صغيرة، تقع بين لوشة Loja وإزناجار Iznajar، وكانت إحدى الضياع العشر التي أعطيت له من قبل أرطباس. وكذلك فقد أقام عبد الله بن خالد في الفنتين Alfontin، بالقرب من لوشة، وهي أيضاً إحدى قرى أرطباس. أما يوسف بن بخت، فقد كان يقيم في جيان.

اتصال عبد الرحمن بأنصاره في الأندلس:

ابتدأ عبد الرحمن اتصالاته بالأندلس بأن أرسل رسالة مع مولاة بدر إلى قادة موالي بني أمية في البيرة. وقد شرح لهم في هذه الرسالة كيف أنه عانى العديد من المتاعب، وظل يجوب شمال أفريقيا مدى خمس سنوات، هرباً من مطاردات العباسيين، ووالي أفريقية، عبد الرحمن بن حبيب، الذي حاول القضاء على جميع أفراد البيت الأموي. وذكرهم في هذه الرسالة أيضاً بأنهم موالي بيته، ولذا فمن حقه عليهم أن يحموه ويساعدوه. وأخبرهم أيضاً بأنه لا يستطيع المضي إلى الأندلس خوفاً من حاكمها يوسف الفهري الذي سيعتبره عدواً منازعاً لاحقاً له في الولاية، مثله كمثل حاكم أفريقية. وقال لهم أخيراً إنه لن يعبر إلى الأندلس إلا إذا تلقى منهم جواباً يؤكد نجاح خطته، وإنهم مساعدوه في إعادة السلطة الأموية إلى الأندلس. وقد عبر بدر إلى الأندلس في أواخر عام 136 هـ/حزيران 754 م، وقابل أبا عثمان في طرش، فأرسل الأخير إلى عبد الله بن خالد، وقررا استشارة يوسف بن بخت، زعيم الموالي في جند قسرين.

وبعد الاطلاع على الرسالة ومناقشتها من قبل الزعماء الثلاثة، قرروا أن محاولة عبد الرحمن في إعادة الحكم الأموي إلى الأندلس تستحق الدعم والتشجيع، لا سيما أنها سوف تحقق لهم في حالة نجاحها مكاسب كبيرة، وتضعهم في مصاف الحاشية المقربة للأمير. يضاف إلى ذلك، أن نجاح قضية عبد الرحمن سيضمن بالتأكيد مصالح الموالي عامة، وبشكل خاص تملكهم للعديد من الضياع الممتازة، هذا فضلاً عن أن الأمير سيعهد لهم بمعظم المناصب الرفيعة في حكومته الجديدة. ومع هذا، فقد قرر زعماء الموالي التريث، والاطلاع على رأي الصميل بن حاتم في هذا الأمر. وكانوا واثقين من إمكانية الاعتماد على كتمانهم للسر، وأنه حتى في حالة رفضه للأمر، فسوف لن يشي بهم عند يوسف الفهري. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان أحد زعماء الموالي، وهو عبد الله بن خالد، يشك في مساعدة الصميل في تحقيق مشروع عبد الرحمن بن معاوية، لأن أي تغيير في نظام الحكم القائم في الأندلس سيجرد الصميل من قوته ونفوذه في البلاد. ولهذا السبب فقد قرروا أنه من الأفضل إخفاء غرض عبد الرحمن الحقيقي في طلب السلطة، والاحتفاء بشرح

الحالة للصميل قائلين أن عبد الرحمن لا يريد إلا الحماية والأمان، واستعادة أملاك الخمس التي تعود إلى جده هشام ابن عبد الملك.

موقف الصميل من قضية عبد الرحمن بن معاوية:

وكان الصميل في هذه الأثناء محاصراً في سرقسطة من قبل بعض المجموعات العربية التي قامت بالتمرد على إدارة الصميل ويوسف المشتركة، بقيادة عامر بن عمرو العبدي، والحباب بن رواحة الزهري. وقد ضاق الأمر على الصميل ولم يستطيع يوسف الفهري أن ينجده لضعف أمره في قرطبة، بسبب الجفاف والجوع الذي حل في البلاد حتى إنه لم يعد يستطيع الخروج والركوب إلا بنحو خمسين رجلاً من حرسه فقط. فاضطر الصميل إلى طلب النجدة من جماعته وأبناء جنده في كورتي قنسرين والبيرة. ولكي يقدم الموالي يداً للصميل، ساهموا في الحملة التي خرجت من هذين الجندين لنجدته في سرقسطة. وإن هذه المساهمة، بطبيعة الحال ستتيح لهم الفرصة لمقابلة الصميل وعرض أمر عبد الرحمن بن معاوية عليه. فساروا بثلاثين فارساً يصحبهم بدر مولى عبد الرحمن، حيث نجحت الحملة في فك الحصار عن الصميل الذي سر سروراً عظيماً بمنقديه، وكان هؤلاء الموالي، وبدر أيضاً من جملة الذين نالوا مكافأة الصميل المجزية. وقد باح زعماء الموالي الثلاثة إلى الصميل بسرهم أثناء عودتهم إلى قرطبة، وطلبوا مشورته، قائلين بأنهم سيكونون تبعاً لرأيه، وذلك بالموافقة على أي أمر يقبل به والامتناع عما يرفضه. فلم يجبهم في أول الأمر، ووعدهم بالتفكير في المسألة، لكنه لم يلزم نفسه بأي شيء قبل أن يصل قرطبة. ورجع الموالي إلى مناطق سكناهم في البيرة وجيان، وانتظروا هناك بضعة أشهر حتى كانت لهم الفرصة لرؤية الصميل مرة أخرى. وفي أثناء ذلك الوقت عاد بدر إلى سيده في شمال أفريقيا ليعلمه بنتائج رحلته إلى الأندلس أما في الأندلس، فقد انشغل واليها بالتهيب لإخضاع المتمردين في سرقسطة، فأمر في عام 137 هـ/754 - 755 م باستدعاء الجند من الكور، وأرسل في طلب كل من أبي عثمان وعبد الله بن خالد لحث موالي بني أمية على الالتحاق بالحملة المتوجهة لقتال المتمردين، ولم يكن زعيماً الموالي يرغبان بمساعدة يوسف الفهري، فأخبراه بعدم إمكانية جماعتهم للمساهمة في الحملة بسبب المجاعة المستمرة في البلاد، ولأن معظم من كان لديه القدرة على المساهمة، سبق أن شارك في حملة الانقاذ التي توجهت لنجدة الصميل في سرقسطة، وهم منهكون بسبب تلك الرحلة الشتوية الشاقة. وقد قدم لهما يوسف مبلغ ألف دينار لتوزيعها على أتباعهم، لكنهما رفضا أخذ المبلغ نظراً لقلته بالنسبة إلى خمسمئة رجل من الموالي. وبعد أن غادرا الوالي، فكرا في أمر المال وإمكانية استخدامه في تسهيل قضية عبد الرحمن بن معاوية، فرجعا وأخذوا الألف دينار. ثم وزعا قسماً من هذا المال على أتباعهما، دون مطالبتهما بالالتحاق بجيش يوسف، واحتفظا بالبقية لوقت الحاجة. وفي ذي الحجة 137 هـ/نيسان- أيار 755 م عسكر يوسف الفهري في (مخاضة الفتح) بالقرب من جيان لاستكمال التجميع النهائي لجيشه، وتوزيع الأعطيات على الجنود. وعندما سأل عن الموالي، أجابه أبو عثمان بإمهالهم حتى يبلغ الأمير طليطلة ثم يلحقونه بها، وذلك بعد أن يحصدوا شيئاً من شعيرهم، لأن سنة 137 هـ/754 - 755 م كانت سنة رفاء. فصدقه يوسف ولم يتبادر إلى ذهنه أنه يخدعه، وسمح له بالرجوع إلى الموالي وحثهم على الإسراع والتهيب، وغادر هو إلى طليطلة. ولكن أبا عثمان وعبد الله بن خالد لم يغادرا. بل بقيا لمقابلة الصميل، الذي كان ما يزال معسكراً في المنطقة. وقد طلب زعيما الموالي مقابلة الصميل على انفراد، وذكراه بأمر عبد الرحمن بن معاوية. فأجابهما الصميل: إنه لم يغفل ذلك بل فكر فيه ملياً، وكرم أمره ولم يشاور فيه قريباً ولا بعيداً، وأعلمهما أنه يرى بأن عبد الرحمن حقيق بنصره، ومستحق لهذا الأمر، وسألتهما أن يكتبتا له ويدعوانه للعبور إلى الأندلس. وأضاف بأن يوسف لن يستطيع التدخل، وإنه، أي الصميل، سوف يشير عليه بأن يزوج إحدى بناته من عبد الرحمن، وبهذا يصبح الأخير واحداً منهم،

فإن فعل يوسف ذلك استحق الشكر والتقدير من الجميع، وإن كرهه، هان عليهم إقناعه بالسيف. وقد فرح الزعيمان لسماع مثل هذا الجواب الشافي، وخرجا من عند الصميل، وهما يعتقدان بأنهما قد وفقا في خطتهما .

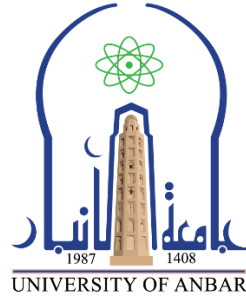
وعلى الرغم من إدعاء الصميل أنه قد فكر في الأمر وتروى فيه، يبدو أنه لم يكن متاكداً تماماً من موقفه إزاء عبد الرحمن بن معاوية. فيروى أنه حينما أعطى جوابه إلى زعيمة الموالي في ذلك الصباح، كان قد استيقظ وهو كاره ليوسف الفهري، ولم يكن يعي تماماً خطورة موافقته على دخول عبد الرحمن . ولهذا فبعد أن غادره أبو عثمان وعبد الله بن خالد، فكر الصميل أكثر بالأمر ودرس نتائجه الخطيرة، وماذا سيكون من أمر القبائل العربية في الأندلس، بل ماذا سيكون من أمره هو، لأنه بالتأكيد أول من سيفقد نفوذه القوي وزعامته للبلاد. وما أن أدرك الصميل ذلك، حتى بادر بإرسال أحد خدمه ليطلب إلى الزعيمين الأمويين التوقف، وذهب إليهما بنفسه، وأخبرهما عن تغيير رأيه إزاء قضية عبد الرحمن بن معاوية. وقد أوضح لهما موقفه قائلاً: بأنه قد فكر بالأمر، وتوصل إلى أنه لا يتمكن من تأييده، لأنه، أي عبد الرحمن بن معاوية، من أسرة قوية يكفي أي فرد منها أن يطغى بنفوذه على كل زعماء الجزيرة، وبضمنهم الصميل نفسه. كما لفت انتباههما إلى أنهم ملزمون جميعاً بطاعة يوسف الفهري الذي يخضع دوماً إلى آرائهم، وينفذ مطالبهم. واختتم الصميل حديثه معهم بالقول بأنه سيكون أول من يسلم سيفه على عبد الرحمن ويحاربه ولكنه، مع ذلك، على استعداد لإعانتته في أمره إن طلب غير السلطان والولاية، وإنه سيضمن له مواساة يوسف وإكرامه له وتزويجه من ابنته .

الاتصال بزعماء القبائل اليمينية ونجاح دعوة عبد الرحمن:

بعد أن فقد زعيمة الموالي الأمل في مساعدة الصميل، وبالتالي مساعدة جندي قنسرين ودمشق، لم يكن أمامهما سوى الاتصال بجماعة اليميين الذين كانوا يضمون الكثير من البلديين الأوائل، ومعظم رجال الأجناد في حمص والأردن وفلسطين. ومن هنا ففي طريق عودتهما إلى بلدهما، فاتحا كل من يوثق به من الزعماء اليميين، ودعوها إلى تأييد مشروعها بتحويل الحكم في الأندلس إلى عبد الرحمن بن معاوية. وقد نجحا في ذلك نجاحاً كبيراً، وكانت استجابة اليميين مشجعة جداً. ويعود السبب في ذلك إلى أن اليميين كانوا منذ هزيمتهم في شقندة يتحينون الفرصة للانتماء لأنفسهم من الصميل ويوسف. يضاف إلى ذلك، امتعاضهم من إدارة الصميل ويوسف المشتركة التي استهدفت تجريدهم من بعض ممتلكاتهم لصالح مؤيدي الصميل من جندي قنسرين ودمشق. ولقد كان هؤلاء اليميين، بالإضافة إلى الكثير من جماعات البلديين الأوائل، والبربر، وحتى بعض الأفراد القيسيين من جندي دمشق وقنسرين، الذين نفروا أيضاً من سياسة الصميل، يفضلون أي تغيير سياسي في البلاد، فسارعوا بالانضمام إلى تأييد دخول عبد الرحمن إلى الأندلس .

استغل موالي بني أمية نجاح الدعوة لعبد الرحمن، فعملوا في العمل على وصوله إلى الأندلس وبخاصة أن يوسف والصميل كانا مشغولين في حملتهما على المتمردين في سرقسطة. فابتاعوا قارباً، وأرسلوا خمسمئة دينار مع وفد يتألف من أحد عشر عضواً، يرافقهم بدر الذي كان قد رجع من شمال أفريقيا. وكان هذا الوفد برئاسة تمام بن علقمة الثقفي، ويتألف في معظمه من الموالي. وكان على تمام أن ينفق المال على الأمير عبد الرحمن، ويوزع منه على مضيفه من بربر مغيلة الذين كان يعيش عند شيخهم أبو قررة المغيلي. ومن الجدير بالذكر أن هذه الخمسمئة دينار كانت من بقية المبلغ الذي أخذه الموالي من يوسف الفهري لكي يرافقه في زحفه على سرقسطة، وقد شاءت الأقدار أن يستعمل هذا المال في نصره زعيم آخر ينزع يوسف إمارة الأندلس. وعند وصول الوفد إلى شمال أفريقيا، قدمهم

بدر إلى سيده عبد الرحمن، وأخبره عن نجاحهم في الأندلس. وبعد أن تم استرضاء بربر مغيلة، أبحر الأمير عبد الرحمن إلى الشاطئ الإسباني، فنزل في ميناء المُنكَب **Almunecar**، وهو ميناء صغير يقع بين مدينة المرية ومالقة، في ربيع الثاني 138 هـ/أيلول 755 م. وقد استقبله كل من عبد الله بن خالد، وأبي عثمان، اللذان أخذاه أولاً إلى منزل ابن خالد في الفنتين، ومن ثم إلى مسكن ابن عثمان في قرية طُرش .



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : History of Andalusia

اسم المحاضرة السابعة باللغة العربية : دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس

The entry of Abd al-Rahman ibn Muawiyah to : اسم المحاضرة السابعة باللغة الإنكليزية

Andalusia

دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس:

أحدث وصول عبد الرحمن إلى الأندلس حركة نشيطة بين صفوف أنصاره من الموالي وغيرهم من اليمنيين. فجاءه إلى مقره في طرش أبو الحجاج يوسف بن بخت، وجاءته الأموية كلها، كما وفد عليه كل من جدار بن عمرو المنحجي من أهل رية، وعاصم بن مسلم الثقفي، وأبو عبدة حسان، وغيرهم. وأخذ معسكر عبد الرحمن يزداد بالمؤيدين والأنصار من كل مكان. وعندما علم يوسف الفهري بوصول عبد الرحمن، كتب إلى عامله على البيرة، يأمره بالقبض على الداخل، ولكن عامل البيرة أجاب أنه من الصعب تنفيذ هذا الأمر، نظراً لأن عبد الرحمن كان محمياً من قبل مواليه وعدد كبير آخر من المؤيدين. وقد علم موالي بني أمية بهذه المراسلات، فأخفوا عبد الرحمن في المناطق الجبلية المجاورة. وفي الوقت نفسه حاولوا تضليل يوسف الفهري، فكتبوا إليه بأن عبد الرحمن لم يعبر إلى الأندلس طمعاً بالملك والولاية، كما يظن الأمير يوسف، بل جاء يطلب الثراء والأمان بين مواليه. وفي رواية أخرى أن عامل البيرة هاجم فعلاً عبد الرحمن وحماته، لكنه هُزم ولم يتمكن من إلقاء القبض عليه. وقد أعلم يوسف بهذا، وبكل الموقف المتعلق بنزول عبد الرحمن إلى الأندلس، من قبل رسول أرسلته زوجته أم عثمان من قرطبة. وقد وصل هذا الرسول إلى يوسف حينما كان عائداً بجيشه من سرقسطة، بعد أن قضى على التمرد وأعدم قاداته هناك. وقد نصح الصميل يوسف بوجوب التوجه فوراً لملاقاة عبد الرحمن. وكان يوسف يرغب فعلاً في هذا، ولكن هذه الأنباء انتشرت بسرعة بين صفوف الجيش، وسببت قلقاً عظيماً في المعسكر. لا سيما وأن الكثيرين من أتباع يوسف كانوا متعبين من أثر حملة كانوا قد قاموا بها على بلاد البشكنس أو الباسك، كما كان البعض منهم ساخطين على يوسف والصيل لقتلهم الزعماء القرشيين المتمردين في سرقسطة. ومن هنا، فقد رفض جنود يوسف الشروع في حملة جديدة، وغادروا معسكره، ولم يبق معه من أجناد اليمن سوى عشرة رجال. أما بقية الجيش الذي يضم الشاميين في جندي جيان والبيرة، فقد ظلوا لكنهم كانوا قد ملوا السفر، ولهذا حاولوا تهوين الأمر على يوسف وإقناعه بالمضي إلى قرطبة أولاً. لكن الصميل أصر على رأيه الأول في مهاجمة عبد الرحمن بأسرع ما يمكن، فتوجه الجيش لهذا الغرض، ولكن حلول الشتاء وهطول الأمطار وفيضان الأنهار، جعل من المتعذر الاستمرار بالحملة، لذلك أمر يوسف جنده بالرجوع إلى قرطبة.

ويذكر أن الذي شجع يوسف على العودة إلى قرطبة ما ترامى إلى سمعه من أن عبد الرحمن لم يدخل طمعاً بالإمارة، بل لالتماس العيش بها، ومن هنا فمن الممكن أن تنفع المفاوضات معه بدلاً من القتال. فأرسل إليه وفداً يضم ثلاثة أعضاء، ويحمل هدايا نفيسة تتضمن ملابس وهدايا وحيوانات للركوب وألف دينار. وكانت لدى الوفد تعليمات بعرض الثروة والزواج من إحدى بنات يوسف بن عبد الرحمن، فيما إذا كف عن المطالبة بإمارة الأندلس. وهناك إشارة إلى أن الوفد عرض على عبد الرحمن أيضاً ولاية منطقتين، هما جند دمشق في البيرة، وجند الأردن في رية. وقد سار الرسل نحو طرش، ولكنهم ما إن وصلوا إلى أرش Orch في أدنى كورة رية، حتى تركوا

أحدهم مع الهدايا، حيث كان عليه أن يرجع بها إلى قرطبة في حالة عدم التوصل إلى اتفاق مع عبد الرحمن. وكان الوفد يحمل تعليمات بعرض الصلح والمصاهرة والسلم على عبد الرحمن، وقد مال بعض مؤيديه إلى قبول ذلك، فطلب الأمير من أبي عثمان أن يجيب على رسالة يوسف بالقبول. ويبدو أن أبا عثمان لم يكن راضياً عن نتائج المفاوضات، ولهذا فقد افتعل خصاماً مع أحد الرسل بشأن الرد على الرسالة، وألقى القبض عليه. ثم ذكر الموالي الأمويون لعبد الرحمن أن هذا الحادث هو فاتحة خير ونصر لهم جميعاً على يوسف الفهري. ثم أطلقوا سراح الرسول الثاني، وحاولوا الاستيلاء على الهدايا المخلفة مع الرسول الثالث في أرش، لكن الأخير، وقد علم بنبا الخصام، نجح بالفرار إلى قرطبة .

تنظيم أنصار عبد الرحمن وبدء الصراع مع يوسف الفهري:

لقد كان زعماء موالي بني أمية يعرفون موقف الصميل الدقيق من الأمر، ولا يعتقدون أبداً بإمكانية التوصل إلى حل وسط بين الطرفين. ومن هنا فقد شرعوا فور وصول عبد الرحمن إلى الأندلس بالقيام بسلسلة من الاتصالات مع مختلف الجماعات في المناطق المجاورة. فتوجه يوسف بن بخت إلى كورة رية حيث ضمن تأييد جند الأردن. وكذلك سار عبد الله بن خالد إلى جند فلسطين في شذونة. أما أبو عثمان فقد بقي في طرش ليهتم بأمر عبد الرحمن، وينظم أولئك الذين جاؤوا لنصرته. ولقد كانت ردود فعل الجندين المذكورين آنفاً مشجعة جداً، أما جندا قنسرين ودمشق، فقد وقفا إلى جانب يوسف والصميل، باستثناء بعض أفرادهما الذين انضموا إلى عبد الرحمن. وقد قرر موالي بني أمية وعبد الرحمن مغادرة كورة البيرة لعدم توفر مؤيدين كثيرين في هذه الكورة. وكانت خطتهم السير إلى الأجناد التي تضم أهل اليمن في رية وشذونة وإشبيلية، أي أجناد الأردن وفلسطين وحمص. فساروا بستمنه فارس إلى كورة رية. وقد أيد قائد جند الأردن، جدار بن عمرو، عبد الرحمن، وطلب من خطيب جامع أرشذونة Archidona، قاعدة كورة رية، أن يخلع يوسف الفهري ويخطب لعبد الرحمن بن معاوية، وذلك في اليوم الأول لعيد الفطر (سنة 138 هـ/ 8 آذار 706 م) الذي صادف دخول الأمير إلى هذه المدينة، فكانت هذه أول خطبة باسم عبد الرحمن على منابر الأندلس. وقد أيد كل أهالي أرشذونة هذا القرار وأقسموا يمين الولاء للأمير الجديد . وأقام عبد الرحمن ومواليه نحو عشرين يوماً في رية، أرسلوا خلالها مبعوثاً إلى عبد الرحمن بن عوسجة، زعيم البربر في منطقة تاكرنا (إقليم رندة الحالية). وقد وافق الأخير على تأييد عبد الرحمن، وقدم أربعمئة فارس بربري من موالي الأمويين من بني الخليع في تاكرنا فالتحقوا بقوات عبد الرحمن. وكان هؤلاء الموالي من موالي يزيد ابن عبد الملك، فأصبحوا في ولاء عبد الرحمن. إن هذه الجماعة من البربر، والجماعات البربرية الأخرى التي أيدت قضية عبد الرحمن بن معاوية، كانوا جميعاً يعملون بالتنسيق مع اليمانيين، لأنهم اعتقدوا بأن التعاون مع العشائر اليمانية المعتدلة من أجل تغيير النظام في الأندلس سوف يعمل بالتأكيد على تحسين الوضع لصالحهم. فقد تأثرت ممتلكات البربر وحيازتهم للأرض، كما هو الحال بالنسبة لليمانيين أيضاً، بإجراءات الصميل وسيطرته المطلقة على البلاد. ولكن من الناحية الأخرى، ساندت جماعات أخرى من البربر

يوسف والصميل. وكان هؤلاء، بطبيعة الحال، حلفاءهم المنتفعين الذين فضلوا -مثلهم في هذا مثل الشاميين في جندي جيان والبيرة- استمرار الوضع القائم .

وصل عدد مؤيدي عبد الرحمن إلى نحو ألفي فارس حينما غادر رية إلى شذونة. وفي هذه الكورة الأخيرة انضم إليه عدد كبير من البربر من قبيلة مغيلة، وهم من بني الراس. وقد رحب قادة جند فلسطين، الذين كانوا مستقرين بهذه الكورة، بعبد الرحمن وأيدوه. ومن شذونة أرسل الموالي إلى جند حمص في إشبيلية، وإلى بقية المستقرين في غرب البلاد، يخبرونهم بمسيرتهم إليهم. وبعد أن جاء رد هؤلاء بالموافقة، توجه عبد الرحمن ومواليه وأنصاره إلى إشبيلية. وقد مروا في طريقهم بمورور، التي كانت مقراً للعديد من البربر الذين دخلوا مع زعيمهم، إبراهيم بن شجرة البرنسي، في طاعة عبد الرحمن. وعندما وصل الأمير الأموي إلى إشبيلية، رُحِبَ به من قبل اليمينيين الشاميين والبلديين على حد سواء. وقد استقبله سادة هذه المنطقة، وعلى رأسهم أبو الصباح يحيى اليحصبي، وحيوة بن ملامس الحضرمي، حيث أقسموا له يمين الطاعة والولاء . ولقد ازدادت قوات عبد الرحمن بمن انضم إليه من اليمينيين والبربر، فأصبحت تتألف من نحو ثلاثة آلاف فارس وعدد كبير من المشاة. وفي هذه الأثناء أراد يوسف والصميل أن يهاجما عبد الرحمن وهو في جند حمص، فساروا بمؤيديهما من جندي قنسرين والبيرة. ولكن ما إن سمع عبد الرحمن بهذا حتى غادر إشبيلية متوجهاً إلى قرطبة بغية الاستيلاء عليها بشكل مفاجئ. ولما أدرك يوسف والصميل، اللذان كانا يسيران بمحاذاة الجانب الآخر لنهر الوادي الكبير، غرض عبد الرحمن، شرعا بالعودة فوراً إلى قرطبة. وهكذا تقابل الجيشان وجهاً لوجه لا يفصلهما سوى نهر الوادي الكبير. كان للأجناد الثلاثة المرافقة لعبد الرحمن، أي الأردن وفلسطين وحمص، ألويتها الخاصة، بينما لم يكن للأمير الأموي علم خاص، لهذا فقد بادر أبو الصباح اليحصبي وعقد له لواء بسيطاً يتألف من عمامة مثبتة على رمح. وحدث هذا في إقليم طشانة **Tocina** في كورة إشبيلية، بالقرب من بلدة نوبة البحرابين، التي كان يسكنها بنو بحر الذين ينتمون إلى قبيلة لخم .

معركة المصاراة ودخول عبد الرحمن قرطبة:

كانت مياه نهر الوادي الكبير في أقصى ارتفاعها في ذلك الوقت، ولهذا فقد كان من المستحيل على الجيشين عبور النهر. ولكن عبد الرحمن كان متلهفاً لدخول قرطبة ليحصل على تأييد موالي بني أمية الموجودين في المدينة، لذلك عمد إلى إيقاد النار في معسكره ليوهم يوسف أنه مقيم، ثم حاول تحت جنح الظلام أن يسير ويسبق يوسف إلى قرطبة. وكادت خطته أن تنجح لولا تنبه يوسف وصاحبه الصميل لرحيله المفاجئ، فأسرعا عاندين لإنقاذ المدينة. فابتدأ السباق بين الجيشين للوصول إلى قرطبة؛ فكلما سار عبد الرحمن سار يوسف، وكلما عسكر أحد الجيشين، عسكر الآخر في الجهة المقابلة من النهر. وأخيراً توقف جيش يوسف عند المصاراة **Almazara** بالقرب من قرطبة مواجهاً لمنافسه عبد الرحمن الذي فشل في دخول المدينة. وقد أدى هذا الفشل إلى استيلاء في جيش عبد الرحمن، وبشكل خاص بين الرعاع من هؤلاء، الذين كانوا يأملون في دخول العاصمة

والتمتع بخيراتها تعويضاً عما لاقوه من صعوبات وقلة في الطعام أثناء المسير، حيث أنهم لم يجدوا في طريقهم سوى بعض النباتات التي كانت تنمو في فصل الربيع على الطريق بين إشبيلية وقرطبة .

انتظر الفريقان ثلاثة أيام حتى ينخفض مستوى ماء النهر - من يوم الاثنين السادس من ذي الحجة إلى الخميس التاسع منه عام 138هـ/الحادي عشر إلى الرابع عشر من أيار 756 م. وفي هذه المدة كان عبد الرحمن يركز انتباهه على أمرين: الأول، هو إنهاء الترتيبات الخاصة بتنظيم قواته وتعيين القادة على الفرق العسكرية المختلفة التي يتألف منها جيشه، والأمر الآخر هو مشكلة عبور النهر دون التعرض إلى خطر الهجوم من قبل الجيش المعادي في الطرف الآخر. فعين عبد الرحمن بن نعيم الكلبي على الخيالة من أهل الشام، وبلوهة اللخمي على المشاة من اليمانيين. وأقام على مشاة بني أمية والبربر عاصم بن مسلم الثقفي، الذي بلغ من حماسه للقتال أن خلع سراويله للعبور والخوض في النهر، فسمي لذلك بالعريان. وجعل على خيل بني أمية حبيب بن عبد الملك القرشي، كما أعطى قيادة فرسان البربر إلى إبراهيم بن شجرة البرنسي، وأخيراً عهد بلوأة الجيش كله إلى أحد زعماء الموالي، وهو أبو عثمان عبيد الله بن عثمان.

وبالنسبة للمشكلة الثانية، فقد شرع عبد الرحمن في الاتصال بيوسف الفهري وإجراء مفاوضات تمويهية معه بشأن التوصل إلى حل سلمي بين الطرفين. فأرسل عبد الرحمن وفداً إلى يوسف يبنه بقبول شروطه السابقة، ورجاه ألا يعارض في عبوره هو وجنده إلى الجانب الآخر من النهر ليكون الطرفان جنباً إلى جنب تسهيلاً للمفاوضات. وقد جازت هذه الحيلة على يوسف، فلم يعترض على عبور جيش عبد الرحمن، بل بادر أيضاً بإرسال الغنم والبقر إليهم لإطعامهم. وهكذا قضى جنود الجيشين ليلتهم لا يشكّون بتمام الصلح بين الطرفين. ولكن مفاوضات عبد الرحمن مع يوسف لم تكن سوى وسيلة لتمكينه من العبور بسلام. وما أن تحقق له هذا الهدف، حتى هاجم في صباح اليوم التالي الباكر (الجمعة العاشر من ذي الحجة 138 هـ/الخامس عشر من أيار 756 م) جيش يوسف على حين غرة، واضطره للقتال دون استعداد وتنظيم كاملين. فتولى أمر المشاة على الفور ثلاثة من القادة، وهم كنانة بن كنانة، وجوشن بن الصميل، وعبد الله بن يوسف الفهري. أما خيالة أهل الشام فأعطيت قيادتها إلى علي بن عبيد الكلابي، وقد تزعم أحد موالي يوسف، واسمه خالد سؤدي، قيادة موالي يوسف وحلفائه من البربر نشب القتال بالقرب من المصاراة، وكانت المعركة قصيرة التحم فيها فرسان عبد الرحمن بالقلب والجناح الأيمن لقوات يوسف وهزموها. ومن هنا فقد فر من أرض المعركة خالد سؤدي وأتباعه من البربر والموالي، وقتل قادة المشاة الثلاثة المذكورين أعلاه. وقد حاول قائد الجناح الأيسر، عبيد بن علي الكلابي، أن يتدارك الموقف، لكنه لم يتمكن من الصمود أمام فرسان عبد الرحمن فقتل هو أيضاً مع الكثير من رجاله. ولم يكن أمام الصميل بن حاتم الكلابي سوى الهرب إلى جنده في جيان. أما يوسف الفهري، فقد فر هو الآخر من المعركة، وأراد الدخول إلى قرطبة، لكن منعه أحد قادة البربر فاضطر إلى الالتجاء إلى طليطلة أوالبيرة .

بعد الانتصار دخل عبد الرحمن إلى قرطبة، ثم أدى صلاة الجمعة في مسجدها الجامع، حيث بايعه أهلها على الطاعة. وقد استغلت بعض العناصر في جيشه هذه الفرصة، وملكها الجشع فشرعت في نهب المدينة، وبشكل خاص، أماكن سكن يوسف الفهري والشميل وممتلكاتهما. هاجم اثنان من عشيرة طيء اليمانية مقر إقامة الشميل في شقندة، على مقربة من قرطبة، ونهباه، وأخذوا من جملة الأشياء الثمينة صندوقاً يحوي عشرة آلاف دينار. وعندما علم عبد الرحمن بأعمال السلب والنهب التي جرت في المدينة، أمر بالكف عنها، وإعادة ما أخذ من الأموال إلى أصحابها. ولكن هذا الموقف لم يحظ بتأييد كل أنصار عبد الرحمن، وقد غضب اليمانيون واتهموه بالتعصب إلى قبيلته قريش. أما القادة العقلاء، فقد أخفوا عدم موافقتهم وقبلوا بموقفه، على الرغم من خيبة أملهم فيه. ويعود السبب في هذا إلى أن غرض اليمانيين الأول من تأييد عبد الرحمن كان التخلص من يوسف والشميل، والحصول على المزيد من المصالح والممتلكات نتيجة لتغيير النظام. ولكن موقف عبد الرحمن أثبت خطأ تقديراتهم. ومن هنا فقد أراد بعض قادتهم القيام بعمل سريع ضده والانقلاب عليه وعلى مواليه الأمويين، ليتمكنوا من الاستئثار بالأندلس وحدهم. وكان أبو الصباح اليحصبي، زعيم غرب الأندلس، من أهم القادة اليمانيين الداعين إلى هذا الأمر. ومع ذلك، فقد أفضيت المؤامرة بسرعة إلى عبد الرحمن، فاتخذ إجراءات فورية لحماية نفسه ودولته الجديدة، فأنشأ شرطة، وعين عليها عبد الرحمن بن نعيم الكلبي، الذي كان ينتمي إلى قضاة التي ظلت على ولائها له. وهذا أول منصب رسمي يتم إنشاؤه في عهد الأمير عبد الرحمن. واختار أيضاً حرسه الخاص من مواليه، كما أحاط نفسه بموالي الأمويين في قرطبة.

نهاية عصر الولاة وقيام الإمارة الأموية في الأندلس :

قامت الدولة الأموية في الأندلس على أثر انتصار عبد الرحمن بن معاوية في معركة المصارة ودخوله قرطبة في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة 138 هـ/14 أيار 756 م. وعلى الرغم من هذا الانتصار، لم يتمكن الأمير الأموي أن يسيطر أول الأمر على الأندلس كلها. فلقد كان ليوسف والشميل الكثير من المؤيدين، مما شجعهما على محاولة استعادة سلطانهما السابق. وقد جاءت إلى يوسف عندما كان في طريقه إلى طليطلة نجدة

من الشمال الشرقي، بقيادة ابنه عبد الرحمن، تقدر بخمسمئة فارس. وفي طليطلة نال يوسف تأييد حاكمها الفهري، هشام بن عروة، الذي قدم له تعزيزات كثيرة. وقد قاد يوسف هذه القوات إلى جيان حيث كان الصميل يستنفر أتباعه هناك. فالتقيا، واستوليا على جيان، وطردا منها العامل الذي عينه عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية. ثم سارا إلى البيرة، وأجبرا عاملها أيضاً على الفرار إلى المناطق الجبلية المجاورة.

وبوصول هذه الأنباء إلى عبد الرحمن، وجد أنه لا مفر له من السير إليهما قبل أن يستفحل خطرهما على الوضع الجديد. وقد استخلف أبا عثمان على قرطبة، وترك معه بعض الموالي وسكان أهل المدينة من اليمينيين. ولكن ما إن علم يوسف بغياب عبد الرحمن عن قرطبة، حتى أوعز إلى ابنه أبي زيد، الذي كان في ماردة، بمفاجأة قرطبة واحتلالها. ونجح هذا الأخير في مهمته، لكنه لم يتمكن من البقاء فيها، وغادرها فور سماعه برجوع الأمير عبد الرحمن إليها، مكتفياً بأخذ أبي عثمان أسيراً معه. وقد أعاد عبد الرحمن تنظيم المدينة، وعهد بحراستها إلى رجل موثوق، هو عامر بن علي، جد بني فهر الرصافيين. ثم مضى لاستكمال حملته نحو البيرة، وعندما وصل هناك، وجد أن يوسف والصميل مستعدان للمفاوضات. ويبدو أنهما أحسا بعدم قدرتهما على الاستمرار في المقاومة، ففضلا الصلح مع عبد الرحمن. وتم التوصل إلى عقد اتفاق بين الطرفين في سنة 140 هـ/757 م، اعترف بموجبه كل من يوسف والصميل بعبد الرحمن بن معاوية أميراً على الأندلس، مقابل احتفاظهما بكل أموالهما وأملاكهما، وإعلان العفو العام عن جميع أنصارهما. وقد رضي عبد الرحمن بهذه الشروط، ووافق يوسف على أن يستودعه ابنه، أبا زيد عبد الرحمن، وأبا الأسود محمداً، ليبقيا رهينتين حتى تهدأ الأمور، ويسود السلام. كما تبادلوا الأسرى، فأطلق عبد الرحمن سراح خالد بن زيد، الرسول الذي سجن على أثر فشل المفاوضات في طرش، مقابل إطلاق سراح أبي عثمان، الذي أسر في الهجوم على قرطبة. ثم عاد الجميع إلى العاصمة، وسارت الأمور على خير ما يرام لفترة من الزمن، وعامل عبد الرحمن الجميع بلطف وكرم. وقد حاول بعض أعداء الوالي السابق مطالبته بحقوق لهم عنده أثناء ولايته، وادعوا أنه قد استولى هو والصميل على أراضيهم وممتلكاتهم، وطالبوا بمقاضاتهم أمام القاضي يزيد بن يحيى التجيبي. وكان هؤلاء يحسبون أن القاضي سيتحيز ضدهما، ولكنه تمالك نفسه، ولم يقض في أمرهما إلا بالحق، وأظهر براءتهما، فظلا مشمولين برعاية وإكرام الأمير.

ولكن الأمور لم تستمر على هذا المنوال، لأن الوضع الجديد في قرطبة لم يحظ بتأييد الكثير من الأسر القرشية من بني فهر وبني هاشم، الذين كانوا يتولون في العهد السابق أرفع المناصب في البلاد. وقد تحولت هذه المناصب الرئيسية إلى موالى الأمير، وأقربائه الذين جاءوا من المشرق، مثل عبد الملك بن عمر بن مروان، المعروف بالمرواني، وابنه عبد الله، وجزيء بن عبد العزيز بن مروان. ومن هنا، فقد بدأت الجماعات المتضررة بتحريض يوسف الفهري على الأمير الجديد. وقد أذعن يوسف لضغطهم، وحاول أن يستميل الصميل والأجناد الشاميين، لكنه فشل في حملهم على الاشتراك معه في التمرد على النظام الجديد. وعلى الرغم من هذا، فقد فر يوسف من قرطبة واستطاع أن يغري بعض البلديين والبربر في لقتت وماردة وطلطلة، فثاروا في هذه النواحي

سنة 141 هـ/758 م. وقد حاول يوسف أن يستولي على مدينة إشبيلية التي كانت تحكم من قبل ابن عم الأمير عبد الرحمن، عبد الملك المرواني. ولكنه ما أن سمع بقدوم جيش عبد الرحمن إليه، حتى رفع الحصار عن إشبيلية، ومضى لقاء عبد الرحمن. وقد لاحق المرواني، وابنه عبد الله، حاكم مورور، يوسف، الذي خشي أن يقع بين كل من جيش عبد الرحمن، وجيش المرواني وابنه، فهاجم الجيش الأخير، وأسفرت لمعركة عن هرب رجال يوسف، وفراره هو أيضاً إلى طليطلة. ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى هذه المدينة والالتجاء إلى قريبه هشام بن عروة الذي كان عاملاً عليها. فقد استطاع أحد بناء الأنصار، ويدعى عبد الله بن عمر الأنصاري، أن يتعرف عليه ويقتله على الطريق على بعد ستة كيلو مترات من طليطلة. ثم أقبل عبد الله الأنصاري برأس يوسف على الأمير عبد الرحمن، فأمر بقتل أبي زيد بن يوسف، وأبقى الابن الآخر في السجن لصغر سنه. ولما كان أحد أبناء الصميل مشتركاً في هذه المؤامرة، فإن عبد الرحمن لم يكن ليصدق بأن الصميل كان لا يعلم بخطة يوسف في التمرد، وأن الأخير قام بهذا العمل من تلقاء نفسه. ومن هنا، فقد اتهم الصميل بهذا التدبير، وبالتستر على هرب يوسف، وألقى عليه القبض وسجنه في قرطبة. وبعد مقتل يوسف وابنه، قتل الصميل في سجنه مخنوقاً بتدبير من عبد الرحمن الداخل. وهكذا صفا الجو لعبد الرحمن، وانتهى على يديه العصر الأول للعرب في الأندلس، وهو عصر الولاة، وأصبح الحاكم الشرعي للبلاد، مؤسساً بذلك إمارة أموية مستقلة حكمت الأندلس نحو ثلاثة قرون.



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

اسم المحاضرة الثامنة باللغة العربية: الثورات والفتن الداخلية في عصر الإمارة :

اسم المحاضرة الثامنة باللغة الإنكليزية : **Internal revolutions and strife in the era of the emirate**

محتوى المحاضرة الثامنة

- الثورات والفتن الداخلية في عصر الإمارة :

تعرض عصر الإمارة الأموية إلى العديد من الثورات والفتن الداخلية التي كانت تقوم بها مختلف العناصر التي تألف منها المجتمع الأندلسي الجديد. واشترك في هذه الفتن الفاتحون الذين كانوا يتألفون من القبائل العربية والبربر، كما ساهم فيها أيضاً أهل البلاد الأصليين، سواء منهم من دخل الإسلام كالمولدين، أم من بقي على دينه وتثقّف بالثقافة العربية كالمستعربين ولم تندمج هذه الأجناس المختلفة بعضها ببعض، ولهذا فقد كانت الأمور تتوقف على مدى قوة وصلابة الأمراء والحكومة المركزية في قرطبة، فإذا قويت هذه الحكومة، أمكن السيطرة على هذه الأجناس، والقضاء على ما تقوم به من تمرد على السلطة. أما إذا ضعفت الحكومة المركزية، وتولى الإمارة أمير غير حازم، نشطت هذه الجماعات، وقامت بالتمرد ومحاولة الاستقلال عن الإمارة الأموية. وكانت طبيعة البلاد الجغرافية الجبلية تساعد هذه الفئات على ما تريد من التمرد والانشقاق ومحاولة الاستقلال، وسوف نتطرق فيما يأتي إلى أهم الثورات والفتن التي حدثت في عهد الأمراء الأقوياء الأوائل، ومن ثم نشير إلى الفتن والاضطرابات التي سادت أواخر عصر الإمارة، أي في الحقبة التي تميزت بضعف سلطة الحكومة الأموية والتي امتدت من وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني في سنة 238 هـ/852 م إلى سنة 300 هـ/912 م حيث تولى الحكم عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله.

أولاً - ثورة القبائل العربية في عهد عبد الرحمن الأول:

لقد سبقت الإشارة إلى أن سياسة عبد الرحمن الأول الرئيسية كانت تهدف إلى السيطرة القوية على البلاد، والحد من نفوذ رجال القبائل العرب. ولهذا حاول التقليل من الاعتماد عليهم، وخلق قوة جديدة في شبه الجزيرة تعتمد على المماليك والبربر القادمين من شمال أفريقيا. وعندما أدرك رجال القبائل اليمينيون وحلفاؤهم من البربر مايرمي إليه عبد الرحمن ازدادت مخاوفهم من النظام الجديد، وابتدأوا بالثورة عليه. يضاف إلى هذا، إن مجيء عبد الرحمن إلى الحكم لم يحقق لهم ما كانوا يصبون إليه من السلطان والامتيازات، والتسلط على المنهزمين من جماعة يوسف الفهري والصميل.

وتبين لهم أن الأمير الجديد عدهم أداة للوصول إلى الحكم، ومن ثم عاملهم معاملة الأتباع الذين عليهم واجب الطاعة فقط. فكره شيوخ اليمينيين ذلك، بل إن بعضهم حاول الانقلاب على الأمير ومواليه بعد انتصاره مباشرة في معركة المصارة، كما أسلفنا.

وكان أول من رفع راية العصيان من اليمينيين على عبد الرحمن الأول هو العلاء بن مغيث الجذامي، رئيس جند مصر في باجة، جنوب البرتغال الحالية، في سنة 146 هـ/763 م. وتروي المصادر العربية، أن الخليفة

العباسي أبا جعفر المنصور، كان وراء هذا العصيان، فحرض العلاء على التمرد، واسترداد الأندلس للخلافة العباسية ووعده بإمارة الأندلس إن هو تمكن من النجاح والانتصار على عبد الرحمن بن معاوية. وقد أرسل له سجل تعيينه على البلاد، والرايات السوداء، شعار العباسيين، لاتخاذها أعلاماً للثورة. وعلى الرغم من هذا، لا يمكن للمرء أن يركن إلى هذه الروايات، لأن الخلافة العباسية لم تكن مستعدة لذلك، وأبو جعفر المنصور بالذات، كان مشغولاً في ذلك الوقت بحل المشاكل العديدة التي كانت تواجهه في المشرق العربي، وليس من المعقول أن يفكر بإرسال جند أو بالتأييد العسكري لمغامرة بعيدة جداً عن مركز دولته في العراق. يضاف إلى ذلك، أن العباسيين لم يكونوا مسيطرين حتى ذلك الحين على المغرب العربي، وكانت سلطتهم مهزوزة في أفريقية، أي تونس الحالية، فكيف يفكرون بالاستيلاء على الأندلس البعيدة. ولكن هذا لا يعني أن المنصور لم يظهر الرضى عن يدعوا باسمه في الأندلس أو في غيرها. وأغلب الظن أن العلاء بن مغيث دعا من تلقاء نفسه إلى الخلافة العباسية تقوية لحركته وإظهاراً لقدسيته ولجمع أكبر عدد ممكن من الناقلين على نظام الحكم والمؤيدين لإحداث التغيير في البلاد. وقد انضم إلى الثورة أعداد كبيرة من اليمينيين، وجميع العناصر الساخطة على حكم عبد الرحمن، فتضخم جيش العلاء. وسارع عبد الرحمن لمحاربتة، لكن العلاء انتصر عليه وحاصره في مدينة قرمونة لمدة شهرين. وأخيراً تشجع الأمير وخرج بجنوده من هذه المدينة، وهو ينوي الانتصار أو الموت، فانقضوا على جند العلاء وقتلوا منهم عدداً كبيراً بضمنهم العلاء نفسه. وتزعم الروايات أن عبد الرحمن أمر بحمل رأس العلاء ورؤوس بعض كبار مؤيديه، بعد أن حشيت بالملح والكافور، إلى القيروان حيث طرحت ليلاً في بعض أسواقها. وقد وصل خبر هذا الحادث إلى أبي جعفر المنصور، وقيل أن الرؤوس حملت من قبل بعض الحجاج إلى مكة حيث كان المنصور يؤدي مراسيم الحج، فانزعج من هذا الأمر، وقال: " الحمد لله الذي جعل بيننا وبين مثل هذا يقصد عبد الرحمن بن معاوية- من عدونا بحراً " . ولقد لقب المنصور على أثر هذا الحادث، الأمير عبد الرحمن بن معاوية، بلقب " صقر قريش " وذلك اعترافاً منه بقوة وعزيمة هذا الأمير الذي استطاع أن يؤسس بمفرده دولةً، ويمصر الأمصار، ويجند الأجناد، ويدون الدواوين، وينال ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة.

- وبعد نحو ثلاث سنوات على فشل حركة العلاء بن مغيث، ثار قائد عربي آخر يدعى سعيد اليحصبي المطري في نبله Niebla انتقاماً لدماء الذين قتلوا مع العلاء. وقد انضم إليه عدد كبير من اليمينيين، فسار إلى إشبيلية واستولى عليها، ثم نزل بقلعة رعواق الواقعة على نهر الوادي الكبير بالقرب من إشبيلية وتحصن بها. فسار إليه عبد الرحمن وحاصره واضطره إلى الخروج والقتال، وكانت النتيجة مقتل قائد الثورة والعديد من أتباعه وتفرق الباقين حيث عفا عنهم الأمير عبد الرحمن. وفي هذا العام نفسه أي 149 هـ/766 م، ثار أبو الصباح بن يحيى اليحصبي. وكان الأمير قد ولاه على إشبيلية، بعد قيام الإمارة الأموية، لكنه كان يشك في ولانه منذ دعوته

للإطاحة به بعد انتهاء معركة المصارة. ولهذا فقد عزله بعد فشل ثورة المطري، فنقم عليه أبو الصباح، فكتب الأجناد وألبهم على عبد الرحمن. وعندما تبين للأمير عظم نفوذ أبي الصباح وقوته وتأثيره على الأجناد، حاول التفاوض معه واستدراجه بالحيلة إلى قرطبة حيث قتله في العام نفسه، ففرق جنده ".

وقد كان لمقتل أبي الصباح أثر بالغ على القبائل اليمينية في غرب الأندلس، لأنه كان سيد عرب هذه المناطق، وكان أقرباؤه زعماء لكور متعددة فيها. فازدادت نعمتهم على عبد الرحمن، وتحينوا الفرص للثورة عليه. 4 وقد سنحت لهم الفرصة في سنة 156 هـ/772 م. عندما كان الأمير مشغولاً بالقضاء على إحدى ثورات البربر في وسط البلاد، فثار اليمينيون في إشبيلية ولبلة وباجة بقيادة حيوة بن ملامس الحضرمي، وعبد الغفار اليحصبي، وانضموا إلى الثورة أيضاً كل من عمر بن طالوت اليحصبي وكلتوم بن يحصب، وقصدوا جميعاً قرطبة. ومما زاد في خطر هذه الثورة، انضمام العديد من البربر المؤيدين لليمنيين في المنطقة إليها. وقد سارع عبد الرحمن للقضاء عليها وإخمادها، واستخدم أسلوب التفريق بين البربر واليمنيين، مستعيناً بمواليه من البربر مثل بني خليع وبني وانسوس وغيرهما. فداخل هؤلاء بني جلدتهم في معسكر الثوار وأقنعوهم بالتخلي عن زعماء الثورة والانضمام إلى عبد الرحمن الذي وعدهم بالعطاء وضمهم إلى الديوان. وفي المعركة التي وقعت فيما بعد بين الطرفين تخلى البربر عن حلفائهم اليمنيين، وانضموا إلى جيش عبد الرحمن، فوَقعت الهزيمة على الثوار وقتل معظم قادتهم.

ثانياً - ثورات البربر:

بالإضافة إلى مساهمة البربر في معظم الثورات التي قامت بها القبائل العربية في الأندلس، كانت لهم حركاتهم الخاصة بهم ضد السلطة الأموية. ويرجع السبب في هذا إلى عدة عوامل، منها أن الكثير منهم كانوا حلفاء للقبائل العربية وترابطهم مصالح مشتركة، فيثورون معهم تبعاً لذلك. وكانوا منذ فترة الفتح وعصر الولاة متبرمين من أوضاعهم ويميلون إلى الشغب والتمرد. ولكن بمرور الزمن ظهرت عوامل أخرى دفعت جماعات من هؤلاء البربر إلى الثورة ورفع راية العصيان ضد السيادة العربية. فقد استغل أحد رجالهم، المدعو شقيا بن عبد الواحد المكناسي، سذاجة البربر، فادعى أنه من ولد الحسن بن علي، وأنه فاطمي النسب، خاصة وأن اسم أمه كان فاطمة، فاتخذ له اسماً عربياً هو عبد الله بن محمد، وأخذ يدعو الناس لنفسه والثورة على حكومة قرطبة. وقد بدأت دعوة هذا الرجل الذي كان بالأصل معلماً للصبيان في شنتبرية Santaver الواقعة في شرق الأندلس، ثم امتدت إلى أقاليم عديدة في وسط وشمال إسبانيا وغربها مثل ماردة وقورية ومادلين. وتبعه العديد من بربر هذه المناطق الذين آمنوا بدعوته، أو طمعوا بالحصول على امتيازات أو وضع أفضل في حالة الانتصار. واستمرت هذه الحركة التي قامت في عهد عبد الرحمن الأول ما يقارب عشر سنوات 151 - 160 هـ/768 - 777 م.

وكان الأمير خلالها يسيّر عليه العديد من الحملات التي كانت تفشل في القضاء على أتباعه المتمردين لاعتصامهم بالجبال المنيعّة، وتجنبهم للمعارك الحاسمة في السهول. ولم يتمكن الأمير عبد الرحمن من القضاء على هذه الحركة إلا بالتعاون مع أحد زعماء البربر الآخرين، وهو هلال المديوني، الذي عينه على شنتبرية، وأوكل إليه مهمة القضاء على التمرد. وقد استطاع هذا الأخير أن يدبر مؤامرة لاغتيال زعيم الحركة شقيا في سنة 160هـ/777م. وهكذا انتهت هذه الثورة ..

وقد قام البربر ببعض الحركات الأخرى للعصيان على السلطة الأموية، منها تمرد إبراهيم بن شجرة البرنسي في مورور، ومنها تمرد بربر نفزة، لكن الأمير عبد الرحمن الأول استطاع القضاء عليها بسهولة .. أما في عهد خلفائه، فقد استمرت جماعات عديدة من البربر في العصيان والفتنة. ففي عهد هشام بن عبد الرحمن، هاجت الفتنة ببلاد تاكُرْنَا، وهي إقليم رندة الحالية، وأعلن سكانها من البربر الخلاف على السلطة، وأغاروا على الناس، وهاجموا الإقليم بكامله، وقتلوا العديد من العرب. فأرسل إليهم هشام الأجناد التي أنذرتهم أولاً، ولما لم تجد منهم إلا إصراراً على التمرد، هاجمتهم وقتلت العديد منهم، وفر الباقيون إلى طليبرية وترجيلية، وظلت تاكرنا خالية من السكان نحو سبع سنوات.

وكانت مدينة ماردة في غرب إسبانيا بؤرة لثورات البربر، فقامت فيها ثورة في عهد الحكم بن هشام دامت نحو سبع سنوات. وقد تزعم هذه الثورة أصبغ بن عبد الله بن وانسوس، الذي كان قائداً للأمير، ويبدو أنه أراد التمتع بمزيد من الاستقلال في إدارة المدينة، فساءت العلاقة بينه وبين حكومة قرطبة، وساعد على هذا أن بعض أعدائه أوقع بينه وبين الأمير. ولكن أصبغ طلب الأمان بعد سبع سنوات، فأمنه الحكم ودعاها للإقامة في قرطبة، والتردد على ضياعه في ماردة. وقد قام البربر بتحريك خطير آخر في ماردة في عهد عبد الرحمن الثاني، وذلك سنة 213 هـ/828م. وقد أشعل نار الثورة هذه المرة رجل بربري واسمه محمود بن عبد الجبار، وهو من قبيلة مصمودة، وانضم إليه أحد المولدين واسمه سليمان بن مرتين. وقد استقل هذان الزعيمان في المدينة، ولم تغلح محاولات الأمير في استعادتها إلا بعد أن توجه بنفسه إليها وحاصرها وافتتحها في عام 216 هـ/834م. وقد فر الثائران من المدينة، ثم استقل محمود بن عبد الجبار بالحركة، تساعده أخته جميلة، التي اشتهرت بالحسن البارع والشجاعة والنجدة والفروسية، وزحف إلى بطليوس، ثم إلى أكشونبة وباجة، وعندما ضايقته حملات الأمير، اضطر إلى الهرب إلى جليقية، والالتجاء إلى ملكها ألفونسو الثاني. ولكنه اكتشف بعد حين أنه تورط في موقفه، وأن الملك الإسباني لا يساعده في حركته الانفصالية إلا ليحقق مكاسب سياسية لمملكته على حساب الإمارة الأموية. فحاول العودة إلى الطاعة، لكن ألفونسو أفسد عليه خطته واضطره للقتال، فقتل وأسرت أخته جميلة.

ثالثاً - حركة أو هجرة الرَبَض:

تعني كلمة الربض من الناحية اللغوية الحي أو الضاحية، والمقصود بها هنا المنطقة السكنية الجديدة التي استحدثت في قرطبة بعد أن أصلح الأمير هشام بن عبد الرحمن الجسر الذي يصل قرطبة القديمة المسورة بالضفة الأخرى من النهر، حيث تقع ضاحية شقنדה. وقد سكن الكثير من الفقهاء هذه الضاحية لقربها من المسجد، الذي كان على الجانب الآخر من النهر في قرطبة القديمة. كما استقر أيضاً في هذا الحي أو الربض العديد من الحرفيين وأهل الأسواق، والتجار، ومعظم هؤلاء من المولدين.

وتعود جذور هذه الفتنة التي قادها الفقهاء المالكيون ضد الأمير الحكم بن هشام إلى انتشار قوة وتسلط هؤلاء الفقهاء في عهد أبيه هشام الذي كان يعمل بمشورتهم ويتأثر بنفوذهم. ولكن الحكم كان يختلف عن أبيه، فلم يكن ميالاً لقبول وصاية الفقهاء ولم يستسلم لتأثيرهم، بل كان على العكس يميل إلى اللهو والصيد وغيرها من الأمور التي لا يستسيغها الفقهاء. وهكذا نشأت هوة عميقة بين هؤلاء وبين الحكم الذي حدّ من نفوذهم. ولقد بدأوا بمحاربتة بوسائل شتى، أهمها تأليب العامة عليه والطعن بسلوكه الديني والأخلاقي. استجاب العامة من سكان الربض لهذا التحريض، لأنهم أرادوا أن يكون لهم صوت مسموع في المجتمع، وخاصة أنهم كانوا طبقة اجتماعية كبيرة. لها آمالها وتطلعاتها الاجتماعية والسياسية. وكان للحكم أيضاً دوره في تأجيج هذه الفتنة بما وضعه من ضرائب جديدة ومغارم على الشعب .

مرت هذه الفتنة بدورين، الأول حينما حاول وجوه أهل قرطبة وفقهاؤها القيام بمؤامرة لعزل الحكم في عام 189 هـ/ 804 - 805 م، واختيار أحد أقاربه من الأسرة الأموية الحاكمة بدلاً منه. ولكن هذا الأخير، واسمه محمد بن القاسم، تظاهر بالرضا، ثم أفشى بسر المؤامرة، وأسماء المتآمرين إلى الحكم. فقبض عليهم الأمير وصلبهم، وكان عددهم كبيراً بضمنهم فقهاء كثيرون . وقد ازداد سخط الفقهاء والعامة بعد هذه الحادثة، وأخذوا يتحينون الفرص للقيام على الأمير الحكم. وأدرك الأمير هذه الحقيقة فقام باتخاذ إجراءات عديدة لحماية نفسه وتحصين مدينة قرطبة ضمناً أمام أية محاولة للثورة، فأتقن بناء سورها ورممه، كما حفر حولها خندقاً، وقوى أبواب قصره، ثم أكثر من شراء واستخدام المماليك والعبيد في الجيش، كما أسلفنا.

أما الدور الثاني الذي مرت به هذه الفتنة، فقد وقع بعد نحو أربعة عشر عاماً من مؤامرة الفقهاء الأولى وإعدامهم. وكان السبب المباشر لهذه الفتنة بسيطاً في حد ذاته، لكنه كان كالشرارة التي فجرت هيجان الخلاف بين أهل الربض الجنوبي ومحرضيهم من الفقهاء. فقد نشب خلاف بين حداد وأحد حراس الأمير بشأن إصلاح سيف الأخير وذلك بسبب تباطؤ الحداد في إنجاز العمل. ولم يلبث هذا الخلاف أن تطور إلى نزاع أدى إلى مقتل الحداد، وقد أثار هذا الحادث غضب أهل الربض من المولدين على زميلهم الحداد، فقتلوا الجندي، وتجمهروا

يريدون التوجه إلى قصر الإمارة، وقتل الأمير الحكم باعتباره مسؤولاً عما حدث. فعبروا الجسر على الرغم من مقاومة حرس الأمير، وأحاطوا بالقصر الذي تحصن فيه الأمير وأتباعه. وتزعم بعض المصادر أن الحكم لم يفقد جرأته وشجاعته في ذلك الموقف، وصمم على القتال حتى الموت، فقد طلب من خادمه أن يأتيه بقارورة عطر، وعندما جاءه بها أفرغها على رأسه. فتساعل الخادم عن جدوى التطيب في مثل هذا الوقت، فأجابته الحكم: أنه إنما يتطيب حتى يعرف قاتله رأسه ويميزه عن رؤوس الآخرين. وهو يشير بطبيعة الحال، إلى أنه قد هيا نفسه للموت أو للظفر بالعدو. وقد تفتق ذهنه عن خطة ذكية للقضاء على المتمردين، فدعا رئيس حرسه الخاص للدفاع عن القصر، وأرسل اثنين من قواده ليعبروا النهر من مخاضة ضحلة بعيداً عن الجسر الذي يسيطر عليه المتمردون فتمكنت هذه القوة التي يقودها القائدان، عبد الله بن عبد الله البننسي وإسحاق بن المنذر القرشي، من العبور وتوجهت إلى منازل أهل الربض وأشعلت فيها النيران. وعندما أحس المتمردون بذلك، تفرقت صفوفهم وتوجه قسم كبير منهم لإنقاذ أهله وماله، فوقعوا بين جند الأمير من الإمام والخلف، وقتل منهم عدد كبير جداً.

وبعد انتهاء المقاومة ألقى القبض على نحو ثلاثمئة رجل من زعماء الفتنة، وصلبوا

صفاً واحداً على نهر الوادي الكبير، ثم أمر الحكم بهدم الربض، وحرث أرضه وزراعتها، ونفي من تبقى من سكانه إلى خارج الأندلس. وقد ظل الربض، الذي ما يزال موقعه يعرف لحد الآن باسم Arrabal، مهجوراً من السكان لما يقرب من قرنين من الزمان بعد عهد الحكم الذي اقترن اسمه باسم هذا المكان، فسمي بالحكم الربضي. إن الأمر المهم في هذه الفتنة هو نتائجها سواء على الصعيد الداخلي أم على الصعيد الخارجي.

فبالنسبة إلى الأندلس أدى القضاء على هذه الهبة التي أثارها الفقهاء إلى توطيد الحكم للإمارة الأموية، لأنها أزلت قوة ونفوذ الفقهاء، وحررت الأمراء من وصايتهم وتدخلهم.

أما بالنسبة إلى نتائجها الخارجية، فقد كانت على نطاق أوسع وأشمل، ذلك أن أفواج الربضيين المنفيين إلى خارج الأندلس حطت في أماكن عديدة وأثرت على سير الأحداث فيها. فقد استقر فريق منهم في المغرب حيث سمح لهم إدريس الثاني أمير الأدارسة بالإقامة في مدينة فاس التي أسسها والده إدريس الأول، فأقاموا بالحي المعروف بحي الأندلسيين، ونقلوا معهم مظاهر الحضارة الأندلسية، وطبعوا المدينة بطابع أندلسي جميل من حيث الصناعة، والأبنية البيضاء ذات الحدائق الداخلية. وهكذا سيطروا على مدينة فاس حتى أنها أصبحت تدعى باسمهم مدينة الأندلسيين. أما الفريق الآخر من الربضيين، فقد واصلوا سيرهم في البحر، حتى وصلوا إلى مدينة الإسكندرية في مصر وسيطروا عليها مستغلين الفوضى والاضطراب الذي حل بالبلاد جراء الفتنة بين الأمين والمأمون. وعندما استقرت الأمور للأخير أرسل قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين، فحاصر الأندلسيين الذين اضطروا إلى مصالحتهم، واتفقوا معه على مغادرة البلاد وعدم التوجه إلى أية بقعة تابعة للعباسيين، وكان ذلك في

سنة 212 هـ/827 م. ثم اتجهوا إلى جزيرة كريت، وكانت تسمى أقریطش، وهي تابعة للدولة البيزنطية، فاستولوا عليها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي، وأسسوا فيها دولة حكمت نحو مئة وخمسة وثلاثين عاماً، ونشروا فيها الإسلام، وأسسوا المدن، ومنها مدينة الخندق التي اتخذوها عاصمة لهم، وقد صارت كريت قاعدة بحرية إسلامية مهمة تهدد سواحل الإمبراطورية البيزنطية بما تقوم به من حملات على ممتلكاتها وتجارها. ولكن أمر هذه الدولة الإسلامية انتهى بتغلب البيزنطيين عليها، واسترجاع جزيرة كريت في عهد الإمبراطور رومانوس الثاني في عام 349 هـ/960 م، فتفرق أمر الأندلسيين فيها، وبقية المسلمين، فرجع قسم منهم إلى الأندلس، وقسم آخر إلى مصر وصقلية. وهكذا نرى أن فتنة الربض لم تؤثر فقط على الأندلس، بل شمل تأثيرها أماكن بعيدة جداً، وحمل الألوفا من الأندلسيين هذا التأثير الإيجابي الفعال إلى الأماكن التي هاجروا إليها.

رابعاً: - حركات المولدين:

لقد سبقت الإشارة إلى أن المولدين كانوا من سكان أهل البلاد الإسبانية والقوط الذين اعتنقوا الدين الإسلامي منذ الفتح، واندمجوا في المجتمع الجديد الذي يضم العرب والبربر والمولدين والمستعربين، أي النصارى الإسبانية الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم، لكنهم تأدبوا بآداب اللغة العربية، وبعادات العرب. وقد كان المولدون يطمحون إلى وضع اجتماعي وسياسي أفضل، وذلك بمشاركة العرب في الحكم والسلطان. ثم تحول موقفهم بالتدريج إلى التمرد ومحاولة الاستقلال عن سلطان بني أمية في قرطبة. ومما شجع المولدين على السير بهذا الاتجاه، تركب مجموعات كبيرة منهم في مناطق جغرافية تساعد على الانفصال والتمرد، وبشكل خاص في مناطق الثغور، أي المدن القريبة من خط الحدود مع الدول المسيحية في الشمال، مثل سرقسطة في الشمال الشرقي وطليلة في الوسط، وماردة في الغرب. وقد دعمت قرطبة بعض القبائل العربية في المناطق التي كثرت فيها حركات المولدين، مثال ذلك أسرة بني تجيب العربية التي سكنت في منطقة الثغر الأعلى. ونظراً لكثرة حركات المولدين وثوراتهم في عهد الإمارة الأموية، فسوف نقتصر على مثال واحد فقط عن مدينة طليطلة، التي ثار فيها المولدون على الأمير الحكم الأول، وابنه عبد الرحمن الثاني. فبالإضافة إلى كثرة عدد المولدين في طليطلة، فإن أهلها لم ينسوا عز هذه المدينة ومجدها قبل الفتح، وأنها كانت عاصمة البلاد. وكان أهلها يعتزون أيضاً بثروتهم وحصانة مدينتهم التي تقع على نهر تاجة، ولذا نجدهم يساهمون في الكثير من الفتن التي كانت تقوم على حكومة قرطبة، ويتحينون الفرص دائماً لشق عصا الطاعة، والاستقلال بمدينتهم. ولكن الأمراء الأمويين قاوموا هذه الثورات والفتن، واستعملوا أساليب قاسية جداً في سحق حركات المولدين، وتثبيت السلطة الأموية في البلاد.

ثار المولدون في طليطلة على الأمير الحكم عام 181هـ/797 م، وتزعم الثورة رجل يدعى عبدة بن حُميد. وقد استطاع الحكم أن يقضي على هذه الثورة بواسطة مولد من مدينة وشقة اسمه عمرو بن يوسف، وقد نجح هذا الأخير بإغراء بعض وجهاء المدينة لاغتيال عبدة بن حميد، وبهذا خمدت الثورة إلى حين. وحاول الحكم استخدام أسلوب الدهاء والحيلة مع أهل المدينة، فعين عليهم عمرو بن يوسف حتى يطمئنون إليه لأنه من بني جلدتهم. وعندما أنس إليه أهل طليطلة، تظاهر أمامهم بأنه أكثر منهم حقداً على الأمير الحكم وعلى بني أمية عامة، فوثقوا به ومنحوه طاعتهم وأطلعوه على أسرارهم. ولكنه، وبتوجيه من الأمير الحكم كان يبيت لهم خطة دموية للقضاء على مقاومتهم المستمرة. فأقنع زعماءهم بضرورة بناء قلعة حصينة بظاهر طليطلة بحجة إيواء الجند والمماليك، بعيداً عنهم وعن نسايتهم. فبنيت القلعة وأخذ التراب اللازم لبنائها من نفس المكان، فظلت فيه حفرة كبيرة. وأخبر الأمير الحكم بانتهاء البنيان لاتخاذ الخطوة التالية من العمل، فسير الحكم جيشاً بقيادة ابنه عبد الرحمن، بحجة مقاتلة النصارى في الشمال. وعندما وصل هذا الجيش بالقرب من طليطلة أعلن عن انسحاب العدو، وبدأ الجيش بالتهيو للرجوع. لكن عمرو بن يوسف خرج إلى الأمير، مع وجهاء أهل المدينة، ودعوه للدخول، فوافق الأمير عبد الرحمن بعد تمنع. ثم أقام عمرو وليمة كبيرة للأمير، دعا إليها زعماء المدينة وكبار الشخصيات فيها. فحضروا إلى القلعة التي احتشد فيها الجند، وقد أوهمهم عمرو أنهم إذا انتهوا من طعامهم خرجوا من باب غير الباب التي دخلوا منه. ولكن أحداً منهم لم يستطع الخروج لأن الجند الذين اصطفوا على طرف الحفرة قتلوا كل الداخلين دون أن يشعر بهم الباقون، وهكذا بلغ عدد القتلى نحو سبعمئة رجل. ومن المؤرخين من يبالغ فيجعل عددهم خمسة آلاف وثلاثمئة رجل.

ويدل هذا على عظم أمر هذه المذبحة التي سميت بوقعة الحفرة والتي جردت المدينة من زعمائها، وأعيانها المتطلعين دوماً إلى الثورة. ولكن هذه القسوة لم تمنع طليطلة من التمرد على الأمراء الأمويين إلا لفترة قصيرة، فسرعان ما تواصلت الثورة ثانية في عهد الحكم نفسه، وفي عهد خلفائه من بني أمية. ثم اتخذت ثورات المولدين بعداً أخطر حين تولى السلطة أمراء ضعاف، فظهرت بوادر التفكك والتجزؤ والحركات الانفصالية، مثل حركة ابن حفصون، كما سنرى فيما بعد.

خامساً - حركات المستعربين:

لم يقيم المستعربون بحركات عنف وتمرد على الدولة الأموية في الأندلس على نطاق واسع، ولكن بعضهم شارك في فتن المولدين التي كانت تقوم في المناطق المختلفة من البلاد. ومع هذا، فقد حاول بعض المستعربين المتطرفين في قرطبة إثارة فتنة هوجاء ضد الحكم العربي الإسلامي في الأندلس. وكان أبطال هذه الحركة جماعة من غلاة رجال الدين المتعصبين الذين نقموا على سيادة العرب والإسلام في البلاد. والواقع أن دوافع هؤلاء لم

تكن لها علاقة بأي اضطهاد ديني للمسيحيين، لأن التسامح الديني كان سائداً في الأندلس، وبشكل خاص في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني الذي حدثت في عهده هذه الحركة. فكانت حرية المعتقد مضمونة، وعاش رجال الدين المسيحي من أساقفة ورهبان في أمن وسلام، لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء وكان المستعربون بشكل خاص قد تحسنت حالتهم الاجتماعية والاقتصادية إلى حد كبير، بل إن عدداً كبيراً منهم استطاع أن ينال مراتب عالية في الإدارة والجيش. وامتحن الباقون التجارة في المدن والشعور، كما عملوا في مزارعهم الخاصة أو في ضياع المسلمين دون إكراه أو استغلال.

ولكن هذه الحالة الفريدة من التسامح، التي رضي ورحب بها غالبية المستعربين، لم تلقَ التأييد من جانب القسس المتعصبين في الكنائس والأديرة، الذين ظلوا قابعين في أماكنهم بعيدين عن التطور الذي حل بجماعتهم. ذلك التطور والاندماج الذي أدى إلى تكلم المستعربين بلغة الفاتحين العرب، وتفننهم في استخدام الفصحى وقول الشعر، وقراءة أمهات كتب الأدب. بل إن الكثير من المستعربين اقتبسوا عادات الفاتحين وتقاليدهم الاجتماعية التي كانت، كما يرى رجال الدين المتعصبون لا تتلاءم مع العقيدة المسيحية، مثل الختان، واتخاذ الجوارح، والمصاهرة مع المسلمين. والحقيقة أن إطلاق اسم المستعربين Mozarabes على هؤلاء، يدل دلالة قاطعة على مدى الميول والاتجاهات نحو الثقافة العربية، التي كانت تتغلغل في نفوس هذه الطبقة من المجتمع الأندلسي. فأهملوا دراسة اللغة اللاتينية، التي هي لغة الدين المسيحي، وانصرفوا عن قراءة المصنفات الدينية المكتوبة بها، فأدى هذا بالتدريج إلى ذوبان الحضارة المسيحية اللاتينية. ولقد بلغت اللغة اللاتينية في بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط، حتى باتت من الضرورة أن تترجم قوانين الكنيسة الإسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين.

أفزعته هذه الحالة غلاة المتعصبين من رجال الدين، وبدا لهم مستقبل الكنيسة مخيفاً، لإعراض أبنائهم عن الثقافة المسيحية والاتجاه نحو الاستعراب. وعندما لم يفلحوا في وقف هذا التيار، حاولوا افتعال أزمة مع الحكم العربي المتسامح، وذلك بإظهار الاستخفاف بالإسلام، وسب نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، والتقول عليه بالباطل إلى حد الشطط، استفزازاً لمشاعر المسلمين وانتهاكاً لحرمة ديانتهم جهراً وبغير سبب. وكانوا بهذا يرمون إلى خلق جو من التوتر والشعور بالاضطهاد، لأن الشرع الإسلامي يعاقب على هذه الجريمة بالموت. ومن ثم يبدو للمسيحيين بأن المسلمين يقتلون إخوانهم ويضطهدونهم، وهكذا يمكن استعادة من أسلم من هؤلاء، أو حملهم على عدم التعاطف والتعاون مع المسلمين.

ولقد تزعم هذه الفتنة المتطرفة وحرص عليها بعض الغلاة من أمثال أيلوخيو Eulogio، والفارو Alvaro، وذلك في أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الثاني. فكانا يدعوان النصارى إلى سب الرسول (صلى الله عليه وسلم)

والطعن في الإسلام علناً، واقتحام المساجد والاعتداء على المسلمين والتقليل من شأن دينهم. وعلى الرغم من أن عدد هؤلاء المتعصبين الانتحاريين لم يكن يزيد في مجموعه عن أربعين شخصاً، لكن حكومة قرطبة خشيت سوء عاقبة هذه الحوادث، وأثرها على شعور عامة المسلمين. فلم تجد مناصاً من تطبيق الشرائع والقوانين بمعاقبة هؤلاء بالموت، لأن عدم معاقبتهم يؤدي إلى استخفاف الناس، وقلّة اكرائهم بسلطة الدولة ودينها الرسمي، وذيوع حركة التمرد بين عدد كبير من المتطرفين. ومع هذا، فلم يشأ الأمير عبد الرحمن أن يلجأ إلى وسائل متطرفة للقضاء على الحركة، ولم ينتقم من جميع المستعربين، بل اكتفى بالأحكام القضائية التي كان يصدرها القضاة على من يثبت عليه القيام متمعداً بسبب الإسلام والنيل من نبيه الكريم. وظلت هذه الموجة من الغلو مستمرة في قرطبة، حتى ضج منها المسيحيون المعتدلون وأظهروا استياءهم من " الاستشهاد " الذي كان يطلبه المتطرفون.

والذي هو في حقيقة الحال نوع من الانتحار الذي حرّمه الدين المسيحي. وقد عقد في عام 237 هـ/852 م مجمع ديني في قرطبة يضم كل أساقفة الأندلس برئاسة مطران إشبيلية، ومثل الأمير عبد الرحمن فيه أحد المستعربين المسيحيين، وهو غومز بن أنطونيان، الذي كان كاتباً عند الأمير. فعرض غومز حالة المنتحرين على المجمع ونتائجها السلبية على كل المستعربين في البلاد. وقد وافق جميع أعضاء المجمع -باستثناء أسقف قرطبة الذي لزم جانب المتطرفين- على إصدار قرار استنكروا فيه حركة المسيحيين المتطرفين، وعدوها حركة مخالفة لتعاليم الكنيسة. ولكن هذه الفتنة الدينية، التي جاءت نتيجة الاستعراب، استمرت بقية عهد الأمير عبد الرحمن الثاني، ولم تنته إلا في بداية حكم ابنه الأمير محمد، حيث أعدم أيلوخيو المحرض عليها في عام 245 هـ/859 م .

سادساً - الفتن والاضطرابات في فترة ضعف الإمارة الأموية:

ابتدأت بوفاة عبد الرحمن الثاني أو الأوسط عام 238 هـ/852 م فترة مضطربة، تمزقت فيها وحدة الأندلس السياسية، وقام المنشقون والمتمردون في كل مكان على حكومة الإمارة في قرطبة. ولم يكن الأمراء الذين تولوا في هذه الفترة، التي امتدت نحو اثنين وستين عاماً، يظاهون في كفاءتهم ومقدرتهم الأمراء الأوائل، وإن كان بعضهم يتمتع بمواهب جيدة في الإدارة والقيادة، ولكن ظروف العصر كانت غير عادية، وبالتالي تحتاج إلى رجال أذنان، وحكام غير اعتياديين. ومن هنا، فإنه من غير الصواب تحميل أمراء هذه الفترة الثلاثة، وهم كل من الأمير محمد بن عبد الرحمن، وابنيه المنذر بن محمد، وعبد الله بن محمد، مسؤولية الانهيار السياسي والاضطراب التي ميزت هذه الحقبة. فلقد كانت البيئة الاجتماعية في الأندلس غير منسجمة، لأنها تتألف من شعوب وأجناس مختلفة

تتنافر مصالحها مع بعضها البعض، ولا يجمعها سوى قوة السلطة المركزية في قرطبة. وهذه الفئات، كما أسلفنا، كانت تتألف من أهالي البلاد، بنوعيهن المسلمين الذين سموا بالمولدين، والمستعربين الذي ظلوا على ديانتهم المسيحية، وكذلك من الفاتحين العرب والبربر. ولم يكن الانسجام التام سائداً حتى بين الفاتحين أنفسهم، فالخلافات بين القبائل العربية كانت ما تزال تعمل عملها في الفرقة، وكذلك البربر الذين كان عددهم يفوق عدد العرب، ولهم طموح شديد، وتتنازعهم مشاعر السيطرة، والمشاركة في الحكم.

لقد كانت قوة الأمراء الأوائل هي العامل الوحيد الذي جمع بين هذه الأجناس، وجعلها تعيش في وئام مع بعضها، ولكن ما إن غابت هذه القوة حتى بدأت العناصر المختلفة بالتحرك والثوب على سلطة الإمارة. وساعدها على ذلك طبيعة البلاد الجغرافية الجبلية، وسهولة إعلان العصيان والالتجاء إلى المناطق المنيعه. كما زاد من هذه الحالة أيضاً وقواها، العلاقة العدائية التي كانت سائدة بين الإمارة الأموية، والإمارات النصرانية الاسبانية في الشمال، التي كانت تساعد في إذكاء روح التنافر والخلاف بين هذه الأجناس، وتحضها على شق عصا الطاعة، خدمة لمصالحها التوسعية في الأندلس. مهم س **قد أوضح لنا المؤرخ الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب، الأسباب التي أدت إلى كثرة الثوار والمتمردين في الأندلس، ودوافعهم للقيام على حكومة الإمارة في قرطبة، وهي تتلخص في ثلاثة أسباب، الأول: هو منعة البلاد وحصانة المعقل وبأس أهلها بسبب تجاورهم مع النصارى في الشمال، والثاني: هو علو الهمم وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمال للطاعة، لأن من دخل الأندلس من العرب والبربر كانوا أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض، والثالث: هو الاستناد عند الضيق والاضطرار إلى ملوك النصارى الذين كانوا يحرصون على ضرب المسلمين بعضهم ببعض.

لقد أطلق المؤرخون على هذا العصر، الذي تميز باضمحلال السلطة الأموية واقتصارها على قرطبة ونواحيها فقط، اسم عصر الانتكاسة، أو دويلات الطوائف الأولى، تمييزاً له عن عصر الطوائف الذي أعقب سقوط الخلافة الأموية في قرطبة عام 422 هـ/1031 م. فظهرت في هذه الحقبة جماعات عديدة خرجت على السلطة واستقلت في النواحي التي كانت تستقر فيها، وسنذكر باختصار أهم هذه الجماعات:

ترك أ - الخارجون من العرب:

ومن أهم هؤلاء بنو حجاج، الذين استقلوا بإشبيلية وقرمونة بزعامه إبراهيم بن حجاج بن عمير اللخمي. وقد ازدهرت إشبيلية في عهده، كما نأف أمير قرطبة وقلده في عظمة بلاطه، ومظاهر الترف، واجتذاب الأديباء والشعراء، وتشجيع رجال العلم. وكان الكاتب أحمد بن عبد ربه، صاحب كتاب "العقد الفريد" من أشهر من تألق في بلاطه. وبرز بعض الزعماء العرب الآخرون في جهات عديدة من البلاد مثل محمد بن أضحي الهمداني، وسعيد بن سليمان بن جودي في كورة البيرة، وبنو المهاجر التجيبيون الذين انفردوا بحكم سرقسطة.

ب - الخارجون من البربر:

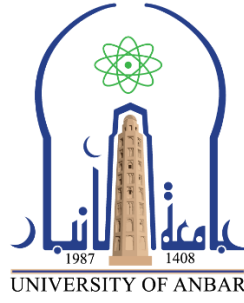
يعد بنو موسى بن ذي النون من أشهر الخارجين على الأمراء في فترة الضعف، ثاروا في شنت برية، وسيطروا على الثغر الأدنى، أي طليطلة وما جاورها. كما ثار خليل وسعيد، ابنا المهلب من بيوتات البربر الكبيرة في كورة البيرة. واستقل بنو الملاح بزعامة عمر بن مضم الهنزولي الملاحي بمدينة جيان .

ج - الخارجون من المولدين:

يعد عمر بن حفصون من أشهر الثوار الخارجين على السلطة الأموية في قرطبة. وكان هذا من أسرة فقيرة اعتنقت الإسلام منذ عهد الحكم بن هشام، عاش في بداية حياته في إقليم رندة، ثم فر إلى المغرب بعد ارتكابه لجريمة قتل، لكنه عاد إلى الأندلس واستولى على حصن روماني منيع اسمه ببشتر Bobastro في المناطق الجبلية الجنوبية في إقليم رية. وقد التفت حوله جماعة من المولدين وذلك في سنة 267 هـ / 880 م، حيث أخذ بمهاجمة الجهات المجاورة لمنطقته والتوسع في الإغارة حتى وصل إلى المناطق القريبة من قرطبة ذاتها. وقد عاصرت حركة هذا المتمرد الأمراء الثلاثة الذين حكموا في هذه الحقبة. ولم يستطع أي منهم القضاء على حركته. وفي أواخر أيامه تحول إلى المسيحية، ظناً منه أن هذا الإجراء سيكتب النجاح لتمرده. ولكن بواعث هذا التحول تبدو سياسية أكثر منها عقائدية، قصد منها تلقي الدعم من المستعربين، ومن ملوك الدويلات النصرانية الإسبانية لإسقاط دولة العرب في الأندلس. ولم تنته حركة عمر بن حفصون إلا في عهد أمير الأندلس العظيم عبد الرحمن الناصر لدين الله .

ومن المولدين الآخرين الذين كونوا دويلات مستقلة عن قرطبة، بنو قسي أو بنو موسى بن فرتون، الذين تمردوا في الثغر الأعلى في شمال شرق إسبانيا. وكذلك بنو مروان الجليقي، الذين استقلوا بولاية بطليوس في غرب إسبانيا وسعدون بن فتح السرنباقي الذي ثار بالقرب من مدينة قلنبرية Coimbra في البرتغال الحالية، وكان صديقاً لعبد الرحمن بن مروان الجليقي .

ولقد استمرت هذه الجماعات في تمرداتها وانفصالها عن السلطة الأموية، طيلة فترة الفوضى التي أشرنا إليها. ولم يستطع الأمراء أن يقوموا بإجراءات فعالة لاستعادة وحدة البلاد، والقضاء على هذه الفتن على الرغم مما بذلوه من جهد وحملات وجهوها إلى مناطق المتمردين المختلفة. وظهر بوضوح أن الحكم العربي في الأندلس بات على وشك الانتهاء، لولا أن قبض الله لهذا البلد أميراً شاباً نهض بأعباء الحكم، وقضى على كل الفتن والاضطرابات، ونقل البلاد إلى عهد جديد ومرحلة زاهرة، هي مرحلة الخلافة الأموية، ذلكم هو عبد الرحمن بن محمد، حفيد الأمير عبد الله آخر أمراء عهد الإمارة الأموية.



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

اسم المحاضرة التاسعة باللغة العربية: عصر الخلافة في الأندلس :

اسم المحاضرة التاسعة باللغة الإنكليزية : **The era of the caliphate in Andalusia**

عصر الخلافة في الأندلس :

تولية عبد الرحمن الناصر:

- جهوده في استعادة الوحدة الوطنية:

بوفاة الأمير عبد الله سنة 300 هـ/912 م تولى حفيده عبد الرحمن بن محمد . الإمارة دون أعمامه، أو أعمام أبيه الذين كانوا أحق منه بالإمارة، ولعل من جملة الأسباب التي قدمت للأمير عبد الرحمن على غيره من أمراء بني أمية سببين:

الأول: شخصيته.

والثاني: طبيعة الدولة الأموية في هذه الفترة.

فقد نشأ الأمير عبد الرحمن يتيماً في كفالة جده الأمير عبد الله محاطاً بالرعاية والاهتمام الزائدين محبباً بعناية لا حدود لها حتى بزّ أقرانه من الأمراء في العلوم والآداب وفنون الفروسية والسياسة التي تدرّب عليها نظرياً وعملياً في بلاط جده الأمير الذي بدأ ومنذ وقت مبكر يكل إليه مهام الأمور، وينبئه في الجلوس عنه في الاحتفالات والأعياد . فكان مميزاً من بين أمراء بني أمية، محاطاً بأنظار الخاصة من كبار رجال الدولة عسكريين ومدنيين، معروفاً من العامة وطبقاتها المختلفة، وكان في نظر الجميع مؤهلاً أكثر من غيره ليتولى قيادة الدولة بعد جده الأمير عبد الله، ذلك أن الأمير عبد الرحمن كان من بين كل أمراء بني أمية نمطاً فريداً من الرجال توازن بناؤه الذاتي والفكري مع درجة تعقيد الفترة التاريخية التي عاصرها فهو لم يترك شخصيته تنمو تلقائياً وإنما كان ينميها مرتبطاً بدرجة التأزم والتحديات التي كانت تمر بها الدولة العربية في الأندلس، لذا قدر له أن يعيد أمجاد الدولة العربية ويضطلع بدور يشبه إلى حد كبير دور مؤسس الدولة عبد الرحمن الداخل. فضلاً عن ذلك فإن بعض الروايات التاريخية تؤكد أن جده قد ولاه ولاية عهد من بعده .

أما الدولة في الأندلس، تعيش في تفاقم أمر التحدي الداخلي للسلطة مما أعطى للتحديات الخارجية فرصاً سانحة وسهلة لتحقيق ما كانت تبغيه من التوسع على حساب سيادة الدولة العربية، وهذه الظروف العصيبة التي عاشتها الدولة العربية في الأندلس لم تكن بغية الطامعين في الحكم، فقد كانوا تواقين بالإجماع ودون اتفاق مسبق إلى مساندة كل شخصية يتوسمون فيها الخصال التي تعيد مكانة الدولة السابقة داخلياً وخارجياً، فكان عبد الرحمن أقرب الشخصيات إلى هذه المواصفات، فتمت بيعته في نفس اليوم الذي توفي فيه جده، وكان رأس المبايعين له أمراء بني أمية الذين عبروا عن رأيهم فيه من خلال كلمة قصيرة ألقاها أحمد بن عبد الله (عم الأمير) نيابة عنهم، وبدأها بقوله: " لقد اختارك الله على علم للخاص منا العام، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ... " .

ثم بايعه كبار الموظفين في الدولة ووجوه القوم في قرطبة، وناب عنه بعض القواد والرؤساء لتلقي البيعة العامة في المسجد الجامع بقرطبة؛ وأرسلت الرسل لأخذ البيعة من الكور وولاية الأقاليم وكانت البيعة ضرورية خلال هذه الفترة من عصر الإمارة - وإن كانت طبيعية وواجبة في الظروف الطبيعية لفرز أهل الطاعة عن أهل العصيان الذين أبوا مبايعة

الأمير والانقياد إلى سلطته، وظلوا محتفظين بمدنهم وحصونهم حكماً مستقلين لا يعيرون أدنى اهتمام للعهد الجديد. وأول عمل قام به الأمير بعد اعتلائه كرسي الإمارة إعلان سياسته من خلال منشور عام وجه بالدرجة الأولى إلى العناصر المناوئة والخارجة على السلطة ويقوم المنشور في الأساس على مبدئين:

الأول: التأكيد على التسامح وإسقاط كافة الجرائم التي اقترفت بحق الدولة وإعادة كافة الحقوق المشروعة في حالة إعلان الولاء للسلطة المركزية.

الثاني: الوعيد والإنذار باجتثاث معقل المتمردين والعابثين بأمن البلاد أو المتحالفين مع القوى الأجنبية ضد الدولة .

ولقد أيقن الأمير عبد الرحمن الثالث منذ البداية أنه ورث تركة ثقيلة لذا عمد إلى إصلاح الإدارة بما يتوازن ومتطلبات المرحلة، والاهتمام بالقوات العسكرية بما يحقق لها تفوقاً على أعدائه مجتمعين، وأضاف إلى إمكانياته المتاحة إمكانيات وقوى أخرى بعد كسب العديد من زعماء المتمردين والخارجين واستخدامهم في ضرب القوى التي ظلت على عنادها واستمرت في الإغارة على ممتلكات الدولة. وقبل الشروع في تفاصيل الحوادث التي تمخض عنها قيام الوحدة الوطنية في الأندلس نشير إلى أن انفراط الوحدة الوطنية في البلاد ينحصر باختصار في الأسباب الآتية:

1 - غياب القائد في مرحلة كانت تشكل فيها عوامل الخلل عنصراً ظل يفعل فعله حتى أتى على وحدة البلاد، فاستقل أصحاب الزعامات في مناطقهم ينافسون الأمير في ألقابه. وقد اشتركت في صنع وإدامة هذا الخلل معظم عناصر المجتمع في الأندلس من عرب وبربر ومولدين ومستعربين ، ولم يتمكن الأمراء الثلاثة محمد بن عبد الرحمن الأوسط (238 هـ - 273 هـ) والمنذر بن محمد (273 هـ - 275 هـ) وعبد الله بن محمد (275 هـ - 300 هـ) من القضاء على التمردات وأعمال الشغب التي قامت ضد السلطة المركزية حتى آلت البلاد خلال هذه الفترة إلى عصر دويلات المدن، وأصبحت سلطة الأمير لا تتعدى في أكثر الأحيان العاصمة قرطبة. أما ما دون ذلك فبيد حكام المدن يقررون سياستهم حسب مصالحهم الذاتية.

2- وعورة بعض المناطق وحصانة قلاعها، وتمرس أهلها في الدفاع والاعتصام عند الحاجة.

3- الاستناد عند الحاجة إلى أمراء وملوك الممالك الشمالية الذين لم يتوانوا عن مساعدة الخارجين على السلطة الشرعية بقصد الإخلال بأمنها وتشتيت قواتها وانشغالها بمشاكل داخلية.

4- عدم الاكتراث بسلطة الدولة المركزية، وقلة الاحتمال للطاعة، لكون معظم الزعماء المحليين ينحدرون من أنساب عريقة عربية كانت أو قوطية .

5- سوء سيرة بعض الوزراء والقواد سبب آخر مضاف إلى قيام أعمال الشغب والتمرد ضد الدولة، خصوصاً إذا ما أصابت تلك السيرة أحد رجالات الأندلس من ذوي المكانة المرموقة لدى قومه .

وبدأت العمليات العسكرية حسب خطة مرسومة محدودة الأهداف ومحسوبة النتائج، قاد أولها الوزير عباس بن عبد العزيز القرشي الذي استطاع تطهير قلعة رباح في ربيع الثاني سنة 300 هـ وفي جمادى الأولى من السنة نفسها كانت قوة من قوات الأمير قد استردت مدينة استجة من أتباع ابن حفصون بعد أن هدت تحصينات المدينة التي كانت تقوم عليها أصلاً استراتيجية كل متغلب و متمرد فيها .

وكانت هاتان الحملتان وغيرهما إنذاراً فعلياً للمتمردين وإيداناً بحملات عسكرية ستصيب كل الخارجين على السلطة، ومن ثم فهما تدخلان ضمن نطاق الاستطلاع العملي الذي من خلاله أمكن تحديد مناطق نفوذ المتمردين، وقياس قوتهم والوقوف على مراكز تجمعاتهم، لذا بدأ الأمير في شعبان من سنة 300 هـ بقيادة القوات بنفسه محققاً بذلك هدفين:

الأول: رفع معنويات الجنود.

الثاني: إثارة الفزع لدى قوات أعدائه.

واختار منطقة وعرة في كورة جيان حوت المنات من الحصون والمعازل العاصية على الدولة وبدأت العمليات العسكرية بالاستيلاء على حصن مارتش، وحصن المنتلون بعد قتال شديد اضطر على أثره سعيد بن هذيل إلى الاستسلام في رمضان بعد يأس من جدوى المقاومة، وتوجهت القوات بعد ذلك إلى حصن شمنتان وزعيم المتمردين فيه عبيد الله بن أحمد بن الشالية الذي خارت قواه بعد سقوط حصن المنتلون، فاستسلم دون مقاومة ونزل عن جميع معاقله وحصونه وكان عددها يقارب المائة وفضلاً عن ذلك فقد تم تطهير العديد من الحصون التي كانت تدين بالولاء لعمر بن حفصون كحصن بكور وحصن قاشتره وحصن شنتره وحصن أقليق .

وبعد أن تم تحرير كورة جيان، اتجهت القوات الرئيسية حيث تم تطهير كورة البيرة من فلول عصابات ابن حفصون، ولم يلق الأمير صعوبات في اقتحام الحصون وإن كان حصن شبيلش قد امتنع لفترة، وكان عمر بن حفصون يمتنع فيه قبل أن يحس بعدم جدوى المقاومة فتسلل هارباً يريد قلعة أبيه ببشتر.

وأعقب سقوط حصن شبيلش سقوط مجموعة من الحصون الأخرى كحصن اشتبين قرب البيرة، وحصون وادي أش وغيرها .

وقد شعر ابن حفصون بهذا الجزر الذي أصاب نفوذه فأراد أن يحقق انتصاراً يعادل خسائره، فقرر احتلال غرناطة، ولكنه رد على أعقابه بعد أن اعترضته قوات الدولة في منطقة البيرة ومنعته من تحقيق هدفه.

وتعد هذه الحملة أولى الحملات التي قادها الأمير عبد الرحمن بنفسه وقد استغرقت ثلاثة أشهر من شهر شعبان إلى عيد الأضحى من سنة 300 هـ وتعرف في المصادر العربية باسم (غزوة المنتلون) وكان من نتائجها:

تحرير أكثر من سبعين حصناً من أهم الحصون سوى ما يلحق بهذه الحصون وما حرر بتحريرها من الأماكن والأبراج والقصبات والتي عدها ابن حيان بما يقارب الثلاثمائة .

وإذا كانت هذه العمليات العسكرية قد حالفها النجاح في تطويع الأقاليم وتمشيط الحصون المتمردة فإن حصن ابن حفصون ببشتر ظل في منأى عن السقوط، رغم الضربة التي أنزلت بزعيم المتمردين، باعتبار أن هذه الحصون كانت تدور في فلكه وتدين له بالطاعة والولاء .

بيد أن هذه الحملة لم تكن إلا بداية الصراع المرير مع هذه العناصر التي كانت تجعل من الظروف السياسية في البلاد باباً تنفذ منه تارة موائية وموادعة وتارة أخرى عاصية ومتمردة فقد اعتادت هذه العناصر على الرضوخ وقبول شروط الدولة حين تجد قوات الدولة قادرة على الردع بما يفوق قدراتها على الصمود، وكانت ترتد مع بداية كل اختلال سياسي يصيب الدولة العربية في الأندلس، لا بل كان التمرد يسود بعض المناطق حال انسحاب القوات الحكومية عن أحوازها.

وهكذا فلم تمض أشهر قلائل على الحملة الأولى حتى بدأ المتمردون سيرتهم الأولى، يعدون عدة الثأر يشاركونهم في ذلك زعماء الأقاليم والمدن من الذين وجدوا في مشاريع الأمير عبد الرحمن ما يهدد كيانهم ونفوذهم بالزوال. ففي إشبيلية قام بنو حجاج، وكانوا قد استقلوا بها بزعامة إبراهيم بن حجاج وبوفاته انتقلت الزعامة إلى ولده عبد الرحمن الذي أناب عنه أخاه محمداً في حكم قرمونة الموالية لهم، ولكن بوفاة عبد الرحمن سنة 301 هـ. نصب أهل إشبيلية أحمد بن مسلمة (من بني الحجاج أيضاً) حاكماً عليهم دون محمد بن إبراهيم الذي يعدّ هو أحق من أحمد بن مسلمة بحكم المدينة، فما كان من الأخير إلا الالتجاء إلى الأمير عبد الرحمن طالباً العون في استخلاص المدينة من قريبه المذكور، وهكذا كانت الظروف عاملاً في عودة مدينة إشبيلية في جمادى الأولى سنة 301 هـ إلى حظيرة الدولة بعد أن تم تجريد العناصر القوية فيها من سلطاتها. وكانت السيطرة على هذه المدينة من أهم المؤشرات الإيجابية التي انعكست على نظام الأمير عبد الرحمن فأعطته دعامة وقوة في المسيرة التي استهدفت إعادة توحيد البلاد. ولعل المدخل إلى تحقيق تلك الوحدة كان يتطلب القضاء على زعيم العصاة عمر بن حفصون الذي ما زال يسيطر على مناطق واسعة من البلاد تمتد ما بين " كورة رية والجزيرة الخضراء من جهة، والبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخرى " .. وأيقن عبد الرحمن أن القضاء على هذا التمرد سوى يؤدي إلى الفت في عضد كثير من المتمردين وزلزلة معنويات أنصارهم. فقد كان ابن حفصون بمثابة الروح التي تنفث في جسد العصاة الآخرين الذين كانوا يرتبطون به بشكل أو بآخر بقصد إضعاف السلطة المركزية والعبث في أراضي الدولة. لذا قاد الأمير قواته في شوال سنة 301 هـ مخترباً أكثر الأقاليم حيوية واستراتيجية بالنسبة للمتمرد ابن حفصون ملقناً قواته أقسى الضربات، وكانت المعركة الحاسمة قد دارت قرب قلعة طرش حيث تمكنت قوات الدولة من تدمير القوة الرئيسية للعصاة وأجبرتهم على الارتداد ناحية الغرب، وبذا دخلت الجزيرة الخضراء وأحوازاها تحت سيطرة الدولة المركزية، وتم تطهير كور شذونة ومورور وقرمونة من العصاة. واستمرت العمليات العسكرية وفي اتجاهات مختلفة تلاحق العصاة وفلولهم وتكيل لهم الضربات المتواصلة المركزة حتى أيقن زعماء التمرد أن الدولة عازمة لا محالة على توحيد البلاد، والقبض على مقاليد الأمور بما يجب أن يكون لها من الحرمة والاحترام، وهم عاجزون عن الرد والاحتفاظ بزعامتهم مع إدراكهم للملل الذي بات يطغى على أنصارهم الذين أيقنوا ببطلان دعوى زعماء التمرد ..

إن الخلل الذي أصاب صفوف المتمردين قيادة وقواعد جاء نتيجة من نتائج سياسة الدولة في الضرب بشدة على الخارجين ومن والاهم، والعفو والتكريم لمن عاد إلى صف السلطة المركزية وعمل ضمن قواتها لتحقيق وحدة البلاد الوطنية.

وكان ابن حفصون قد شعر قبل غيره بأبعاد هذه السياسة التي باتت تهدد مركزه بوصفه زعيماً للمتمردين على اختلاف أهدافهم فأعلن الاستسلام للدولة بعد ثلاثين سنة من التمرد والعصيان. مقابل كتاب عهد له وللحصون التي كانت تحت سيطرته وتم ذلك في 303 هـ " وانتهت الحصون التي دخلت في أمان عمر بن حفصون على ما وقع من تسميتها في كتاب العهد إلى مائة واثنين وستين حصناً " . وقد ظل ابن حفصون ملتزماً ببند هذا العهد حتى وفاته سنة 305 هـ .

أما أبناء ابن حفصون فقد كانوا يحكمون مدناً وحصوناً بتفويض من والدهم وبإقرار من الأمير عبد الرحمن لهم على تلك المناطق، فكان جعفر في قلعة ببشتر نيابة عن والده، وعبد الرحمن في حصن طرش، وسليمان في مدينة أبذة، ثم حصن أشتبين. ولم يطل العهد بجعفر فقتل سنة 308 هـ. على يد جماعة من أنصاره الذين ولوا سليمان مكانه. ولكن سليمان ما لبث أن غلبه الغرور فمارس دور أبيه في مقارعة السلطة المركزية معتمداً على حصانة مدينة ببشتر. ففضي عليه سنة 314 هـ واستسلم أخوه حفص في سنة 315 هـ، بعد أن اجتاحت قوات الدولة القلعة وما يحيط بها من مواقع حصينة، بقيت ما يقارب خمسين سنة " مثل جدار حديدي تتكسر عليه محاولات السلطة العديدة " .

ولم يتمثل خطر هذا التمرد بطول مدته فقط بل بتهديداته المستمرة لسلطة الأمراء الأمويين في الأندلس، وبطموح عمر بن حفصون لنيل إمارة الأندلس، وبتعصب المولدين والمستعمرين له مما يجعل نجاحه ليس تغييراً في شخصية الأمير فقط " بل انقلاباً كاملاً وتغييراً في جنسية الحكم ودين الحاكمين، ولعل في طريقة معاملة الأمير عبد الرحمن الثالث للعصاة في حركة ابن حفصون مما يدل على شعوره بمدى هذا الخطر، فبينما كان مصير العصاة الآخرين بعد استنزالهم من حصونهم تسجيلهم في الملاحق وإعطائهم المناصب العالية، نرى سليمان بن عمر بن حفصون يمثل به بعد مقتله في المعركة... وفي الإجراءات التي اتخذها عبد الرحمن أثر سقوط ببشتر ما يدل على نفس الشعور .

وعلى الرغم من انشغال الأمير عبد الرحمن باجتثاث شأفة أبناء عمر بن حفصون فإنه لم يغفل أمر الخارجين في أنحاء البلاد من الأندلس، فقد كانت قواته تقاتل في اتجاهات مختلفة وتلقن المتمردين دروساً اعتبروا بها زمناً طويلاً، فقد تمكنت قوة من قواته دخول حصن طرش وحصون أخرى في كورة باغه وتطهيرها من العصاة سنة 309 هـ . وتمكنت قوة أخرى من السيطرة على حصن منت روي في كورة البيرة في السنة التي تلتها . وفي الثغر الأعلى كانت قواته تقاتل بني ذي النون وتدخل أقوى حصونهم شنت برية سنة 314 هـ . وكانت قوات شرق الأندلس تجوب حصون المخالفين في كورة تدمير وتستولي عليها الواحدة تلو الأخرى، وتمكنت قوة أخرى من تطهير مدينة ماردة من أسباب الفساد والعصيان سنة 316 هـ . وفي السنة التالية دخلت مدينة شاطبة ثم مدينة طليطلة بعد حصار طويل، ثم سقطت مدينة باجة سنة 317 هـ ومدينة بطليوس سنة 318 هـ بعد قتال شديد .

وهكذا استطاع عبد الرحمن الناصر من استعادة الوحدة الوطنية إلى الأندلس ومكن السلطة المركزية من السيادة على أقاليم البلاد بعد ما استطاع بكفاءة عالية من إدامة عوامل النصر لقواته في الوقت الذي استنزف طاقة تحمل أعدائه المتمردين.

اتخاذ ألقاب الخلافة:

على الرغم من أن الدولة العربية الإسلامية في الأندلس قد استطاعت غير مرة منافسة الدول الكبرى في مجالي القوة والتقدم فإن أمراء هذه الدولة لم يفكروا في الإقدام على منافسة الدولة العباسية في ألقاب الخلافة " وقيل في تعليق ذلك أنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لأهل البيت، ويدركون قصورهم عن ذلك، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصية، وأنهم بعبارة أخرى: كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين " ..

ولا خلاف فإن الإحجام عن اتخاذ ألقاب الخلافة يرجع في الأساس إلى بواعث السياسة الحكيمة التي تميز بها أمراء الأندلس متحوظين من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية في العالم الإسلامي .

غير أن مستجدات القرن الرابع الهجري السياسية وما رافق ذلك من تغير في خارطة العالم الإسلامي فضلاً عن عوامل أخرى دفعت الأمير عبد الرحمن الثالث إلى اتخاذ ألقاب الخلافة، ويمكن ترتيب العوامل على النحو الآتي:

1- استعادة الوحدة الوطنية إلى البلاد بعد ستة عشر عاماً من النضال الصعب الذي انتهى بالقضاء على جميع المتمردين وعلى رأسهم بني حفصون . ولقب الأمير لم يعد من الألقاب التي تستوعب طموحات عبد الرحمن الثالث، خصوصاً بعد أن زالت حرمة هذا اللقب وتلقب به معظم الخارجين على السلطة المركزية منافسةً للأمير قرطبة الحاكم الفعلي والشرعي لعموم البلاد.

2- ضعف الخلافة العباسية وتحكم العناصر الأجنبية بمقدرات الخلافة بوصفها لقباً له حرمة، وبالخليفة بوصفه صاحب سلطة دينية وزمنية . ، عامل من العوامل التي أجازت للأمير الأموي اتخاذ لقب الخليفة.

3- ظهور دولة الفاطميين في المغرب العربي وسيطرتها على مناطق واسعة منه وإعلانها الخلافة، أسباب دفعت الأمير عبد الرحمن للرد على الفاطميين بالمثل بعد ثبوت أحقيته بألقابها من دولة منحلة (العباسية) وأخرى طارئة(الفاطمية)أو كما يقول ابن حيان:"وقطعه على استحقاقه لهذا الاسم الذي هو بالحقيقة له وغيره بالاستعارة".

4- إن لقب خليفة يهيئ للعاصمة قرطبة دوراً أكثر مركزية يمكنها من القبض على أطراف الدولة قاطبة، ويمكنها من قمع أي تحرك انفصالي بالسرعة القصوى .

5- وقيل أن أهل الأندلس هم الذين منحوا أميرهم لقب (خليفة) تقديراً لجهوده في توحيد البلاد، وتثبيت أركانها لإعادة مجدها وبعد أن تيقنوا من ضعف خلافة بني العباس في المشرق وبطلان دعوى الفاطميين في المغرب.

وللأسباب الآتفة الذكر أعلن الأمير عبد الرحمن الثالث الوثيقة الرسمية بوجوب

اتخاذ هذا اللقب اعتباراً من يوم الخميس ثاني ذي الحجة سنة 316هـ/929 م . وهكذا اتخذ الأمير عبد الرحمن سمة الخلافة، وتسمى بأمر المؤمنين الناصر لدين الله، وبدأت الدعوة لبني أمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى.

الأندلس بعد وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر:

عصر الحكم المستنصر بالله:

تولى الخلافة بعد وفاة الناصر، ولده الحكم الثاني الملقب المستنصر بالله (350 - 366 هـ/961 - 976 م)، وقد قارب الثامنة والأربعين من عمره، واستلم بلاداً موطدة الأركان داخلياً ومرهوبة الجانب من القوى الأجنبية، وقد اعتمد الحكم المستنصر سياسة والده في التعامل مع هذه القوى، واستخدم نفس الأسلوب في الحفاظ على مناطق نفوذ الدولة الأندلسية في المغرب وغيره.

فالعلاقة مع الدولة الفاطمية، ظلت علاقة يسودها العداء حتى بعد رحيل سلاطين الفاطميين إلى مصر، واستمرت السيادة الفاطمية والأندلسية في المغرب " قائمة على مبدأ المنافسة بين قبائل صنهاجة وزناتة وضرب بعضها ببعض وإثارة الفتن من وراء ستار، ولم تحاول كل من الدولتين إرسال جيوشها إلى هذا الميدان ... وأخيراً تمكنت صنهاجة أو بمعنى آخر الدولة الزييرية، من بسط سيطرتها باسم الفاطميين على جميع النصف الشرقي من المغرب، أما القسم الغربي من نهر ملوية إلى طنجة فقد سيطرت عليه زناتة حليفة الأمويين وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين الخلافتين المتنازعتين وحلفائهما في المغرب " .

أما دولة الأدارسة فقد جعلت قاعدتها بعد خروجهم من فاس في قلعة النسر الحصينة . ، ولم تكن دولة مستقلة بمعنى الكلمة، بل كانت تدور في فلك الأقوى من الفاطميين أو الدولة الأندلسية. وحدث في سنة 361 هـ أن انتصر بلكين بن زيري الصنهاجي قائد الفاطميين على قبائل زناتة وفرق شملهم منتقماً بذلك لمقتل والده . فسارع الأدارسة وزعيمهم يومئذ الحسن بن كنون إلى نقض بيعة الخليفة الحكم المستنصر والاعتراف بالوضع الجديد ، وأمام هذا التحول الخطير وحفاظاً على نفوذ الأمويين في المغرب، قرر الحكم إرسال قواته إلى المغرب في شوال من سنة 361 هـ، وتمكنت تلك

القوات من تشتيت جيش الحسن بن كنون الذي فر جنوباً باتجاه ثغر أصيلا ، ولكنه ما لبث أن تمكن من تجميع قلوب جيشه في السنة التالية وأعاد الكرة بهجوم مقابل عنيف مزق به قوات الأندلس وأجبرها على الإنسحاب والاعتصام بمدينة سبتة ، وعلى الرغم من محاولات الحسن بن كنون لاسترضاء الخليفة المستنصر بعد انتصاره هذا، وتبرير أسباب انقلابه على الدولة الأموية ووعوده بالولاء والطاعة، إلا أن قرار الحكم كان نهائياً باجتماع معاقل الأدارسة، فحينما كلف القائد غالب بن عبد الرحمن بقيادة القوات وأمره بالتوجه إلى المغرب خيره بين أحد الأمرين بقوله: سر سير من لا إذن له في الرجوع حياً إلا منصوراً، أو ميتاً فمعدوراً وابسط يدك في الإنفاق، فإن أردت نظمت لك الطريق بيننا قنطار مال .

وقد حقق القائد غالب بن عبد الرحمن رغبة الحكم وتمكن من قوات الحسن بن كنون في مواقع عديدة ثم حاصره في قلعة حجر النسر وأجبره على الاستسلام دون شروط سنة 363 هـ واقتاده إلى قرطبة مع جماعة من الأمراء الأدارسة . وبهذا الإجراء أعاد الحكم نفوذ الدولة الأموية في هذه المناطق من بلاد المغرب وهي مناطق ذات أهمية كبيرة لأمن الأندلس.

وتعرضت الأندلس في عهد الحكم المستنصر إلى هجمات السفن النورماندية وشهدت السواحل الغربية عدة صدامات بين الطرفين ففي شهر رجب سنة 355 هـ " ورد كتاب من قصر أبي دانس على المستنصر بالله يذكر فيه ظهور أسطول المجوس (النورمانديين) ببحر المغرب بالقرب من هذا المكان واضطراب أهل ذلك الساحل لذلك، لتقدم عادتهم بطروق الأندلس من قبله فيما سلف، وكانوا في ثمانية وعشرين مركباً ، ثم ترادفت الكتب من تلك السواحل بأخبارهم وأنهم قد أضروا بها، ووصلوا إلى بسط أشبونة، فخرج إليهم المسلمون، ودارت بينهم حرب استشهد فيها من المسلمين وقتل فيها من الكافرين وخرج أسطول إشبيلية فاقترحوا عليهم بوادي شلق، وحطموا عدة من مراكبهم واستنقذوا من كان فيها من المسلمين، وقتلوا جملة من المشركين وانهزموا أثر ذلك خاسرين " . ولم تزل الأخبار تتوارد إلى قرطبة عن نشاط هؤلاء الغزاة حتى تم قتل معظمهم وأسر أعداد أخرى منهم، فيما ولت بقيتهم من الأحياء منهزمة إلى قواعدها . (غير داخل) وعاود النورمانديون الكرة في سنة 360 هـ . وعلى المنطقة نفسها ولكنهم ردوا دون تحقيق أي هدف من أهدافهم بفضل يقظة واستعداد الأسطول الأندلسي للإقلاع مع أول إشارة بظهور السفن الغازية .

أما سياسة الخليفة الحكم اتجاه الممالك الإسبانية الشمالية، فهي سياسة قامت على احترام جميع الاتفاقات والمعاهدات المبرمة بين الدولة العربية في الأندلس وأمراء وملوك الدول الإسبانية الشمالية، ولكن مثل هذه الاتفاقات لم يكن لها ذلك المفعول التنفيذي فسرعان ما تسقط جميع الاتفاقات وتفرغ من مضامينها عند أول فرصة تسنح لهذه الممالك لغزو أراضي الدولة العربية أو الإخلال بأمنها. فمن المعروف أن الخليفة الناصر أعان سانشو (شانجة) على استرداد ملكه في مملكة ليون شريطة أن يتنازل الأخير عن بعض الحصون المهمة الواقعة على الحدود بين الدولتين، وعندما توفي الناصر نقض سانشو الاتفاق ورفض تسليم الحصون المتفق عليها، وبدأ سلسلة من الأعمال العدائية، جعلت الدولة العربية أكثر تصميماً على انتزاع حقها فأوت الملك المخلوع اردونيو الرابع والمنافس الشديد على عرش ليون ووعده باستعادة ملكه ، وعلى أثر ذلك تراجع سانشو عن موقفه وسارع إلى إرسال سفارة إلى قرطبة لإعلام الخليفة الحكم باستعداده لتنفيذ الاتفاقات المعقودة مع الناصر، ولكن وفاة اردونيو الرابع قلبت سانشو وعاد إلى سياسة التسوية والمماطلة في تسليم الحصون. ولم يكتف بذلك فتحالف مع بعض الأمراء الشماليين ، لشن هجوم على الأراضي العربية، وكان رد الحكم قاسياً واستهدف أول ما استهدف قشتالة فعاث في أراضيها واحتل حصن غرماج على نهر دويرة سنة 352 هـ وتوالت الحملات بعد ذلك ترد تعديت هذه الممالك وتتوغل في أراضيها وتضيف إلى انتصاراتها حصوناً جديدة، فقد تمكنت قوات القائد غالب بن عبد الرحمن من احتلال حصن قلهرة من بلاد البشكنس، وتطهير بعض المناطق من جند الأعداء وهكذا كان للتفوق الحربي لجيش الدولة العربية في الأندلس أثره البارز في إعادة وتثبيت السيادة على جميع مناطق الحدود وثورها وأمنت الأندلس مدة من شر هجمات جيوش ممالك الشمال، التي دخلت في صراع عنيف

بعد وفاة سانشو سنة 355 هـ/966 م وارتقاء ولده الذي لا يتجاوز خمس سنوات عرش ليون فتولت عمته البيرة مقاليد الأمور نيابة عنه، واستغل النبلاء الطامعون هذه الظروف واستقل كل منهم بما تحت يديه، وتوافدت رسل الوصية على العرش البيرة وهؤلاء النبلاء إلى قرطبة يحكمون الخليفة الحكم فيما شجر بينهم ويسألونه المشورة والرأي .

وكان أول الوافدين على العاصمة قرطبة من أمراء الممالك الإسبانية الشمالية أمير جليقية، وأمير اشتوريش ثم وفدت سفارة سانشو وملك نافارا، وفي سنة 360 هـ وفد سفراء أمير برشلونة الكونت بوريل ثم أوفدت البيرة الوصية على عرش ملك ليون تطلب عقد معاهدة عدم اعتداء بين الطرفين. ووصلت سفارات أخرى من أمير قشتالة وكونت شلمنقة، وفي سنة 362 هـ جدد ملك نافار والبيرة وصية ملك ليون بعوثهما إلى قرطبة تعزيزاً لاتفاقاتهما السابقة.

لقد عاشت الأندلس في عهد الحكم المستنصر عصراً ذهبياً تميز بعدة مظاهر أبرزها ازدهار العلوم والأدب فقد كان الحكم " عالماً فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جماعاً للكتب، مميّزاً للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مصر وأوان ... " .

شارك العلماء في علومهم وألف مؤلفات بعضها في الأنساب . وأخرى في التاريخ وله تعليقات عديدة على كثير من المؤلفات التي قرأها أو سمعها حتى عده ابن الخطيب " حجة وقوة، وأصلاً يوقف عنده " ، وكان قد بث التجار في أقطار المشرق والمغرب يقتنصون له كل جديد في العلم .، ويبعث إلى العلماء المشهورين للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم، وقد ضمت المكتبة الأموية المشهورة الآلاف من المؤلفات في العلوم المختلفة والعقلية منها والفعلية وروى ابن حزم: " أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط " .

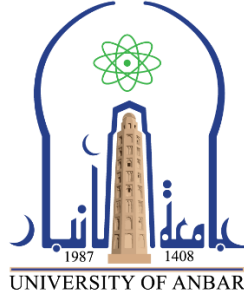
وعهد بإدارة هذه المكتبة إلى أخيه عبد العزيز، في حين كان أخوه المنذر مشرفاً على دور التعليم في قرطبة، واحتفى الحكم بمجموعة من مشاهير علماء العصر الأندلسيين والمشاركة زينوا بلاطه وملأوه علماً وأدباً منهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي المتوفى سنة 355 هـ والعالم العراقي المشهور أبو علي القالي صاحب كتاب الأمالي ، المتوفى سنة 356 هـ وربيع بن زيد (رثموندو) أحد المستعربين المقربين من الحكم لمعرفته بعلم الفلك والعلوم الفلسفية، وهي من العلوم التي عني بها الخليفة وسعى إلى جمع مؤلفاتها وتحول بلاط الخليفة إلى أكاديمية عظيمة تزخر بثتى أنواع المعارف . وإلى جانب هذا كان التعليم العام في عهده يجوز نهضة متميزة، فقد أسس عدداً من دور التعليم خصصت لأبناء الفقراء مجاناً، وعني عناية خاصة بجامعة قرطبة ورفدها بمشاهير العلماء المتخصصين وأجرى لهم الرواتب والأعطيات الجزيلة، ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه للنزعة العلمية التي امتاز بها عصر الخليفة الحكم المستنصر فالمؤرخ الإسباني لافونتي يقول: " كانت دولة الحكم الثاني دولة الآداب والحضارة "، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء، وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر فهل نغضي نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموي المستنير من الصفات الباهرة ... إن السلم الذي وطده اكتافايوس في إسبانيا الرومانية، قد وطده الحكم في إسبانيا العربية، وقد قدم الحكم كما قدم اكتافايوس من قبل، الأدلة على أن الرغبة في السلم، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر، ولكن لأنه يؤثر إلهام القريض، ويؤثر الكتب على فرائض السلاح وإكليل الجامعات الحقيقي على إكليل الحروب الدموية ... " .

ومن مظاهر هذا العصر أيضاً تبادل السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية وقد سبقت الإشارة إلى سفارات الممالك الإسبانية الشمالية التي وصلت قرطبة. وبقي أن نشير إلى سفارات الدول الأخرى التي ارتبطت بالأندلس بوثائق الصداقة منذ عهد والده عبد الرحمن الناصر، ففي سنة 361 هـ/972 م وصلت سفارة إمبراطور القسطنطينية يحملها

سفير له يدعى قسطنطين الملقب. وفي سنة 363 م وصلت سفارة إمبراطور ألمانيا أوتو الثاني الذي خلف والده في الحكم، فيها يجدد علائق الصداقة بين الدولتين .

مات الحكم المستنصر سنة 366 هـ/976 م. وولي مكانه ولده هشام المؤيد بعهد منه وكان عمره إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر ، على الرغم من وجود إخوته المؤهلين لمثل هذا المنصب، وتولية هشام الطفل يعد سقطة كبيرة أقرتها الحكم بحق ولده المذكور والدولة معاً، فقد فرضت وصاية ابن أبي عامر الإجبارية على الخليفة الطفل ولم يعد من سلطات الخلافة غير الاسم وانتقل حكم الدولة في الأصل من الأسرة الأموية إلى أسرة أخرى هي الأسرة العامرية، التي انتهت بمقتل عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب (شنجول) وأطاحت بآخر العامريين وفتحت أبواب الفتنة على مصراعيها حتى تم أفول نجم بني أمية نهائياً عن الأندلس في سنة 422 هـ وإعلان أهل قرطبة إلغاء الخلافة والحكم الأموي في الوقت الذي أعلنت فيه معظم مدن الأندلس الكبيرة عن قيام دويلات تحمل أسماء زعمائها أو حكامها.

ومن هنا يمكن القول أن حكم بني أمية للأندلس ينتهي بوفاة الحكم المستنصر 366 هـ لبدأ عصر جديد هو عصر الدولة العامرية التي اتخذت شرعيتها من حماية الخليفة هشام المؤيد والحكم باسمه كما سيتوضح من خلال الفصول الآتية.



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

- اسم المحاضرة العاشرة باللغة العربية: سيطرة الحاجب محمد بن أبي عامر على السلطة:

- اسم المحاضرة العاشرة باللغة الإنكليزية: **Hajib Muhammad ibn Abi Amer's control of power:**

حرصت الشخصيات البارزة في الدولة جعفر بن عثمان المصحفي كبير الوزراء ومحمد بن أبي عامر ناظر الخاص وغالب بن عبد الرحمن قائد قوات الجبهة الشمالية على تنفيذ وصية الخليفة الحكم المستنصر القاضية بتنصيب هشام المؤيد خليفة على الأندلس، وقد حرص هذا المجلس على تنفيذ الوصية كما هي ليس من باب الإخلاص للخليفة الراحل، وإنما وجدوا في ذلك ضماناً أكيداً لمراكزهم السلطوية في الدولة، في حين نجد اتجاهاً آخر يتزعمه كبار رجال الصقالبة كفائق وجوذر يميلون إلى تحية هشام المؤيد وتولية أحد أمراء البيت الأموي مكانه، ووقع اختيارهم على شخصية جديدة بهذا المنصب معروفة بقدراتها الفذة هو الأمير المغيرة بن عبد الرحمن الناصر أخي الحكم المستنصر. ومن باب المحافظة على وحدة البلاد وعدم تفريق الكلمة، خصوصاً وأن الصقالبة يمتلكون قوة كبيرة في القصر الخلافي قد تستخدم في الانقلاب على الخليفة الجديد، فقد اتخذ مجلس الوصاية إجراءً وقائياً سريعاً تم خلاله قتل المغيرة بن عبد الرحمن، وتفريق أنصاره، ولم يجد الصقالبة بداً من الطاعة والتظاهر بالرضا، وهم في الحقيقة يعدون لمؤامرة تعيد هيبتهم في البلاد ومع كشف أول خيوط هذه المؤامرة بدأ المصحفي يتحوط من غدرهم، فوضع زعمانهم تحت المراقبة الشديدة وسرح أعداداً كبيرة من الخدمة وأحقهم بخدمة محمد بن أبي عامر، وأمر الباقين بالدخول والخروج من القصر من باب عامة الناس، بعد أن أغلق الباب المخصص لدخول الصقالبة وخروجهم. وتمت تصفية بعض العناصر الخطرة، ونفي آخرون إلى مناطق خارج العاصمة قرطبة.

وبهذه الإجراءات أمن المصحفي وابن أبي عامر شر هذه القوة التي كانت ولسنوات عديدة صاحبة الكلمة النافذة والنفوذ الواسع في الدولة، وقد قوبل هذا العمل بارتياح من قبل المؤرخين الأندلسيين. الذين وجدوا في نكبة الصقالبة مدخلاً لسرد مطالبهم وسيناتهم التي أصبحت مدار حديث الجميع.

والقضاء على الصقالبة كان أول خطوة من خطوات ابن أبي عامر باتجاه السيطرة على السلطة فهو الذي أغرى المصحفي بنكبتهم ومن ثم ألحقهم بحاشيته وبالغ في إكرامهم واستمال إليه أيضاً بني برزال وكانوا ضمن بطانة المصحفي، ولم يكن المصحفي ليعي أبعاد هذه السياسة التي جردته من أنصاره وحماته، ويبدو أنه عد هذا العمل حسنة من ابن أبي عامر، بعد أن ثقلت مطالب هذه الفرق المالية، مع شهرة المصحفي بالبخل والتقتير على أنصاره، وبسط ابن أبي عامر كرمه على أنصاره الذين أصبحوا أداة مخلصه لتحقيق كل أهدافه، وحاول بعد ذلك السيطرة على القوى العسكرية، والتحالف مع القوى الأخرى التي لا يستطيع بسط نفوذه عليها، فقاد خلال فترة وجيزة ثلاث حملات باتجاه الممالك الإسبانية الشمالية، أولها كانت سنة 366 هـ عندما قام القشتاليون بهجوم شديد على قلعة رباح، مما اضطر أهلها إلى طلب النجدة من حكومة قرطبة التي بدت وكأنها عاجزة عن مناصرتهم، واكتفى المصحفي بالعمل على نسف القنطرة المبنية على نهر آنة لمنع تعرض القشتاليين لهذه القلعة، وهنا برز دور ابن أبي عامر في الدعوة لتجميع القوات وإعدادها لمهاجمة قشتالة وتولى هو قيادة هذه الحملة التي دخلت أراضي جليقية، ونازل حصن الحامة فدمره وعاث في أطرافه وعاد إلى قرطبة، وقد أضاف إلى رصيده في نجاحه العسكري هذا صفة القائد العسكري الناجح إضافة إلى الصفات السياسية والإدارية التي تميز بها.

ولم يكتفِ ابن أبي عامر بهذه الحملة بل أعاد الكرة ثانية بالإشتراك مع قوات غالب بن عبد الرحمن قائد الجبهة الشمالية، فخرجا من مجريط وتوغلا بقواتهما في أراضي مملكة قشتالة، وسيطرا على حصن مولة، وأصابا كثيراً من الغنائم والسبي، ثم عادت القوات إلى قواعدها الأصلية، وقد استطاع ابن أبي عامر من كسب القائد غالب بن عبد الرحمن إلى جانبه. بعد أن عانى الأخير كثيراً من لوم المصحفيواتهامه بالتخاذل عند هجوم القشتاليين على قلعة رباح

، وفي الوقت الذي فقد المصحفي فيه رجلاً كان على الحياد أصبح هذا الرجل حليفاً ونصيراً قوياً يشد عضد ابن أبي عامر في صراعه الخفي مع المصحفي خصوصاً وأن القائد غالب بن عبد الرحمن قد أصبح يحمل لقب ذي الوزارتين، وقد بدأت نتائج هذا التحالف ونتائج الانتصارات في الجبهة الشمالية تظهر سريعاً، وذلك عندما أمر الخليفة هشام (وبتحريض من ابن أبي عامر) بعزل محمد بن جعفر المصحفي عن حكم قرطبة، وتوليبتها أحد أقرباء ابن أبي عامر.

وقد شعر المصحفي بالمصير الذي ينتظره فحاول كسب قائد الجبهة الشمالية غالب وذلك عن طريق المصاهرة، إذ تقدم بطلب إبنة غالب لولده محمد ورغم موافقة غالب على طلبه ووعده له بتنفيذ ذلك، إلا أنه تراجع عندما حاول ابن أبي عامر منع هذه المصاهرة واختصر الطريق وتقدم هو لطلب ابنة غالب زوجة له. وبهذا فشلت آخر محاولة للمصحفي للوقوف في وجه ابن أبي عامر.

وذاغت شهرة ابن أبي عامر عندما جهز القوات للجهاد في غزوته الثالثة سنة 367 هـ بالاشتراك مع صهره غالب بن عبد الرحمن فافتحمت قواتهما المشتركة حصن المال وحصن زنيق، ونازلت مدينة شلمنقة واحتلت معظم المناطق المحيطة بها ثم عادت القوات إلى قرطبة ليبارد الخليفة بتكريم ابن أبي عامر، وتلقيه بذي الوزارتين ورفع مرتبته إلى مرتبة صاحب الحجابة التي تولاها مع المصحفي خلال هذه الفترة غالب بن عبد الرحمن ثم عزل المصحفي بعد ذلك، وتم القبض عليه وعلى ولده محمد وابن أخيه هشام وبعض أقربائه وصرفوا جميعاً عما كان بأيديهم من الأعمال، واستصفيت أموالهم وألقي جعفر في سجن المطبق حتى وفاته سنة 372 هـ/983 م .. وبالقضاء على المصحفي أصبح محمد بن أبي عامر الرجل الأول في الدولة ما دام الخليفة هشام المؤيد قاصراً عن أداء واجباته الفعلية، وقد وصل ابن أبي عامر إلى هذه المكانة عن طريق التحالف مع قوى، ساندته أكثرها، واصطف إلى جانبه نكايه بالحاجب المصحفي لاستنثاره بالسلطات لا إيماناً بأفضليته عليه، وكان ابن أبي عامر يعي ذلك جيداً، ويعلم أن هؤلاء سيعملون ضده إذا ما اقتضى الأمر ذلك في يوم من الأيام. لذا نراه يتخذ إجراءات متعاقبة متتالية يحصن فيها نفسه ضد مؤامرات أعدائه، ثم يخلق قوى جديدة لنفسه بدلاً من القوى التي خلقها الحكم المستنصر وتحالف هو معها، وعرف زعمائها باسم الصنائع الحكميين، وكلما ازدادت الدعائم التي يعتمد عليها وازداد عدد الصنائع العامريين كلما زاد من استبداده، حتى أصبح السلطان المطلق للأندلس. ولم يبق أمامه من منافس غير غالب بن عبد الرحمن والد زوجته والذي كان يتمتع بسمعة رفيعة في ميدان القيادة العسكرية وعلى مستوى عموم الأندلس، وكان المناوؤون لسياسة ابن أبي عامر يجدون في غالب الرجل المناسب للمقاومة والانتفاض، لهذا عمد ابن أبي عامر إلى منافسة مكانة سلطان غالب برجل لا يقل عنه شجاعة وفروسية فلم يجد لذلك خيراً من جعفر بن علي بن حمدون مالمعروف بابن الأندلسي شدة بأس، ورباطة جأش وجلالة قدر، فاستدعاه وقواته من المغرب ومنحه لقب وزير وجعله من خاصته وأمره على جيش الحضرة، مما أثار القائد غالب بن عبد الرحمن بعد أن فطن إلى ما يدبره العامري وما يهدف إليه، إضافة إلى وشاية (صبح) والدة الخليفة هشام المؤيد بابن أبي عامر ومحاولاتها لإيغار قلب غالب بن عبد الرحمن عليه، ولم يطل الأمر بين الاثنين فقد عزم على استيضاح الأمور ودعا صهره ابن أبي عامر لحضور وليمة أقامها على شرفه في مدينة انتسة، وانفرد الاثنان ودار بينهما حوار انتهى بأن سل غالب سيفه لقتل محمد بن أبي عامر الذي تمكن من الخلاص بأعجوبة واللاحق بالعاصمة قرطبة، حيث أعد قوة خاصة توجهت أولاً إلى مدينة سالم مقر غالب بن عبد الرحمن فتتمت السيطرة عليها، وهنا تشير بعض المصادر إلى مخالفة غالب لبعض أمراء الإشبان الشماليين وسيره بقواته للقاء قوات ابن أبي عامر في محرم سنة 371 هـ أمام حصن شنت بجنت على مقربة من انتسة وكادت الدائرة تدور على جيش العامري لولا نهاية غالب بن عبد الرحمن بالسكتة القلبية وسقوطه في ميدان المعركة، فاختل بعدها توازن جيشه وانفلتت تبعثته وولت فصائله منهزمة في اتجاهات مختلفة .

ويعتقد غالب بن عبد الرحمن لم يعد للعامري من يخشاه في البلاد، فاتخذ لقباً خلافاً هو المنصور، ودعي له على المنابر به استيفاء لرسوم الملوك ، واستمر على تعبئة العناصر المخلصة له في الجيش من ممالك صقلية وبربر وحرص على بقاء هذه العناصر مرتبطاً به شخصياً مع إغداقه عليهم الأموال والرواتب المجزية. ودبر حيلة اغتال بها جعفر بن علي بن حمدون قائد جيش الحضرة سنة 372 هـ وإعدام قاتله لكي لا ينكشف الأمر ، وهكذا تخلص ابن أبي عامر من آخر الرجال الذين أخلصوا له وقدموا له خلال صراعه مع غالب بن عبد الرحمن خدمات جليلة بعد أن وجد دور جعفر بن علي قد انتهى بموت غالب وبقاؤه حياً أمر لا مبرر له. فهو لم يعد يحتل في دولته رجالاً من طراز جعفر بن علي قد يسببون له في المستقبل نوعاً من الإزعاج.

وهكذا تخلص ابن أبي عامر من جميع منافسيه وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وفي ذلك يقول ابن الخطيب السلطاني: كان ابن أبي عامر آية في الدهاء والمكر والسياسة عدا بالمصحفي على الصقالبة حتى قتلهم، ثم عدا بغالب على المصحفي حتى قتله، ثم عدا بجعفر بن علي بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه ثم انفرد ينادي صروف الدهر: هل من مبارز، فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره .

**سياسة المنصور ابن أبي عامر:

أ - السياسة الخارجية:

1 - الجهاد ضد الممالك الإسبانية الشمالية:

امتازت السياسة التي اعتمدها المنصور ابن أبي عامر تجاه الممالك الإسبانية

الشمالية بطابع جهادي متميز، فقد بلغت الحملات التي سيرت إلى هذه الممالك أكثر من خمسين حملة ، ومعنى هذا أن المنصور كان يقوم بحملتين كل عام حملة في الصيف وأخرى في الشتاء وأن جميع هذه الحملات كانت تحت قيادته المباشرة ، وحقق فيها انتصارات باهرة لم يخسر معركة واحدة من معاركها ، " وكان الطابع العام لسياسته الجهادية هجومياً، بانتزاعه المبادرة من أعدائه الذين أرغموا على تغيير استراتيجيتهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع " . وظلت قواتهم قابضة ضمن حدودها الإقليمية بعد أن شلت حركتها باتجاه التوغل أو حتى التقرب من الحدود الدولية للدولة العربية. ذلك أن المنصور ابن أبي عامر طرق في عملياته العسكرية هذه أراضٍ لم تطرقها الجيوش العربية من قبل ولا حاولت الوصول إليها، وكانت أهدافه من ذلك إعلام حكام تلك الممالك بأن القوات العربية قادرة على أن تصل وتضرب أية نقطة من أراضيهم حينما ترى أن الضرورة تتطلب ذلك، وقد اعتمد المنصور ابن أبي عامر على قوات أعدت إعداداً جيداً كانت ثمرة النظام الذي أقره على بنية القوات العسكرية فقد كانت الفرق العسكرية قبله تنضوي تحت لواء زعيم من زعماء القبائل وتضم تلك الفرقة أبناء وموالي كل قبيلة، وكانوا يتجمعون بناء على نداء من الدولة للنصرة والتطوع في صفوف القوات العازمة على الحرب، ومنذ عصر الناصر خصوصاً بعد واقعة الخندق سنة 327 هـ - لم تعد للعصبية القبلية أو لزعمائها مكانة وسط تنظيمات الجيش فأكمل ابن أبي عامر هدف الناصر بأن وزع الجند في مجموعات ضمن سرايا وفرق بغض النظر عن عصبية كل جندي وأمر عليهم قائداً يختاره من بين القادة، وجعل قواته من ناحية التنظيم أشبه بالقوات النظامية في العصر الحديث، مع تقرير رواتب شهرية لكل منتظم في هذه القوات وحسب موقعه ومكانته. وهذا النظام سهل أمر تجميع القوات في وقت سريع، وأصبح الجند أكثر التزاماً وانضباطاً من ذي قبل، ولعل نتائج هذا التنظيم تبدو جليلة من خلال حملات ابن أبي عامر على الممالك الشمالية وغيرها والتي تجاوزت كما ذكرنا الخمسين حملة، أشهرها تلك التي قادها سنة 371 هـ لمهاجمة مملكة ليون قاصداً مدينة سمورة إلى الشمال من شنت ماتكش والغرض تأديب ملك ليون راميرو الثالث لدخله في شؤون

الأندلس الداخلية وإمداده للقائد غالب بن عبد الرحمن بعدد من الجند الذين قاتلوا في صفه، وقد تمكنت القوات الأندلسية من تدمير جميع القرى المحيطة بالمدينة وسحقت كل مقاومة صادفتها، ولم يتمكن راميرو الثالث من أي عمل مضاد وحده فتحالف مع كونت قشتالة وملك نافار، ولكن هذا الحلف انتهى بالإنيهار عند أول لقاء للقوات المتحاربة في مكان قريب من شنت مانكش استسلمت بعده المدينة المذكورة واستمر زحف القوات الأندلسية باتجاه عاصمة مملكة ليون ولكن حلول الشتاء وسقوط الثلوج حالاً دون إتمام بقية العمليات العسكرية وعلى الرغم من ذلك فقد كان لهذا الانتصار المحدود نتائج سلبية أصابت دولة ليون في الصميم فقد خلع راميرو الثالث ونصب مكانه ابن عمه برمودة الذي اضطر إلى دفع الجزية للمنصور ابن أبي عامر.

وخرج من الصراع ملك بنبلونة شانجة فخضع للدولة العربية وقدم ابنته هدية لابن أبي عامر، فعقد عليها وتزوجها.

أما الغزوة الثالثة والعشرون في سنة 374 هـ فقد كان هدفها ثغر برشلونة قاعدة إمارة قطلونية حيث تم اجتياح الإقليم ومهاجمة مدينة برشلونة ودخولها بعد تدمير قوات الكونت بريل تدميراً نهائياً إلا من تمكن من الفرار.

وفي سنة 376 هـ عاود المنصور الهجوم على مملكة ليون لإخلالها في بعض الشروط المفروضة عليها واستهدف الهجوم مدناً عديدة منها العاصمة ليون ومدينة قلمرية التي تم احتلالها وتخريبها.

وفي سنة 378 هـ احتل سمورة وليون، وأنهى كيان هذه المملكة ثم استعاد ملكها مركزه بعد سنتين وبعد أن وادع المنصور ووافق على تنفيذ جميع الشروط المفروضة على مملكته.

أما الغزوة الثامنة والأربعون في سنة 387 هـ فهي حملة جليقية وكانت حملة ذات هدفين مهمين:

الهدف الأول: أن جليقية كانت تشكل خط الدفاع لقوات ليون المنهزمة.

والثاني: أن جليقية كانت تضم مدينة من أشهر المدن الإسبانية وأعلىها مكانة من الناحية الدينية، تلك هي مدينة شنت ياقب.

وقد استعد المنصور لهذه الحملة استعداداً عالياً فقسم قواته إلى قسمين قوة الفرسان تحت قيادته، والقسم الآخر، ضم المشاة وما يلحق بهم حمل بحراً، وانتقلت القوات عند نهر دويرة وبدأت القوات الأندلسية زحفها في أراضي جليقية مطهرة مناطق ومدناً عديدة في الطريق إلى الهدف شنت ياقب التي أشرفت عليها فألفتها خالية من القوات والسكان، فدخلتها وغنمت ما تهيأ من غنائم المدينة وهدت جميع تحصيناتها ومبانيها باستثناء ضريح (القديس يعقوب) الذي تنسب إليه المدينة فقد أمر المنصور بإعمارها ورعايته وفي طريق العودة استسلمت له عدة مدن مشهورة منها مدينة كرونيا ومدينة لاميجو.

وأمام هذه الانتكاسات التي أصابت الممالك الإسبانية الشمالية في الصميم، حاول حاكم قشتالة سانشو غرسية في سنة 390 هـ معالجة حالة الترددي هذه بتشكيل جبهة قتالية بزعامته ومساعدة أمراء البشكنس وملك ليون وتعاقدوا على المقاومة والثبات، وقاموا بأول عمل مضاد فسيروا قواتهم إلى وادي نهر دويرة الأدنى للتمكن من التحصن في الجبال، فسارع ابن أبي عامر على لقاء قوى التحالف واتجه إلى أراضي قشتالة ومنها نفذ إلى المنطقة التي تحصنت بها قوات المتحالفين، وهنا رأى سانشو أن خطة الهجوم المفاجئ قبل أن يثبت المنصور أقدامه على الأرض، تحقق له ولقواته وضعاً عسكرياً يحقق إنزال أفدح الخسائر بالجيش المقابل وفعلاً نجحت خطته، وكاد الأمر ينتهي لصالح القوات المتحالفة، لولا رد قوات المنصور بهجوم مقابل شديد شنت شمل فرق المتحالفين وأجبرهم على

الارتداد والهزيمة، واستمر المنصور في تقدمه حتى وصل مدينة برغش عاصمة قشتالة واستباحها. وظلت قواته تكيل الضربات وفي اتجاهات مختلفة حتى طرقت بنبلونة عاصمة مملكة نافار، ولم تتمكن قوات هذه الممالك من صد الهجمات القاسية والمتلاحقة لقوات المنصور فأذعنت لأوامره وشروطه.

2 - سياسة المنصور ابن أبي عامر تجاه المغرب:

كانت سياسة الأندلس تجاه بلاد المغرب مركزية لا تتغير بتغيير الحكام وهي تقوم أساساً على اعتبار السواحل المقابلة للأندلس بمثابة حزام أمان للأندلس، يجب الحفاظ على تبعيتها وولائها لحكومة قرطبة مهما كانت الأسباب، واعتبار مضيق جبل طارق جزءاً لا يتجزأ من الأندلس.

وقد مر سابقاً وصف أحوال المغرب العربي في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله وكيف تمكنت قوات الأندلس البحرية من كسر شوكة الحسن بن كنون زعيم الأدارسة سنة 363 هـ، وإجباره على السكن في العاصمة قرطبة، قبل أن يسمح له الحكم بعد ما يقرب من سنتين بمغادرة الأندلس إلى مصر، بعد أن أخذت منه الموائيق والعهود بعدم القيام بأي عمل مضاد من شأنه أن يسبب قلقاً لحكومة قرطبة في المغرب.

وفي عهد الحكم أيضاً تم توسيع دائرة نفوذ الأندلس في المغرب، مما بات يهدد نفوذ الفاطميين ويؤذن بإزالتها نهائياً، لذا عاود الفاطميون في سنة 368 هـ سياستهم القائمة على رد الاعتبار واستعادة المناطق التي خسروها سابقاً، فأوعزوا إلى نائبهم بلكين بن زيري الصنهاجي للقيام بسلسلة من العمليات العسكرية لاستخلاص المدن المهمة والمناطق الحيوية لنفوذهم، وفعلاً تم الاستيلاء على مدينة فاس سنة 369 هـ، والانتصار على قبائل زناتة في سلسلة من المواقع، أجاتهم أخيراً إلى المناطق الساحلية: سبتة وطنجة ومليلة التي ظلت في أيدي الأندلسيين، وأمام هذا المد الذي وسع دائرة نفوذ خلفاء الدولة الفاطمية، والجزر الذي أصاب حلفاء حكومة قرطبة، قرر المنصور ابن أبي عامر العمل بسرعة على استعادة ما فقده في هذه البلاد، فأرسل إلى ميدان المعركة القائد المشهور جعفر بن علي المعروف بالأندلسي واستمرت الإمدادات بالقوات والسلاح متواصلة لإدامة عوامل الصمود، حتى أجبرت بلكين بن زيري لتعديل خطته والارتداد عن المناطق الساحلية المذكورة، فسار باتجاه مدينة البصرة التي تعرضت للدمار، وهاجم قبائل برغواطة وقتل زعيمها وسبى أعداداً كبيرة منهم، ثم دخل سجلماسة واغتيال زعيمها خزرون بن فلفل، ثم قفل راجعاً إلى المغرب الأدنى بعد أن مكن نفوذ الفاطميين في المناطق التي تم تطهيرها.

وتعد هذه الحملة آخر الحملات الكبيرة التي قام بها الفاطميون لبيسط نفوذهم على المغرب العربي وهي على الرغم من سعة الأراضي التي اكتسحتها ومدى الخراب الذي أحدثته لم تكن ذات أثر فعال في إعادة النفوذ الفاطمي إلى المغرب الأقصى، فقد عاد نفوذ قرطبة إلى ما كان عليه إثر عودة الحملة، وكان الزناتيون أداة هذا النفوذ، فقد عادوا للانسحاب في أرجاء المغرب الأقصى والسيطرة على قواعده، وعندما حاول نائب الخليفة الفاطمي الجديد، وهو المنصور بن بلكين بن زيري، استعادة ما فقده ... هزمه الزناتيون تحت قيادة زعيم زناتي جديد بدأ نجمه بالصعود وهو زيري بن عطية حفيد عبد الله بن خزر، الذي كان بدوره أخاً لمحمد بن خزر الزعيم المغراوي الذي انضوى تحت لواء الأمويين في أيام الناصر لدين الله، وأقنع المنصور بن بلكين بعد ذلك عن مهاجمة المغرب الأقصى، غير أن الفاطميين أرسلوا إلى المغرب الأقصى الحسن بن كنون ولم يكن إرساله بديلاً عن القوات العسكرية ووسيلة لاستعادة نفوذهم بقدر ما كانت عملية لتعكير الأمن على حكومة قرطبة في هذه المناطق. فقد وصل الحسن بن كنون إلى المغرب الأقصى في سنة 373 هـ معزراً ببعض القوات الفاطمية، والتفت حوله مجاميع أخرى من قوات البربر لاسيما بنو يفرن الزناتيين، ولكن قوات المنصور ابن أبي عامر تمكنت من إجهاض هجومه ومحاصرته ثم إجباره على الاستسلام واقتيد إلى قرطبة، ولكنه اغتيل بالطريق إليها بتدبير من ابن أبي عامر في سنة 375 هـ/985 م.

وقد تولى أمر المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي، وأصبح زيري بن عطية المغراوي بمثابة المستشار في أموره، وعند وفاة الحسن سنة 381 هـ انتقلت ولاية المغرب إلى زيري بن عطية الذي عرفت عنه سياسته في ضبط الأمور والسيطرة على البلاد سيطرة تامة، خصوصاً بعد انتصاره على بني يفرن وقتل زعيمهم يدو بن يعلي سنة 383 هـ، وعلى الرغم من أن المنصور كافأ زيري بن عطية على خدماته ومنحه لقب (وزير) غير أن الأخير لم يكن قانعاً بهذا اللقب والذي لم يعد (حسب رأيه) ليتوازن مع أعماله التي قدمها للمنصور ابن أبي عامر وكان يطمح إلى لقب الإمارة، وذلك هو ما سعى إليه عندما بدأ بتأسيس مدينة خاصة به وهي مدينة وجدة . وعيّبت حصنها ثم انتقل إليها بخاصته ورجاله سنة 386 هـ/996 م .

غير أن التطورات المفاجئة بين المنصور ابن أبي عامر وابن عطية قلبت العلاقات الودية بين الطرفين ودفعت زعيم زناتة إلى التمرد وإعلان العصيان ،ولا نكاد نلمح في سطور الروايات التاريخية التي دونت أخبار هذا التمرد أي تسويغ مقبول لخروج الزعيم الزناتي على السلطة المركزية باستثناء ما قيل من أن أسباباً اقتصادية كانت وراء نفوره، أو ما قيل عن استخفافه بلقب الوزارة الذي منحه إياه حكومة قرطبة. فقد وجد حسب تعبير الرواية تقليلاً من وزنه السياسي بوصفه أميراً ينتمي إلى قبيلة كبيرة، غير أن هذه المصادمة إن صح وقوعها بين المنصور وزيري، لا تصلح لأن تكون مقدمة ثورة شاملة تستقطب البربر، لو لم تكن لها أبعاد سياسية ورواسب تاريخية معروفة، حدث به إلى التمرد ضد الوصاية العامرية، فقد شعر زيري بقوته من خلال القاعدة الشعبية التي التفت حوله من سواد قبائل البربر، حيث استهواها دافعاً للاستقلال بشؤونها السياسية والاقتصادية، وكان زيري بشخصيته الذكية قد احتل مكانة عالية لدى جماعته من البربر فتحول بنظرهم إلى قائد شعبي، تتجسد فيه آمالهم البعيدة في السيادة والاستقلال وبدأ زيري بن عطية بتنفيذ ما عزم عليه فاكتفى بذكر اسم الخليفة هشام في خطبة يوم الجمعة فقط، وأسقط اسم المنصور، وطرد عماله من المغرب وتمكنت قواته من دحر قوات القائد واضح في وادي زارات جنوبي طنجة، ولكن انتصاراته لم تسفر عن نتائج فعالة فقد أعادت القوات الأندلسية الكرة على قواته في سنة 387 هـ وتمكنت من الانتصار عليها، بوادٍ من أحواز طنجة وطاردت فلولها حتى مدينة مكناسة، ففر إلى العمق الصحراوي مع بعض فرقه المنهزمة، وتمكنت قوات الأندلس من تطهير مدينة فاس سنة 388 هـ وإعادة المناطق التي اختلت طاعتها بخروج ابن عطية .

وفي سنة 391 هـ عاد زيري بن عطية إلى ولاته وكاتب المنصور بهذا الأمر فعفى عنه وحسنت سيرته حتى وافاه الأجل في السنة نفسها فخلفه على حكم المغرب ولده المعز الذي أعلن سياسة الولاء للمنصور ابن أبي عامر ثم لابنه عبد الملك المظفر من بعده .

3 - العلاقات الدبلوماسية:

ظلت العلاقات الودية قائمة بين الأندلس والإمبراطورية البيزنطية فقد عاصر المنصور الإمبراطور بازيل الثاني (976 - 1025 م) الذي يعد عصره الطويل من أزهى عصور هذه الإمبراطورية.

وظلت أيضاً علاقة الأندلس بألمانيا علاقة صداقة وسلام رسختها رغبة الطرفين في استمرار تلك العلائق، وكان إمبراطور ألمانيا أوتو الثالث 983 - 1002 م قد سار على نهج أسلافه في إقرار عرى التعاون المشترك بين البلدين. أما علاقات الأندلس الدبلوماسية مع ملوك وأمراء إسبانيا الشمالية فلم تكن لترقى إلى مستوى العلاقات الودية إلا في ظروف عجزت معه هذه الممالك عن مقاومة جيوش المنصور ابن أبي عامر، فتم عقد المصاهرة بين المنصور وبين ملك نبرة شانجة عندما تزوج الأول ابنة الأخير.

أما العلاقات مع قشتالة، فقد عاصر المنصور ابن أبي عامر اثنين من حكامها فرناند وابنه سانشو وكلاهما لقي الكثير من الهزائم أمام قوات المنصور فالأول انتهت حياته في الأسر والثاني اضطر إلى عقد اتفاق مذل مع المنصور ابن أبي عامر أعلن فيه خضوعه وولاءه التام له .

- السياسة الداخلية:

1 - علاقة المنصور مع الخليفة هشام المؤيد:

استمر الحجر على الخليفة هشام المؤيد ومنعت تحركاته إلا بمعرفة المنصور ابن أبي عامر، وهي سياسة دأب عليها أولاده عبد الملك وعبد الرحمن من بعده وظل الخليفة المؤيد اسماً مجرداً في سلسلة خلفاء الأندلس، ورمزاً تمارس باسمه جميع السلطات لاكتساب الشرعية. وإذا كان المنصور قد اختار مناسبات معينة لظهور الخليفة بموكبه المعروف، فإنه كان يقصد أول ما يقصد الرد على تقولات المروانيين وبعض الإشاعات التي تبث في العاصمة عن سجن الخليفة بقصره وعدم السماح له بالظهور وسط العامة.

2 - العلاقة مع الفقهاء:

خطب المنصور ابن أبي عامر ود طبقة الفقهاء، وحاول كسب رضاهم ربما كتعويض عن اغتصابه السلطة، أو نتيجة لنشأته الدينية ودراسته على أشهر فقهاء العصر ومع ذلك فقد ظلت مسألة استبداده بالأمر وتمجيد شخصيته محوراً للخلاف بينه وبينهم، غير أن الخلاف لم يكن ليصل إلى حد القطيعة والصدام كما حدث للحكم بن هشام الربضي مع فقهاء عصره، لأن كل طرف من هذه الأطراف لم يكن يريد أن يتحدى الآخر بالشكل الذي يؤدي إلى هذه النتائج، والمنصور ابن أبي عامر من جانبه كان حريصاً على أن يضيف إلى أعماله نوعاً من الشرعية المدعومة بفتوى الفقهاء، أما الفقهاء فعلى الرغم من أنهم لم يسكتوا على أعمال المنصور إلا أنهم سايروه في البعض منها على قناعتهم بعدم انسجام تلك الأعمال والأفعال مع مذهب الإمام مالك مذهب أهل الأندلس.

وعلى الرغم من كل هذه العلاقة التي تبدو ودية في أكثر من جانب إلا أن عصره لم يخل من فقهاء حاولوا التصدي لمشاريعه السلطوية ومنهم على سبيل المثال قاضي قضاة الأندلس محمد بن إسحاق بن منذر بن أبي عكرمة المتوفى سنة 367 هـ المتولي بعد وفاة البلوطي.

وقامت حركة أخرى كان على رأسها عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي كانت تدعو إلى تولية عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ابن عم هشام المؤيد واغتيال هشام المؤيد والحاجب المنصور ابن أبي عامر، وقد اشترك في هذه الحركة عدد كبير من كبار الموظفين في الدولة ونخبة لا بأس بها من مشهوري الفقهاء، ولكن الأمر انتهى بكشف خيوط الحركة قبل التنفيذ وتم القبض على عبد الملك بن منذر البلوطي فحكم عليه بالإعدام على الرغم من معارضة الفقهاء ولكن العامري نفذ الإعدام فيه سنة 368 هـ، واكتفى بسجن الآخرين. ويظهر أن إعدام ابن منذر البلوطي وسجن الباقيين ليس مرده لزعامة البلوطي للفتنة فقط، بل لكونه معتزلياً، الأمر الذي يجعل إعدامه لا يثير ردود فعل سلبية بقدر ما له من نتائج هي في صالح المنصور ابن أبي عامر وذلك لكره أهل الأندلس الشديد للمعتزلة.

ومن الفقهاء الذين عارضوا رغبات المنصور غير المسوغة قاضي القضاة محمد بن يبقى بن زرب المتوفى سنة 381 هـ فقد روى النباهي أن المنصور ابن أبي عامر أراد إقامة الصلاة الجامعة في مسجد الزاهرة فعارضه القاضي المذكور وعد ذلك من الأمور التي لا تصح شرعاً مع وجود مسجد للجماعة .

ومهما يكن من أمر فإن علاقة المنصور ابن أبي عامر مع فقهاء عصره هي علاقة ود وانسجام " وهي ظاهرة مميزة في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، حيث قام لأول مرة توازن في العلاقة بين الدولة ورجال الدين، ولعلنا لا نتعارض مع الحقيقة في تقدير حجم الفقهاء الذين استمدوا قوتهم من التشدد في المذهب المالكي المحافظ، ومن المركز المعنوي الذي كان لهم بين طبقات الشعب في الأندلس، وانطلاقاً من هذا الموقع كانت المصادقة الدائمة على النفوذ بينهم وبين السلطة الزمنية، فإما أن تسود كلمتهم كما حصل في عهود هشام الأول وعبد الرحمن الثاني والحكم المستنصر أو يعيشوا في الظل كما في عهود الأقوياء من الحكام ... وهكذا فإن العامري كان الحاكم الوحيد الذي بنى علاقات متكافئة بينه وبين الفقهاء، فلم يحاول تحجيم نفوذهم رغم سلطته المطلقة من جهة ولم يفتح لهم أي نافذة للتدخل في شؤون الحكم من جهة أخرى " .

3 - تغيير بنية الجيش:

أعاد المنصور ابن أبي عامر تنظيم القوات المسلحة تنظيمًا جديدًا كفل له بالتالي نتائج إيجابية على المستويين الداخلي والخارجي، وتنظيماته تقوم أساساً على جعل القوات المسلحة وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادة عليا، وإلغاء النظام القديم الذي يقوم على الأساس القبلي أو العنصري، كما ألغى النظام الإقطاعي العسكري، وأصبح جيشه جيشاً نظامياً يتكون من فرق عديدة على رأس كل فرقة منها قائد أعلى ينوب عنه عدد من القادة الآخرين وحسب التشكيلات التي تتكون منها الفرقة العسكرية، ولكل منتسب راتب شهري مقرر حسب رتبته وموقعه.

وصنوف القوات المسلحة في عهده كما هي الحال في عهود من سبقه من أمراء وخلفاء بنو أمية تتكون من صنفين أساسيين هما المشاة وهي القوة الضاربة في الجيش، والفرسان الذين يعدون من الصنوف الفاعلة في كل موقعة من المواقع.

4 - بناء الزاهرة:

أقضى المنصور ابن أبي عامر أثر الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما شرع في بناء مدينة خاصة به سنة 368 هـ/978 م اتخذت اسم الزاهرة، والدوافع إلى بناء هذه المدينة لا تختلف كثيراً عن الدوافع التي حدثت بالخليفة الناصر إلى تأسيس مدينة الزهراء، وهي تمجيد عصورهم بمنشآت مميزة، دلالة على العزة والسلطان الواسع. والسبب المضاف ما ذكره ابن عذاري بقوله: " أمر المنصور ابن أبي عامر ببناء قصره المعروف بالزاهرة وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمره وأظهر استبداده، وكثر حساده وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان وخشي أن يقع في أشطان، فتوثق لنفسه، وكشف له ما ستر عنه في أمسه، من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه ... " .

وقد تم بناء الزاهرة في سنة 370 هـ/979 م وانتقل إليها المنصور بحاشيته وخاصة من الحرس، وشحنها بأنواع الأسلحة، ثم نقل إليها خزينة الدولة ودواوينها، وأقطع ما حولها لكبار رجالات الدولة من عسكريين ومدنيين فساروا سيرته وابتنوا القصور الفخمة وعمروا المنتزهات الواسعة. وتنافس العامة في البناء حولها حتى اتصلت عمائرها بالعاصمة قرطبة .

ولم تعمر مدينة الزاهرة طويلاً فقد كان عمرها رهيناً بعمر الدولة العامرية فما أن قتل عبد الرحمن الملقب شنجول حتى عم الخراب عمائر هذه المدينة ونهبت قصورها وانتهت رسومها في الفوضى التي عمت البلاد سنة

399هـ ، واندثرت بهذا التخريب تلك المدينة اندثاراً يختلف عن ذلك الذي حل بالزهراء إذ عثر على الكثير من قطع المدينة الأخيرة مبشرة في بلدان أخرى، وتم التعرف عليها بفضل ما عليها من كتابات، بينما لم يبق شيء من مآثر الزاهرة ... سوى حوض من المرمر، مكسور وغير كامل، وصل إلى إشبيلية ويحفظ الآن في المتحف الوطني بمدريد ... كما أنه لم يبق من الزاهرة فيما بعد أي صدى في التقاليد المحلية، لذا اختلف في تحديد مكانها.

مات المنصور ابن أبي عامر في رمضان سنة 392 هـ وهو ابن خمس وستين سنة بعد أن تولى تدبير الأمر فترة تقارب خمساً وعشرين سنة، اختصر فيها منجزات عهود.

ويمكننا أن نقول أنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة في تاريخ الأندلس، من النواحي السياسية والحضارية فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعناً وتألقاً بل ربما امتاز على عهد الناصر بما أحرزته خلاله الدولة العربية من تفوق عظيم في السلطان والقوى العسكرية في شبه الجزيرة الإسبانية.

فقد استطاعت الممالك الإسبانية الشمالية في عهد الناصر، أن تنتهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس، وأن توطد قواها العسكرية، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة، وقد لقي الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة، أما في عهد المنصور، فقد انتهت الممالك الإسبانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة المتوالية، وقد وصل المنصور في غزواته في شبه الجزيرة الإسبانية، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل "

فعلى الرغم من حزم خليفته عبد الملك الملقب بالمظفر واتباعه في معظم الأمور المركزية سياسة والده المنصور، إلا أنه فشل في جوانب هامة كان لها أكبر الأثر في هدم تراث العامريين السياسي في الأندلس. فبعد الملك بن المنصور ابن أبي عامر لم يخالف سياسة والده أو سياسة الدولة المركزية اتجاه المغرب والحفاظ على مناطق النفوذ والدفاع عنها حتى ما تطلب الأمر ذلك.

وظلت العلاقة مع الممالك الإسبانية الشمالية تتراوح بين الصراع الحربي والوفاق المشوب بالحذر كما استمرت العلاقة الودية مع بعض ملوك العصر.

والظاهرة البارزة في عهده هي تناحر كبار رجال الدولة وتسابقهم للاستحواذ على السلطة في وقت بدى فيه عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر مشغولاً بأمور بعيدة عن مصلحة الدولة ففوض بعض سلطاته لكبار موظفيه كطرفه الصقلبي وعيسى بن سعيد أحد وزرائه، وأفضى هذا التفويض إلى تسابق الطرفين للسيطرة على أهم السلطات حتى بدأت دولته وكأنها تتحرك من خلال شخصيتين متنافرتين وبتجاهين مختلفين، وإذا استطاع طرف الغلبة في بداية عهده فإن الوزير ابن سعيد سعى به لدى عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر، وحسب عليه أموراً عديدة، حتى أقنع عبد الملك بخطورة تسلط طرفه الصقلبي الذي نفي إلى الجزائر الشرقية سنة 394 هـ . وهكذا نجحت خطط الوزير ابن سعيد بالقضاء على أقوى منافسيه فتبوا مكانة مرموقة وأصبح الوزير المفوض في معظم أمور الدولة ، حتى أصبحت تلك السلطات نقمة عليه حين سعى بدوره إلى التآمر لقلب نظام الحكم، وتولية أحد الأمراء الأمويين خليفة على البلاد، وقد كشفت المؤامرة قبل تنفيذها فحكم عليه وعلى أعوانه بالإعدام سنة 397 هـ .

استمر عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر في الحجابة سبع سنوات إلى أن توفي سنة 399 هـ/1009 م. وناب عنه في منصب الحجابة أخوه عبد الرحمن الملقب شنجول، ولم يكن عبد الرحمن الشخصية التي يمكن أن تملأ الفراغ الذي تركه أخوه عبد الملك المظفر، فقد عرف عنه قلة الذكاء والتهور، وبدأ عصره فخالف سياسة والده وأخيه بالتقرب من الخليفة المحجور عليه هشام المؤيد، وأفرط في ملازمته والتردد إليه، حتى أنعم عليه الخليفة

بلقب المأمون، مما أثار استنكار الكثير من العناصر القرطبية التي بدأت تتسائل عن معنى منح هذا اللقب في الوقت الذي لم يروا من عبد الرحمن شنجول أي عمل أو خدمة عامة يستحق عليها مثل هذا التكريم.

ثم أعقب هذا اللقب مرسوم خلافي بتولية عبد الرحمن شنجول ولاية العهد وقرأ المرسوم أمام كبار رجال الدولة وزعماء الطوائف في البلاد، وكان لهذا القرار آثاره الخطيرة على كيان العامريين بصورة خاصة والدولة بصورة عامة فبدأ المروانيون ومن والاهم بالعمل على قلب نظام الحكم واستغلال أمثل الظروف لتحقيق أهدافهم، وسنحت الفرصة عند خروج عبد الرحمن شنجول لحرب قشتالة، وخلو العاصمة من معظم القوات النظامية فثار محمد بن هشام حفيد عبد الرحمن الناصر المقلب بالمهدي ، في 16 جمادى الآخرة سنة 399 هـ/1009 م وسيطر على قصر الخليفة هشام المؤيد، الذي أعلن تنازله عن الخلافة ليتولاها محمد بن هشام مكانه، الذي أتم السيطرة على مدينة الزاهرة فاستبيحت ونهبت خزائنها وأحرقت حتى لم يبق المهاجمون على أثر يذكر لعناصر وذخائر المدينة العامرية المذكورة.

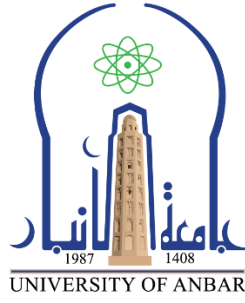
وعندما وصلت أخبار الانقلاب إلى عبد الرحمن شنجول، ارتد بقواته إلى قلعة رباح، وأعلن تنازله عن ولاية العهد، ودعا إلى نصرته الخليفة هشام المؤيد لكن نداءاته وإجراءاته كانت متأخرة جداً، فأسقط في يده عندما تفرق عنه معظم جنده وانتهى أمره أخيراً بالإعدام في السنة نفسها.

وهكذا أسدل الستار على الدولة العامرية، بسرعة لم تكن متوقعة؛ فقد تولى عبد الرحمن شنجول الحكم، والدولة محكمة النظام موطدة الدعائم، ولم تمض أكثر ثورتها من ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ الذي شاده المنصور محمد بن أبي عامر ولبث خمسة وثلاثين عاماً ينشر الأمن والرخاء على عموم بلاد الأندلس. وتتحدد الأسباب الجوهرية في انهيار الدولة العامرية بما يأتي:

1 - النظام التسلطي القاسي الذي فرضه المنصور ابن أبي عامر على الأندلس واستمرار هذا النظام في عهد أولاده عبد الملك وعبد الرحمن من بعده.

2 - سوء سياسة عبد الرحمن شنجول وسعيه إلى نيل الألقاب السلطانية وإجبار الخليفة هشام المؤيد على إصدار المراسيم الخاصة بذلك.

3 - تجرؤ عبد الرحمن على اكتساب ولاية العهد، وكان لذلك " أسوأ الوقع في نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية ".



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

- اسم المحاضرة الحادية عشر باللغة العربية: -
- اسم المحاضرة الحادية عشر باللغة الإنكليزية :-

- سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وفكرة عن دويلات الطوائف :

أولاً : سقوط الخلافة الأموية في الأندلس :

بتولية المهدي الخلافة، بدأت القوى المختلفة تحاول الحصول على أسلاب الدولة المنهارة، فقد كان بنو أمية يرون أنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة، وكان هناك صنائع الدولة العامرية، وأنصارها من الصقالبة ومواليها من الجنود المرتزقة، وكان البربر قد تضخم عددهم في أواخر عصر المنصور ابن أبي عامر، واستقر العديد من زعمائهم في الأندلس، إضافة إلى قوة العامة من أهل قرطبة الذين ساندوا المهدي ونصروه على خصومه، وكانت هذه القوة كثيرة الأهواء والنزعات .، ولم يتمكن المهدي في كثير من الأحيان السيطرة عليها أو كبح جماح زعمائهم الذين بدأوا أعمالاً كانت مثار استنكار معظم القوى في البلاد، بعد ما عرضوا أمن البلاد إلى الخطر، وأصابوا العاصمة قرطبة بمزيد من الخراب والدمار.

وكانت دولة محمد بن هشام المهدي تقوم على حد قول ابن عذاري: على " جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة، ونكوب وزراء جلة، ونصب أصدادهم تقتحم العين هجنة وقماءة، وجرى هذا كله على يدي بضعة عشر رجلاً من أراذل العامة حجامين وخرازين وكنافين ... " ..

سياسة المهدي (محمد بن هشام): يمكن تلخيصها على النحو الاتي:

اتسمت سياسة المهدي في بداية عهده بسمات عدة أهمها :

1- اضطهاده البربر لأنهم كانوا -حسب رأيه- من المؤازرين للدولة العامرية، فأساء معاملتهم وضيق على زعمائهم عند الدخول إليه، وسعى إلى الحط من مكانتهم لسبب أو لغير سبب، مما شجع الغوغاء من العامة على نهب بعض ممتلكاتهم والاعتداء على حرمتهم، وعلى الرغم مما قيل من أن السلطة حاولت السيطرة على مثل هذه الأعمال، ومعاقبة القانمين عليها، وقدمت اعتذارها لزاوي بن زيري، وحبوس بن ماكسن وغيرهما من زعماء البربر، إلا أن هؤلاء لم يأمنوا جانب السلطة، وبدأوا يتوجسون من المهدي وأنصاره خيفة احتاطوا لها استعداداً لكل طارئ.

2- وكان من أعمال المهدي أيضاً إجلاء أعداد كبيرة من الفتيان الصقالبة عن العاصمة قرطبة، فلجأوا إلى مناطق الأندلس الشرقية، واستثنى منهم الفتى واضح صاحب مدينة سالم الذي أقره المهدي على ولايته.

3 - كما أصابت إجراءاته الخليفة هشام المؤيد، الذي سجن في القصر أولاً ثم نقل إلى أحد دور العاصمة، ثم اصطنع بعد ذلك قصة موته في اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة 399 هـ.

4- وتمادى المهدي في سياسته العنيفة كثيراً عندما سجن ولي عهده سليمان بن هشام وبعض الزعماء العرب.

5- وسرح من الجيش ما يقارب السبعمئة ألف جندي أحالهم جميعاً من مناصبهم وقطع أرزاقهم، فأصبحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب .

وأمام هذه الأحوال السيئة، والاضطهاد العنيف الذي أصاب البربر في قرطبة، قام هشام بن سليمان بن الناصر بانقلابه في شوال سنة 399هـ، وأعلن نفسه خليفة على البلاد ولقب بالرشيد، وعلى الرغم من النجاح الذي أحرزه إلا أن انقلابه أخطأ أمام تعضيد القرطبيين للمهدي، واستماتتهم في الدفاع عن خلافته، وقبض على هشام بن سليمان وولده وأخيه أبي بكر وآخرين من الزعماء الذين عاضدوهم وتم إعدامهم جميعاً .

وعمت العاصمة قرطبة حالة من أعمال الشغب المدمرة استهدفت جميع البربر الساكنين فيها دون تمييز، حتى ذهبت ضحية ذلك الشغب أعداد كبيرة منهم. وقد دفعت هذه الأعمال البربر إلى توحيد قواهم، واختيار أحد الأمراء الأمويين لقيادتهم ليناهضوا به المهدي خليفة قرطبة. فوقع الاختيار على سليمان بن الحكم المستعين، الذي اتخذ من قلعة رباح قاعدة له، ثم خرج منها إلى وادي الحجارة فتمت السيطرة عليها عنوة، وحاصر مدينة سالم مدة ثم تركها، وحاول واضح الصقلبي منع الإمدادات والمؤن عن قوات المستعين، ونجح بعض الشيء، ولكن الأخير فاوض أمير قشتالة سانتشو غورسية وأبرم معه اتفاقاً أنقذه من الحصار الذي يعانيه مقابل شروط فرضها أمير قشتالة. وفي ذي الحجة من سنة 399 هـ وقع القتال بين قوات المستعين وقوات واضح الصقلبي في مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية، انتهى بهزيمة واضح الصقلبي وارتداده إلى العاصمة قرطبة تلاحقه قوات المستعين التي تمكنت وبعد معركة عنيفة من اجتياح مدينة قرطبة ودخولها في 13 ربيع الأول سنة 400 هـ/5 تشرين أول 1009 م، وأعلن سليمان المستعين نفسه خليفة على الأندلس أما المهدي فقد تمكن من الهرب إلى طليطلة وبدأ من هذه المدينة يعد العدة لهجوم يستعيد به ملكه الضائع، وحاول المستعين إجهاد مساعي المهدي لكنه فشل أمام مدينة طليطلة التي تمسكت بطاعة المهدي، ولقي الفشل نفسه أمام مدينة سالم. فاضطر إلى سحب قواته والعودة بها إلى العاصمة قرطبة نتيجة لسوء الأحوال الجوية. وقد هيا انسحابه للمهدي ظروفاً تمكن من توظيفها لصالحه، وتمكن من جمع أكبر ما يمكن من الأنصار الموالين لدعوته، إضافة إلى مفاوضة واضح الصقلبي لأمير برشلونة رامون الثالث وأخيه ارمنجول أمير مقاطة أورخل لإمدادهم بالمرتزقة. وقد وافق الأميران المذكوران على مساعدة قوات المهدي مقابل شروط قاسية وافق عليها واضح الصقلبي، وقبلها المهدي مضطراً .

وفي منتصف شوال سنة 400 هـ/ مارس، 1010 م وقع اللقاء بين الطرفين في مكان عقبة البقر، ومع اشتداد المعركة وارتداد قوات البربر؛ توقع سليمان المستعين الهزيمة، فهرب من الميدان نجاة بنفسه؛ ولكن قوات البربر أعادت الكرة وبشدة فخرقت صفوف قوات المهدي، وأنزلت بها الخسائر الفادحة، وارتدوا بعد ذلك إلى قرطبة وأجلوا ذويهم وحملوا أموالهم وأخلوا العاصمة باتجاه وادي آره، ليدخلها المهدي ويعلم خلافته للمرة الثانية .

ولكن المهدي لم يكف عن ملاحقة البربر فاصطدم بهم عند وادي آره على نهر الوادي الكبير، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بهزيمته، وارتداده بقلوله إلى العاصمة قرطبة؛ وكان لهذا الإنكسار آثاره السلبية على مكانة المهدي، فقد استمرت قوات البربر تغير على نواحي العاصمة بين الحين والآخر، وضافت الأحوال بسكانها مع سوء سياسة المهدي وبطانته؛ وقد وجد واضح الصقلبي في هذه الظروف فرصة مناسبة للخلاص من المهدي، فتعاقد مع بعض الفتيان الصقالبة على اغتيال المهدي في ذي الحجة من سنة 400 هـ، وأعادوا الخليفة المؤيد، وأعلنوا بيعته أمام الملأ .

" وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة بعد سلسلة من الخطوب والأحداث ... وكان يومئذ كهلاً في نحو السابعة والأربعين من عمره، وكان قد مضى عليه مذ ولي الخلافة صبياً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً، وفي تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام لم تشهد مثلها من قبل " .

ولكن سليمان المستعين وقواته من البربر رفضوا الولاء للسلطة الجديدة، وبدأوا ينفذون خطة لاستعادة سلطانهم السابق، فبدأت غاراتهم المرهقة على أطراف العاصمة وبعض المدن الأخرى . حتى فقدت البلاد مواردها الإقتصادية، وانفلت الأمن في عمومها .

ومع سوء الأحوال، والنقص الشديد في الموارد الأساسية المعززة لضمود المدينة، فقد أيقن واضح الصقلي أن لقاءه في العاصمة يعني انتظاره لمصير مجهول لا تحمد عواقبه، فحاول مغادرتها سراً، لكن أمره افتضح من قبل كبار الجند، فقبض عليه، وتمت تصفية أمواله وإعدامه .

وفي أواخر شهر شوال سنة 403هـ، مارس 1013 م اجتاحت قوات المستعين العاصمة قرطبة ودخلتها عنوة، وقبض على الخليفة هشام المؤيد وقتله .، وأعلن نفسه خليفة في الأندلس للمرة الثانية .؛ وبدأ سليمان بتنظيم شؤون الحكومة المضطربة " وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحي، وتفككت عرى الدولة، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى (الخلافة) على السلطة الحقيقية، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة، وسائر المناصب المهمة. ورأى سليمان إرضاء لهم من جهة، وإبعاداً لهم عن قرطبة من جهة أخرى، أن يقطعهم كور الأندلس، وكانوا ست قبائل رئيسة، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعماءها بني زيري، ولاية البيرة (غرناطة)، وأعطى مغاوة جوفي البلاد، وبني برزال وبني يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها، وبني دمر وازداجة منطقة شذونة ومورور، وأقر المنذر بن يحيى التجيبي على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ... وولى بني حمود الأدارسة ثغور المغرب ... "

ويهمنا هنا أمر بني حمود الصنهاجيين لدورهم في أحداث البلاد بعد ذلك، فقد ولي القاسم بن حمود بن علي الجزيرة الخضراء، وولي أخوه علي بن حمود مدينتي سبتة وطنجة، وتولية بني حمود الصنهاجيين أمر المغرب والجزيرة الخضراء أول بلاد الأندلس سقطة حسبت على المستعين وأذهبت دولته، فقد بلغ الطموح بعلي بن حمود مبلغه فقام على الخليفة المستعين يروم قمة السلطة بعد ما تقلب فيها أفراد هم في الحقيقة ليسوا أكثر كفاءة منه، وقد ساعدته على ذلك أسباب وعوامل منها:

1 - زعمه أن الخليفة هشام المؤيد ولاء العهد من بعده، وأظهر لإثبات ذلك كتاباً نسبته إلى الخليفة هشام، كان قد أرسله إليه خلال فترة حصار مدينة قرطبة من قبل المستعين وقواته ، وعد ابن حمود ذلك الكتاب المزعوم كافياً لإضفاء الشرعية على خروجه ومطالبته بالخلافة .

2 - تمزق وحدة البلاد، وانتشار السلطة بين قوى متعددة فسح المجال واسعاً لابن حمود لكي ينفذ ما كان يصبو إليه من الوصول إلى قمة السلطة، واستتلاب الخلافة ، إضافة إلى كونه ينتمي إلى عائلة مشهورة، ويقود قبيلة من أقوى القبائل العربية البربرية وهي قبيلة زناتة.

3 - وثمة عامل مساعد مهم هيا له الخليفة المستعين عندما ولاء أمر المغرب العربي، وولى أخاه القاسم الجزيرة الخضراء، وقد تنبأ معظم المؤرخين بسوء هذه السياسة التي أمضاها المستعين دون مراجعة دقيقة .

4 - كسب ود جميع القوى المتعاطفة مع هشام المؤيد ومنهم الصقالبة ورئيسهم خيران المتغلب على مدينة المرية والذي كان يدعو للخليفة هشام المؤيد، ويناهض الخليفة المستعين . وهكذا خلق ابن حمود الجو المناسب للقيام على الخليفة المستعين مع مساعدة الظروف له، فعبر من مدينة سبتة، ونزل الجزيرة الخضراء وسار بقواته ومن انضم إليه من زعماء الكور باتجاه العاصمة قرطبة، حيث التقى مع قوات المستعين في ظاهرها ودارت بين الطرفين معركة شديدة، خسرها المستعين، ودخل ابن حمود قرطبة في الثامن والعشرين من محرم سنة 407 هـ تموز 1016 م.

وبإعدام المستعين في التاريخ المذكور آنفاً تبدأ سلسلة الخلفاء الحموديين الذين حكموا الأندلس وأولهم

علي بن حمود، وحكم قرابة سنة قبل مقتله سنة 408 هـ/1018 م ثم تولى بعده أخوه القاسم بن حمود (408 - 412 هـ/1021 م) ثم يحيى بن حمود (412 - 413 هـ/1022 م). ثم القاسم بن حمود للمرة الثانية (413 - 414 هـ/1023 م)، وفي عهده انتهت خلافة هذه الأسرة، وانتقلت إلى الأسرة الأموية مرة أخرى؛ وأول خلفائهم: عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الملقب المستظهر بالله، وقد قتل في السنة التي تولى فيها أمر الخلافة - أي سنة 414 هـ/1024 م. ثم أعقبه محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر الملقب المستكفي بالله واستمر حتى مقتله سنة 416 هـ/1025 م.

ثم عادت الخلافة إلى الأسرة الحمودية وتولاها منهم:

يحيى بن حمود للمرة الثانية، ثم أفل نجم هذه الأسرة لتعود إلى بني أمية مرة أخرى، حتى مل الناس تلك الشخصيات، وثقلت ألقابهم أمام ندرة أعمالهم وقلة تدبيرهم، وانتهى الأمر في سنة 422 هـ/1031 م بعزل هشام الثالث المعتد بالله آخر الخلفاء الأمويين، وإلغاء الخلافة نهائياً عن الأندلس، بعد أن عجزت عن إقرار الأمور، وفرض سلطانها على العاصمة قرطبة، ناهيك عن إقرار تلك السلطات في بقية مدن الأندلس الأخرى؛ وفي قال ابن الخطيب: " ومشى البريد في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية ولا يكتفهم أحد " .

وهكذا انحدرت الأندلس، في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عقب سقوط الخلافة العربية إلى درك من التمزق والفوضى، وآلت البلاد بعد أن كانت وحدة موحدة إلى أشلاء ممزقة، وولايات ومدن متخاصمة يسيطر على كل منها حاكم سابق، أو متغلب، أو زعيم أسرة، نزلت إلى ميدان الصراع الذي شمل البلاد كلها.

واستمرت هذه الحالة قرابة ثمانين عاماً حتى دخول المرابطين إلى الأندلس وتمكنهم بعد جهود مضيئة من استعادة وحدة البلاد، والوقوف بوجه الممالك الإسبانية الشمالية الساعية إلى غزو البلاد والقضاء على كل معالم عروبته وحضارتها.

وبعد هذا العرض السريع للأحداث التي توالى على الأندلس يمكن أن ندرج الأسباب التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس على الشكل الآتي:

1 - غياب القائد، والأداة القادرة على الحسم في الوقت المناسب:

إن غياب القائد والأداة القادرة على الحسم من الأسباب الأصلية التي أدت إلى زوال الخلافة الأموية من الأندلس، وما عدا ذلك من الأسباب فلاحقة بهذا السبب بشكل أو بآخر. فالقائد المطلوب في الأندلس نمط خاص من الرجال وبناء متكامل من العصامية والفروسية والمقدرة الإقتحامية وبناء متكامل من النظرة الشاملة والوعي المقتدر المبدع والسرعة في اتخاذ القرار. وهذا النمط من الرجال يولد حيث توجد الأزمت، والتحديات المصيرية، وعندما يظهر في الميدان يبدو وكأن الكل يعرفه، ومن ثم فهو وحده القادر على توجيه الأدوات في اتجاه الأهداف المركزية للدولة، بعد امتلاكها لجميع القدرات الفاعلة في الرد على التحدي، بتحدٍ أقوى وأكثر عنفواناً، وبمعنى آخر: إن الأندلس خلال هذه الفترة كانت تحتاج إلى رجال قادرين على التفاعل مع الأحداث، رجال من طراز عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة، وعبد الرحمن الناصر باتي مجدها السياسي والحضاري.

2 - الفصل بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية:

استمر الحاكم في الأندلس " أمير أو خليفة " يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية إلى أن سيطر الحاجب المنصور ابن أبي عامر ثم أبناؤه من بعده (عبد الملك وعبد الرحمن) على مقاليد الأمور في عهد الخليفة هشام المؤيد فانتزعوا السلطة الزمنية لأنفسهم، وتركوا الخلافة مجرد رمز لا معنى له في الأصل، وكان هذا الفصل مقدمة لنهاية الخلافة لا سيما بعد أن أجبر عبد الرحمن شنجول الخليفة المؤيد على توليته العهد بعده، وهو أمر خطير، هز الأندلس هزاً عنيفاً وقاد البلاد إلى دوامة الفتن والحروب وتسايق كل الطامعين إلى نيل الخلافة التي أفرغت من مضامينها الأصلية .

3 - التركيبة الاجتماعية في الأندلس:

كان أهل الأندلس يؤلفون أخلاطاً متنافرة من السكان بعضهم عرب وبعضهم بربر، وبعضهم صقالبة، وبعضهم مولدون وبعضهم مستعربون أو يهود وكان كل من هذه العناصر البشرية ميالاً إلى السكن في بؤرات عمرانية خاصة، فنرى أن العنصر الغالب على قرطبة من العرب، والعنصر الغالب على إشبيلية وطليلة من المولدين، والعنصر الغالب على غرناطة وقرمونة ومالقة من البربر، وكان لهذا أثره الكبير في ميل أهل الأندلس إلى الاستقلال والخروج على السلطة المركزية، مما كان يقضي باستعمال القوة كوسيلة لازمة للوحدة السياسية، ومع ذلك فقد كانت القوة وحدها لا تكفل للأمير الحاكم السيطرة على سائر البلاد، وكان لزاماً على الحاكم أن يصطنع الحزم، لأن الرغبة في الاستقلال والانسلاخ عن جسم الدولة كانت تجعل هناك نوعاً من الحساسية عند الرعية إزاء الحاكم، ثم إنها كانت تدفعهم إلى الثورة عليه كلما لمسوا منه استبداداً بشؤون الدولة أو تعسفاً في معاملته لهم .

4 - الاستعانة بأمراء وملوك الممالك الإسبانية الشمالية:

أفضت المنازعات والفتن إلى استعانة الأطراف بأمراء وملوك الممالك الإسبانية الشمالية مقابل التنازل عن بعض الحصون والمدن الحدودية المهمة، فقد منحت مثل هذه الحصون من قبل المتنازعين مقابل مئات من جنود هذه الممالك كانوا يقاتلون مع هذا الطرف أو ذاك ضد الطرف الآخر، وخلال فترة النزاع الذي أشرنا إليه سابقاً تنازل المتخاصمون عن حصن غرماج، وأوسمة، وشنت اشتبين وغيرها من المناطق المهمة التي بذلت الدولة في عهد الناصر والمنصور ابن أبي عامر جهوداً استثنائية في السيطرة والمحافظة عليها، لأنها نقاط استراتيجية للجيش العربي المتقدمة باتجاه الممالك الإسبانية الشمالية.

ثانياً : عصر دويلات الطوائف

فكرة عامة عن أهم دويلات الطوائف :

بسقوط الخلافة الأموية سنة 422هـ فقدت الأندلس وحدتها السياسية وانقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة مستقلة أطلق عليها المؤرخون اسم " دويلات الطوائف " ويعرف رؤسائها بملوك الطوائف، وهم ما بين زعيم قبيلة .، أو صاحب نفوذ، أو حاكم لإحدى الكور أو وزير سابق . أو شيخ قضاء . وقد استغل هؤلاء حالة البلاد السياسية فبسطوا نفوذهم على المناطق التي تواليهم، وعملوا جميعاً على تأسيس هذه الكيانات والحفاظ عليها في أسرهم ، وانقسمت الأندلس من الناحية الإقليمية إلى عدة مناطق قامت فيها أهم دويلات الطوائف في البلاد وهي:

1- قرطبة وأحوازها من المدن والمناطق الوسطى.

2- إشبيلية وما يلحق بها من مناطق غرب الأندلس.

3- بطليوس.

4- غرناطة.

5- بلنسية وما يلحق بها من المناطق شرق الأندلس.

6- سرقسطة أو الثغر الأعلى.

7- طليطلة أو الثغر الأوسط.

8- دانية وجزر البليار.

وتضم كل منطقة من المناطق المشار إليها إمارة أو أكثر من إمارات الطوائف وتتباين من ناحية المساحة وعدد السكان والأهمية العسكرية ، واستمرت هذه الدويلات حتى دخول المرابطين الأندلس الذين عملوا جاهدين على إعادة الوحدة السياسية إلى البلاد عن طريق إنهاء هذه الكيانات الواحدة تلو الآخر كما سنفصل من خلال عرض أحوال هذه الدويلات.

1 - دويلة بني جهور في قرطبة:

خلع أهل قرطبة الخليفة هشام الثالث الملقب المعتد بالله في ذي الحجة سنة 422 هـ، وألغوا الخلافة الأموية بعد أن ينسوا من صلاح أمرها ، واجتمعوا على تنصيب الوزير أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور رئيساً لحكومة قرطبة فاختر بدوره مجلساً عد بمثابة السلطة التشريعية العليا في المدينة. وقد استطاع ابن جهور من خلال هذا المجلس أن يضع الجميع زعماء وأفراداً أمام مسؤولياتهم وواجباتهم، فحمدت سياسته واستقرت الأمور وتجنبت حكومته منافسة المنافسين وتمرد الطامعين، حتى عرفت حكومته هذه بدولة الجماعة، وأصبحت قرطبة في عهده حراً آمناً يأوي إليه أمراء وزعماء الطوائف فيجدون فيه الملاذ الأمين .

واستمرت حكومة الجماعة هذه برئاسة ابن جهور تدير أمر قرطبة وما يتبعها قرابة اثنتي عشرة سنة، سادت فيها السكينة والأمن وبدأت الحياة الإقتصادية في الانتعاش بعد أن أمن التجار على أموالهم نتيجة القسوة التي فرضت على المتلاعبين بأمن المنطقة .

وكان لابن جهور موقف خاص من أسطورة ظهور الخليفة هشام المؤيد بالله عندما أعلنها ابن عباد صاحب إشبيلية " ذلك أن ابن عباد حينما أحس بخطورة مطامع بني حمود في رئاسة جنوبي الأندلس، واتشاحهم بثوب الخلافة وحينما أرهقه يحيى بن علي بن حمود (المعتلي) بغاراته المتوالية، رأى أن يدحض دعاوى أولئك الحموديين، فأعلن في سنة 427 هـ أن الخليفة هشام المؤيد حي لم يموت، وأظهر بالفعل شخصاً يشبه هشاماً كل الشبه، وبايعه بالخلافة ودعا الناس للدخول في طاعته .، وبعث بذلك إلى رؤساء الأندلس، فاستجاب بعضهم للدعوة، وكان منهم عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، ومجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية، والوزير أبو الحزم بن جهور رئيس قرطبة،

وعقدت البيعة في قرطبة بالفعل لهشام المؤيد، والظاهر أن جهور لم يكن يؤمن حقاً بصحة هذه الدعوى ولكنه استجاب لها، وأقرها لنفس البواعث التي حملت ابن عباد على انتحالها، وهو العمل على دفع خطر الحموديين".

ظل ابن جهور على حكم قرطبة حتى وفاته سنة 435 هـ فصار الأمر إلى ابنه أبي الوليد محمد بن جهور الذي اعتمد سياسة أبيه في تدبير أمور قرطبة، ولكن أبا الوليد اضطر نتيجة ظروف عديدة إلى الابتعاد عن ممارسة السلطات وقدم ولده عبد الملك، ولكن المذكور لم يكن على مستوى من القدرة والسياسة بحيث يتمكن من إدارة حكومة قرطبة بالمستوى المطلوب، فأهمل شؤون الدولة وسعى إلى الألقاب السلطانية وفوض إلى وزير أبيه إبراهيم بن يحيى بن السقاء مقاليد الأمور وعلى الرغم من حسن تدبير الأخير إلا أنه أعدم سنة 455 هـ، وعادت الأمور المضطربة مرة أخرى وزادتها سوءاً منافسة عبد الرحمن لأخيه عبد الملك في السلطة ومحاولته السيطرة عليها دون أخيه، مما اضطر أبا الوليد إلى التدخل وتقسيم السلطات بين ولديه، ففوض أمر القوات المسلحة إلى عبد الملك وفوض الأمور المالية لعبد الرحمن. ولكن هذا التقسيم لم يكن ليرضي عبد الملك فقبض على أخيه عبد الرحمن وفرض عليه الإقامة الجبرية، مما ولد نوعاً من الاستياء وعدم الإرتياح لسوء الأوضاع في الداخل وتلت ذلك اضطرابات شجعت صاحب طليطلة على التعرض لحصن المدور والاستيلاء عليه ثم الزحف إلى قرطبة للاستيلاء عليها، فاضطر عبد الملك إلى الاستعانة ببني عباد وكانت تجمعهم وإياهم علاقات صداقة ومودة، ولكن بني عباد الذين استطاعوا تخليص قرطبة من حكام طليطلة، عادوا واستولوا عليها سنة 462 هـ وقبضوا على بني جهور ونفوهم إلى جزيرة شلطيث، وبذلك ينتهي حكم بني جهور لقرطبة بعد أن استمر قرابة الأربعين سنة.

2 - دويلة اشبيلية (بنو عباد):

يرجع أصل بني عباد إلى المنذر بن ماء السماء، وجدهم عطاف بن نعيم هو الداخل إلى الأندلس في طالعة بلج بن بشير القشيري وكان بنو عباد من الأسر التي لها في تاريخ العرب بالأندلس نصيب وافر فعميد أسرتهم إسماعيل بن عباد تقلب في مناصب الدولة سنين عديدة آخرها قضاء إشبيلية، وقد تمكن من السيطرة على الأمور في المدينة إبان الفتنة التي أصابت البلاد، تلك السيطرة التي ارتضاها عموم أهل إشبيلية بفضل السياسة الحكيمة التي سار عليها حتى وصف بأنه رجل الغرب المتصل الرئاسة وقت الجماعة، ووقت الفتنة.

إن سياسة ابن عباد الرصينة جعلت له مكاناً مرموقاً عند بني حمود الذين كان سلطانهم يتردد بين العاصمة قرطبة وبين مدينة إشبيلية، فعندما اعتزل إسماعيل بن عباد مناصبه نتيجة كبر سنه، قدم القاسم بن حمود الملقب بالمستعلي أبا القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد وعيّن في منصب القضاء، غير أن الظروف التي مرت بها الدولة الحمودية، وسلبيات الصراع بين أفراد العائلة، جعلت أهل إشبيلية يميلون إلى الاستقلال في إدارة مدينتهم، لذا فعندما غادر المستعلي إشبيلية ليتولى منصب الخلافة بقرطبة قرر الإشبيليون إعلان استقلالهم، وخولوا إدارة المدينة مجلساً مكوناً من وجهائها وعلى رأسهم محمد بن عباد ومعه أبو محمد بن مريم والعالم المشهور أبو عبد الله الزبيدي، وبدأ ابن عباد يمارس سلطاته باتجاه الاستقلال التام، فمنع المستعلي من دخول مدينة إشبيلية عندما طرده أهل قرطبة، وعندما تعرضت إشبيلية لمحاصرة قوات يحيى بن حمود سنة 414 هـ، برز ابن عباد بوصفه مفاوضاً ذكياً، فقد تمكن من رد قوات ابن حمود دون أن يعرض مركزه ومدينته إلى أي ضعف أو خطر، فقد وعد ابن عباد الخليفة الحمودي بالدعوة له في الخطبة وتادية مبلغ من المال لإثبات ولانه له.

وكانت حركته هذه ضرورية قصد بها إبعاد خطر قوات الحموديين عن المدينة وقد استخلص مرسوماً مهماً من الخليفة الحمودي بإقراره رئيساً ونائباً عنه في مدينة إشبيلية، ومنذ هذا التاريخ بدأ ابن عباد يسعى إلى تأسيس ملك خاص بأسرته، ويعمل على تجميع قوات مخصصة لأهدافه، جعلها أداة ضاربة لتقليل نفوذ ملوك الطوائف المجاورين

لإشبيلية، والسعي إلى ضم ما يمكن ضمه من حصون ومدن تلك الدويلات ولكي يبعد ابن عباد خطر الحموديين عن مناطق نفوذه نهائياً ويتحلل من تبعيته (الإسمية) لهم ، وليثبت شرعيته في الحكم ويسوغ الأعمال التوسعية التي قام بها، أعلن في سنة 426 هـ عن ظهور هشام المؤيد ، وإعلانه خليفة في إشبيلية، ودعا بقية حكام دويلات الطوائف للإعتراف به ، (وقد سبقت الإشارة إلى اعتراف بني جهور بالخليفة هشام لأسباب ذكرت آنفاً). وعلى هذا الأساس يعد محمد بن عباد مؤسس دولة بني عباد الحقيقي " ومنشئ ملكهم ورسوم مملكتهم، وعلى يده اتخذ سلطان بني عباد ألويته الملوكية المدعمة بالقوى العسكرية، وإن لم يصل بعد إلى غايته من الروعة والفخامة، وأصبح ملوكية وراثية راسخة، بعد أن كان يتخذ فقط صورة الزعامة، والرئاسة القبلية " . وبوفاة محمد بن عباد سنة 433 هـ آل الأمر من بعده إلى ولده أبي عمرو عباد بن محمد الملقب المعتضد، وقد بدأ عصره بإجراءات قاسية أصابت العديد من الشخصيات البارزة ومنهم أعضاء مجلس الرئاسة الذي شكل في عهد والده، واعتمد القوة في تحقيق أهدافه في الداخل والخارج، فكان وزرائه وكبار رجال دولته يخشونه كما يخشاه منافسوه من حكام دويلات الطوائف، وقد سرد لنا المؤرخون أسماء الشخصيات التي نكبت في عهده ومن بينهم ولده إسماعيل، والعالم عمر الهوزني الذي اشتهر بعلمه وطول باعه وهو ممن له في تاريخ الفكر العلمي الأندلسي نصيب وافر.

وكانت سياسته الخارجية تقوم على ضرب دويلات الطوائف متى ما وجد لذلك فرصة سانحة تحقق له المزيد من ضم الأراضي إلى دويلة إشبيلية، فقد تمكن من السيطرة على معظم مدن الغرب ومنها جزيرة شلطيث سنة 443 هـ ومدينة شنتمرية في نفس السنة ومدينة لبلة سنة 445 هـ، وشلب سنة 455 هـ، وحاول مرات عديدة الاستيلاء على بطليوس ابتداءً من سنة 442 هـ إلا أنه لم يتمكن منها، فاكتفى بالسيطرة على بعض الحصون المهمة التابعة لها.

وهكذا استطاع ابن عباد في نحو عشرين سنة أن يقضي على سائر الدويلات الصغيرة القائمة في غرب الأندلس، فاستولى على رنده سنة 457 هـ وعلى أركش وشدونة وما يلحق بها، ومورور سنة 458 هـ، وقرمونة سنة 459 هـ وكان ابن عباد قد استولى على باب الأندلس من الجنوب وهو الجزيرة الخضراء سنة 446 هـ وقضى على نفوذ الحموديين فيها.

وهكذا أصبحت دولة بني عباد " تضم من أراضي الأندلس القديمة، وبذلك ضمت أعظم ممالك الطوائف، وأغناها من حيث الموارد الطبيعية وأقواها من حيث الطاقة الحربية ولم يكن يغشي هذه المكانة التي بلغت إشبيلية من الفخامة والقوة والغنى سوى ناحية قاتمة واحدة. وهي موقفا من ملك قشتالة فرناندو الأول، ذلك أن هذا الملك القوي، كان يطمح إلى أن يبسط سيادته على إسبانيا كلها، وكان يرى في ممالك الطوائف، وما يسودها من الخلاف والتفرق، فرائس هينة، ففي سنة 444 هـ/1062 م خرج من قشتالة بجيش كبير من الفرسان والرماة، وغزا مملكة طليطلة، وعاث فيها وخرب سهولها وزروعها، حتى اضطر ملكها المأمون بن ذي النون، أن يطلب الصلح وأن يتعهد بدفع الجزية، وفي العام التالي 544 هـ عاد فغزا أراضي مملكتي بطليوس وإشبيلية، " واضطر المعتضد بن عباد، أن يحذو حذو المأمون في طلب الصلح والتعهد بدفع الجزية، وقصد المعتضد بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة، وقدم إليه عهده شخصياً ولما توفي فرناندو بعد ذلك بثلاثة أعوام وخلفه ولده سانتشو في حكم مملكة قشتالة، كان المعتضد يؤدي إليه الجزية أسوة بأبيه واستمر في تأديتها حتى وفاته " . وعمله يعد سقطة من السقطات الكبيرة التي درج عليها حكام دول الطوائف، الذين سعوا إلى محالفة ورضاء أمراء وملوك إسبانيا الشمالية، وتفرغوا إلى نزاعاتهم الدموية ليزيدوا تاريخ الأمة في الأندلس إرهاباً وضعفاً.

توفي المعتضد سنة 461 هـ/1069 م وخلفه ولده: أبو القاسم محمد بن عباد المعروف بالمعتمد، وفي عهده تم ضم قرطبة إلى دولة إشبيلية سنة 462 هـ ، ودخل المعتمد في صراع عنيف مع دولة غرناطة، واضطرت ظروف النزاع

كلا الطرفين إلى الاستعانة بملوك وأمراء الممالك الإسبانية الشمالية لقاء مبالغ كبيرة من الأموال، ولقاء تنازلات إقليمية، ففي الوقت الذي حاول فيه عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة التحالف مع ملك قشتالة ألفونسو السادس، نجد المعتمد يسلك المسلك نفسه ويرسل وزيره أبا بكر بن عمار إلى ألفونسو طالباً المساعدة مقابل مبلغ كبير من المال ويمنيه بغزو غرناطة واقتسامها بحيث تكون للمعتمد قسبة المدينة ولألفونسو القلعة الحمراء بما تحويه من نفائس وذخائر. وكانت نتيجة هذا الحلف تعرض مدينة غرناطة إلى هجمات مدمرة قام بها ألفونسو السادس، وجرأت قواته على اقتراف المزيد من أعمال التخريب في العديد من ضواحي المدن الأندلسية. وقام بمهاجمة طليطلة في محرم سنة 478 هـ/ 1085 م فدخلها غازياً دون أن تحرك دول الطوائف ساكناً.

إن سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس وتطلعاته لغزو بقية المدن الأخرى دفعت العديد من حكام دول الطوائف وعلى رأسهم ابن عباد إلى الاستعانة بالمرابطين لنجدتهم، ومع تحفظ بعض الحكام على قرار الاستدعاء فإن المعتمد عزم على تنفيذ قراره بقوله: " رعي الجمال خير من رعي الخنازير " ، وتعهد بالتنازل عن الجزيرة الخضراء للمرابطين الذين نزلوها سنة 479 هـ/ 1086 م ومع بداية هذا النزول بدأ المرابطون العمل على مقاومة الغزو الخارجي والانتصار عليه في أكثر من موقعة، وإعادة الوحدة السياسية إلى البلاد والقضاء على دول الطوائف الواحدة تلو الأخرى ومنها دولة بني عباد التي سقطت في سنة 484 هـ/ 1091 م .

3 - دويلة بطليوس (بنو الأفضس):

تقع دويلة بطليوس إلى الشمال من دويلة إشبيلية وتفصل بينهما جبال الشارات وكانت هذه الدويلة تشمل جميع أراضي البرتغال تقريباً وعاصمتها مدينة بطليوس وتضم مدناً مهمة منها: ماردة، وأشبونة وشنترين، ويابرة، وشنترة، وقلمرية .

وقد حكم بنو الأفضس هذه الدويلة أكثر من سبعين عاماً، وعميد هذه الأسرة هو: عبد الله بن الأفضس الذي تمكن من السيطرة على مقاليد الأمور في سنة 413 هـ، ودخلت هذه الدويلة مع اشتداد عودها في عهد المظفر محمد بن عبد الله الأفضس في صراع عنيف مع بقية دويلات الطوائف، لا سيما بنو عباد مما أنهك قوة الطرفين المتنازعين ، فاستغل فرناندو الأول ملك قشتالة تلك الأوضاع واستولى في سنة 449 هـ على مدينتي لاميغو (مليقة) وبازو الواقعتين في الشمال دون مقاومة تذكر أو نجدة تستعيد هاتين المدينتين ، ولم يحدث هذا فقط، بل اضطر بنو الأفضس إلى دفع جزية سنوية لملك قشتالة مقدارها خمسة آلاف دينار مقابل ترك مدينة شنترين والتي تعرضت لأخطار الغزو مرات عديدة .

وأشهر من حكم هذه الدويلة عمر بن محمد الملقب المتوكل على الله والذي عرف بسياسته الحكيمة وتشجيعه للحركة العلمية وتقريبه للعلماء وتمتع بطليوس في عهده بالأمن والرخاء . ، وكان للمتوكل دور في الدعوة إلى توحيد الأندلس من خلال تكليف العالم أبي الوليد الباجي المتوفى سنة 474 هـ ، ليقوم بجولة في دويلات الطوائف ويدعو حكامها إلى نبذ الخلاف والفرقة، وتوحيد الجهود ضد أخطار ومطامع الممالك الإسبانية الشمالية ، وعندما سقطت مدينة طليطلة سنة 478 هـ كان المتوكل في جملة الداعين إلى دعوة المرابطين والاستعانة بهم لإنقاذ البلاد من الأخطار المحدقة بها ..

وقد انتهى حكم هذه الأسرة على يد المرابطين سنة 488 هـ بعد حصار شديد لمدينة بطليوس، وتم إعدام المتوكل وولديه جزاء له لاستنجاهه بملك قشتالة ..

4 - دويلة طليطلة (بنو ذي النون):

ظليطة من المدن المشهورة في تاريخ الأندلس، كانت قاعدة الثغر الأوسط وبمثابة الحاجز أمام قوات الممالك الإسبانية الشمالية، وقد وقعت وما يلحق بها في حوزة بني ذي النون، وقد تولى إسماعيل بن ذي النون حكم المدينة لأول مرة في سنة 427هـ .

وأعقبه في الحكم ولده يحيى في سنة 435هـ وتلقب بالمأمون، ويمتاز عهده بكثرة الحروب والمنازعات بينه وبين حكام دويلات الطوائف كبني عباد وبني هود . وكاننتيجة تلك الحروب المزيد من الخسائر في الأرواح والمعدات وتدمير مدن وحصون الأطراف المتنازعة، كل ذلك في سبيل الحصول على مكاسب إقليمية من هذه الدويلة أو تلك في الوقت الذي سعى فيه كل طرف من أطراف النزاع إلى التحالف مع أمراء وملوك إسبانيا الشمالية مقابل مبالغ كبيرة من المال، أو مقابل التنازل عن بعض المناطق المهمة . ومما لا شك فيه فإن هذه الحروب والمحالقات أدت إلى إضعاف هذه الدويلات جميعاً وإن ظهرت الغلبة في فترات لبعضها نتيجة سيطرتها على مناطق واسعة من أراضي الغير.

ففي سنة 457 هـ تمكن المأمون من السيطرة على بلنسية، ودخلت قواته في سنة 467 هـ مدينة قرطبة بعد أن قضت على حاميتها من بني عباد ودخل الطرفان بعد ذلك في سلسلة من المنازعات انتهت باستعادة بني عباد لمدينة قرطبة ثم أعاد المأمون الكرة تارة أخرى ودخلها سنة 467 هـ .

وقد أصبحت دولة ظليطة في عهد المأمون من الدويلات المرهوبة الجانب، وامتد نفوذها حتى وصل إلى بلنسية شرقاً، واهتم المأمون بعمائر المدينة فبنى قصوراً اشتهرت بفخامتها وروعها أظن المؤرخون في وصفها وأكثر الشعراء من التغني بمجالسها .

توفى المأمون سنة 467 هـ وتولى الأمر بعده حفيده: يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر، وتعد سنوات حكمه فترة اختلال سياسي واضمحلال لقوى هذه الدويلة فقد أبعده القادر عن دست الحكم كل شخصية عرفت بسداد الرأي وصدق المشورة ومنهم الوزير ابن الحديدي، الذي أبعده عن الوزارة ثم قتله سنة 468 هـ، وأمام ضغط قوات بني حمود التجأ القادر إلى طلب العون من ألفونسو الذي قرر شروطاً باهظة مقابل ذلك العون، فبالإضافة إلى المبالغ الكبيرة، تنازل القادر عن حصون مهمة كحصن سرية وقنورية وقنالش، مما أضعف مركزه كثيراً وازداد اضطرابه عندما اضطرت ظليطة بالثورة، واضطر إلى مغادرتها والالتجاء إلى حصن وبذة سنة 472 هـ واستدعى أهل ظليطة المتوكل بن الأفطس حاكم بطليوس ليتولى إدارة المدينة فقدمها مكرهاً، ولم يعمل أكثر من نهب المدينة وإفراغ قصور بني ذي النون من محتوياتها، في الوقت الذي استنجد القادر بحليفه ألفونسو السادس فأمدته بقوات استعادت ظليطة سنة 474 هـ بعد أن غادرها ابن الأفطس. ولم تضاف سيطرة القادر على المدينة جديداً بل زادت إرهاباً وفوضى على كافة المستويات الاقتصادية والأمنية فضلاً عن انقسام العامة إلى عدة أحزاب متخاصمة بين مؤيد ومعارض، وهذه الحالة شجعت ألفونسو السادس على تنفيذ مشروعه باحتلال مدينة ظليطة فبدأ بمحاصرتها سنة 477 هـ، وحاول القادر جاهداً فك الحصار بشتى الطرق لكنه فشل أمام تعنت ألفونسو وتصميمه على دخول المدينة وأخيراً أعلنت ظليطة استسلامها بعد أن نيست من مساعدة دويلات الطوائف الأخرى، فاحتلها ألفونسو سنة 478 هـ .

وكان لسقوط ظليطة وقع شديد بين دويلات الطوائف عامة، وعده رؤساء هذه الدويلات إيداناً بسقوط معقلهم التي يعتصمون بها، فاتجهوا صوب المغرب يطلبون نجدة المرابطين ضد القوى الإسبانية الشمالية.

5 - دويلة غرناطة (بنو مناد):

سيطر زاوي بن زيري بن مناد على غرناطة سنة 403 هـ واتخذها وقومه ملجأ لهم، واستمر يدير شؤونها مدة سبع سنوات، كانت له فيها وقائع مع الخليفة المرتضى سنة 409 هـ فهزمه هزيمة نكراء وردة وفلول جيشه إلى العاصمة قرطبة. ولأسباب غير واضحة قرر زاوي بن زيري مغادرة الأندلس والالتحاق بوطنه في المغرب العربي سنة 410 هـ ، بعد أن خلف على حكم غرناطة ابن أخيه: حبوس بن ماكسن الذي تسلم مقاليدها في سنة 411 هـ وكان حسن التدبير والسياسية، نعمت غرناطة في عهده بنوع من الهدوء والاستقرار، واتسعت رقعة هذه الدولة عندما سيطر على قبرة وعلى مدينة جيان، واهتم بعمارة مدينة غرناطة، حتى مكن لبني مناد ملكاً قوياً راسخاً. وكانت سياسته تقوم على مصادقة جيرانه من زعماء البربر وفي مقدمتهم بنو حمود حكام مدينة مالقة، والتحالف مع هذه القوى ضد بني عباد حكام إشبيلية.

توفي حبوس سنة 428 هـ وخلفه في حكم غرناطة ولده: باديس، الذي قدر له أن يكون من أقوى حكام هذه الدولة وأوفرهم حظاً للنهوض بأعباء الحكم، وقد افتتح عهده بالقضاء على مؤامرة استهدفت قلب نظام الحكم دبرها ابن عم له يدعى يدير بن حباسة الذي هرب مع كبار المتآمرين إلى إشبيلية عندما اكتشفت هذه المؤامرة قبل تنفيذها.

وجرياً على نهج حكام دويلات الطوائف فقد دخل باديس بن حبوس في حرب قاسية مع زهير العامري صاحب المرية بعد أن اختلت العلاقات الطيبة بين الطرفين ، نتيجة لتضارب مصالح كلتا الدولتين ، وتمكنت قوات باديس من تدمير قوة زهير العامري وقتله في ميدان المعركة 429 هـ/1038 م ، وكان من نتائج هذه المعركة سيطرة باديس على معظم أملاك دويلة زهير العامري المتاخمة لدويلة غرناطة ومنها مدينة جيان وأعمالها، وقسماً من أراضي كورة قرطبة الجنوبية.

وعندما حاول بنو عباد غزو مدينة قرمونة . تحركت قوات باديس لنجدها وتمكنت من تشتيت قوات بني عباد وقتل قائدهم إسماعيل بن عباد قرب استجة في سنة 431 هـ/1039 م .

وظل بنو مناد الصنهاجيون وبنو عباد في صراع وتسايق لكسب مناطق النفوذ فلما اضمحلت قوة الحموديين بدأت غرناطة تخطط لاحتلال مالقة في الوقت الذي بدأ معه ابن عباد الإعداد للسيطرة على الجزيرة الخضراء والتي دخلوها فعلاً سنة 446 هـ/1055 م بعد أن جلا عنها حاكمها القاسم بن حمود، وفي سنة 448 هـ/1056 م تمكن ابن حبوس من دخول مالقة منهيماً حكم الحموديين في هذه المدينة أيضاً ، ولكن بني عباد وجدوا في احتلال مالقة من قبل قوات ابن حبوس تحدياً لهم، فأرسلوا قواتهم لاحتلالها ولكنهم بعد معركة عنيفة بين الطرفين سنة 458 هـ/1066 م خسر فيها الإشبيليون معظم جنودهم إلا من نجا بالفرار من الميدان، واستمر النزاع سجالاً بين الطرفين لسنوات أخرى، تبودلت فيها السيطرة على المناطق العديدة ، مع فداحة خسائر الطرفين، وتعرض الكثير من مناطق الأندلس إلى الخراب والدمار.

ومع طول سنوات حكم باديس بن حبوس بلغت غرناطة في عهده كأقوى الدويلات القائمة آنذاك " إذ كانت تمتد من بسطة شرقاً حتى استجة ورنده غرباً، ومن بياسة وجيان شمالاً حتى البحر جنوباً "، وكانت هذه الدولة مسؤولة عن حماية الدويلات والإمارات البربرية " وباديس هو الذي حصن مدينة غرناطة، وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية، وأنشأ قسبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة وسميت باسمها القديم القلعة الحمراء ... وأنشأ له جيشاً قوياً مرابطاً من قومه صنهاجة وغيرهم، وبذل له المال الوفير، ووطد الدولة، ونظم مراتبها وعمالقتها " .

وبعد وفاة باديس سنة 465 هـ/1073 م تولى أمر دويلة غرناطة حفيده عبد الله بن بلكين الذي كان حدثاً لم يقو على إدارة البلاد، ففقدت الدويلة ديمومتها واستقرارها وعاد بنو عباد يهاجمون أملاكها ، مما أجبر عبد الله على محالفة

ألفونسو السادس وترضيته بأموال باهظة وبدأت أحوال هذه الدويلة تنجح للتفسخ عندما بدأ الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها، فاستقل تميم بن باديس بحكم مالقة وما جاورها، وبدأ صراع بين الأخوين، أهدرت خلاله قوى هذه الدويلة واستمر حكم عبد الله حتى دخول القوات المرابطية غرناطة سنة 483 هـ .

6 - دويلة بننسية:

بننسية من القواعد المهمة في شرق الأندلس، تداولها العديد من المتغلبون بعد انفراط عرى الوحدة السياسية في البلاد، وأول من سيطر عليها الصقالبة الذين وجدوا فيها ملاذاً أميناً لهم، عندما خرجوا من قرطبة إبان الفتنة التي اضطرم لها بعد مقتل الحاجب عبد الرحمن شنجول آخر العامريين.

حكمت بننسية لفترة من قبل مجاهد العامري، ثم غادرها إلى دانية بعد أن انتقل حكم المدينة إلى الفتيان العامريين من الصقالبة وكان على رأسهم الفتيان مبارك ومظفر، اللذان اشتركا معاً في إدارة وحكم المدينة وما يتبعها من المدن والمناطق، وإن كان لمبارك التقدم في الرتبة والرئاسة على زميله الآخر، وقامت سياستهما على فتح أبواب المدينة للوافدين من أبناء جلدتهم الصقالبة، والعناصر الأخرى المناصرة لهم، مما أضاف قوة إلى قوة الموجودين في المدينة منهم.

وكانت بننسية على علاقات طيبة مع معظم مدن شرق الأندلس وفي صراع مستمر مع حكام سرقسطة الذين كانوا يرومون التوسع على حساب مناطق شرق الأندلس.

انتهت دولة هذين الفتيان سنة 408 هـ لتحكم من قبل لبيب العامري ومجاهد العامري، ولكن الأمور لم تستو لهما، فعندما دب النزاع بينهما واشتد الخلاف حسم الأمر بتقديم عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول سنة 411 هـ/1021 م.

ولكن هذا التقديم لم يكن ليرضي كبار الصقالبة فعمد خيران الصقلبي صاحب المرية ومرسية وأوريولة من باب المنافسة الشرعية والمحافظة على ما يملكه إلى ترشيح محمد بن عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر ولقب بالمعتصم، لكن الظروف التي قدمت المعتصم هي نفسها التي أجلته عن موقعه وأبعدته عن شرق الأندلس لينفرد خيران بالسلطة في المناطق التي يسيطر عليها حتى وفاته سنة 419 هـ/1029 م ، فخلفه زهير العامري الذي قتل عندما حاول غزو غرناطة سنة 429 هـ/1038 م، واستغل عبد العزيز خلو المرية من الزعامة فسيطر عليها وعلى معظم المناطق القريبة منها عدا مدينة جيان التي أصبحت ضمن أملاك دويلة غرناطة، وإزاء هذه التطورات قرر مجاهد العامري مهاجمة دويلة بننسية. وفي سنة 433 هـ/1041 م وقعت الحرب بين القوتين، تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة، وانجلى الموقف أخيراً عن دخول عبد العزيز مدينة شاطبة وتعزيز سلطانه في مدن شرق الأندلس، واستمرت دولته آمنة الجانب حتى وفاته سنة 452 هـ/1061 م، فولي بعده ولده: عبد الملك الملقب بنظام الدولة وبالمظفر، وفي عهده آل أمر بننسية للمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وأصبحت ضمن أملاكه سنة 457 هـ/1065 م .

واستمرت بننسية تحكم من قبل ذي النون حتى وفاة المأمون سنة 467 هـ/1075 م فاستقل بها أبو بكر بن عبد العزيز - الذي كان نائباً عن ذي النون في حكمها - فحكمها دون منازع، واستعان بملوك الممالك الإسبانية الشمالية لرد الهجمات عنها مقابل دفع الأموال الكبيرة إليهم. وحكم عشر سنوات، وتوفي سنة 478 هـ فتاب عنه ولده: أبو عمرو عثمان، الذي بدأ ولايته مع سقوط مدينة طليطلة في يد القشتاليين ، وكان لهذا الحدث نتاجه السلبية على عموم بلاد الأندلس، ومصير دولة بننسية بوجه خاص.

فحينما استولى ألفونسو السادس على طليطلة " من يد صاحبها القادر بن ذي النون، حفيد المأمون، فقد تعهد له أو وعده ضمن عهوده لقاء الاستيلاء على المدينة، أن يمكنه من استرداد بلنسية التي خرجت عن طاعته، بل قيل إنه وعده بمعاونته على افتتاح دانية وشنتمرية الشرق إذ كان يعلم أنه يتمكن القادر من الاستيلاء على هذه المدن فإنها تغدو في الواقع تحت حمايته، ويغدو شرق الأندلس، واقفاً تحت سيادته، عن طريق القادر .

وقد تمكن القادر من دخول بلنسية بعد أن خلع أهلها أبا عمرو عثمان وقامت دولة بني ذي النون في هذه المدينة تحت وصاية ألفونسو السادس وتحت رحمة جنده المرابطين فيها، والذين باتوا يشكلون عبئاً ثقيلاً نتيجة إباحهم في طلب الأموال، وزادت حالة المدينة سوءاً عندما تحول القادر إلى حاكم متعسف لا يهتم المصلحة العامة بقدر ما تهمة مصالحه الذاتية وإرضاء الحلفاء المسلطين عليه، حتى اضطر علماءها إلى الهجرة والخروج عنها، ولم ينته هذا الضيق والعسف إلا عندما دخل المرابطون الأندلس، وانسحبت قوات ألفونسو من بلنسية للإشتراك في العمليات العسكرية ضد المرابطين (انتصر فيها هولاء بعدنذ في واقعة الزلاقة سنة 479 هـ/1086 م)، وحاول القادر مثله مثل حكام دويلات الطوائف التقرب من المرابطين، لكنه لم يحظ بطائل، فعادت أمور بلنسية إلى الاضطراب، وشعر بخطورة الموقف عندما استغل المنذر بن هود حاكم لاردة وطرطوشة الفرصة وحاصر بلنسية سنة 481 هـ/1088 م. فاستعان القادر بحليفه ألفونسو السادس والمستعين ابن هود حاكم سرقسطة منافس المنذر، ولكن لكل واحد من هذين أهدافه وأطماعه في دويلة بلنسية، وعندما وصلت قوات المتحالفين قرر المنذر فك الحصار ومغادرة مواقعه لتحل محل قواته قوات المستعين التي ضمت في صفوفها فرقة هن الفرسان المرتزقة الإسبان يقودها السيد الكمبيادور الذي سبق له أن خدم والد المستعين وجده من قبل.

وتشير المصادر التاريخية إلى اتفاق سري بين المستعين والسيد الكمبيادور خلاصته غزو المدينة واقتسام أملاكها، بحيث تكون جميع الغنائم لقوات الكمبيادور والمدينة نفسها من نصيب المستعين، ويبدو من سير الأحداث بعد ذلك محاولة نكث كل طرف بالآخر، ومحاولة كل واحد العمل لحسابه الخاص بعد أن تمكن القادر من إجراء محادثات سرية بين الطرفين كل على حدة محاولاً الإيقاع بينهما، وحاول كسب السيد الكمبيادور الذي رحب بعروض القادر، ورفض مهاجمة مدينة بلنسية بحجة كون القادر يتمتع بحماية ألفونسو السادس وإن الهجوم عليه يعني الخروج عن طاعة ملكه ملك قشتالة .

ومنذ ذلك الحين انفض الحلف الذي كان يربط المستعين بالسيد الكمبيادور الذي بدأ يجوب مدن شرق الأندلس ويفرض على حكامها المبالغ الطائلة. واستمر على تلك الأعمال سنوات عديدة، وكانت بلنسية تدفع له سنوياً قرابة مئة ألف دينار لقاء حماية المدينة والحرب نيابة عن القادر، حتى ساءت الأحوال الاقتصادية وعمت الشكوى جميع السكان، فقاد قاضيها أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري ثورة بمعاونة قوات المرابطين أنهت حكم المقتدر وأوصلته إلى الإعدام سنة 485 هـ/1029 م واختير ابن جحاف رئيساً لإدارة شؤون المدينة .

وأمام هذه التطورات قرر السيد الكمبيادور احتلال مدينة بلنسية واسترجاعها من يد المرابطين، وبدأ بسلسلة من المفاوضات السرية بينه وبين ابن جحاف يمني به حكم هذه المدينة ويؤمن حمايته بشرط إخراج المرابطين منها وانتهت المفاوضات بينهما على البنود الآتية:

1 - أن يغادر المرابطون المدينة دون أن يعترضهم أحد.

2 - أن يسلم ابن جحاف للسيد أموال القادر.

3 - أن تسلّم له الأموال التي كانت مقررة له سابقاً " كجزية سنوية " .

4 - تبقى ضاحية الكدية " إحدى ضواحي المدينة " بيد السيد.

5 - أن يرتد الجيش القشتالي إلى جباله.

ولا خلاف فشرط الاتفاق باستثناء الشرط الخامس والذي لم ينفذ في الأصل هي في صالح السيد الذي استغل ذلك استغلالاً بشعاً وبات يهدد المدينة وأمنها حتى غزاها سنة 488 هـ/1095 م، وقبض على ابن جحاف وأسرته وقتلهم جميعاً، وقصة تعذيب ومقتل ابن جحاف مشهورة في كتب المؤرخين ، وظلت بلنسية تحت حكم السيد حتى وفاته سنة 492 هـ/1099 م فحكمتها زوجته خمينا التي تولت الدفاع عنها ضد المرابطين. ثم دخلها ألفونسو السادس في سنة 495 هـ/1102 م وقرر إخلاءها بعد أن دمرها تدميراً تاماً، ثم دخلها المرابطون في نفس السنة لتعود إلى حظيرة العروبة والإسلام .

7 - دويلة سرقسطة:

تعد دويلة سرقسطة، أو الثغر الأعلى من أكبر الدويلات القائمة في البلاد مساحة، وكانت تتميز فضلاً عن ذلك بموقعها المتاخم لدول الممالك الإسبانية الشمالية " بين قطلونية من الشرق، ونافاراً أو نبرة من الشمال الغربي، وقشتالة من الجنوب والغرب " ، وتعد هذه الدويلة من أقدم الدويلات الأندلسية استقلالاً عن السلطة المركزية، ذلك أن موقعها النائي في شمال شرقي الجزيرة الأندلسية كان يحتم عليها دائماً الذود عن وجودها من جميع الأطماع المضطربة حولها.

تولى حكم هذا الثغر يحيى بن عبد الرحمن التجيبي سنة 379 هـ/989 م بإقرار من المنصور ابن أبي عامر، وظل حاكماً عليه حتى وفاته سنة 408 هـ/1017 م فخلفه ولده المنذر الذي يعد أول حاكم لدويلة سرقسطة، حيث تلقب كغيره من حكام الدويلات بالألقاب السلطانية فتسمى بذي الرياستين ولقب بالمنصور. واشتركت هذه الدويلة في الأحداث الجارية على الساحة الأندلسية، فقاتلت قواتها بجانب الأندلسيين ضد البربر الذين كانوا تحت قيادة زاوي بن زيري الصنهاجي سنة 409 هـ/1018 م، ومع خسارة المعركة أيقن المنذر عدم جدوى هذه المنازعات لكون أهدافها لا تحقق له أية امتيازات أو مكاسب. فبدأ يراهن على دخول مدينة بلنسية بعد أن أصابها الاضطرابات، نتيجة تنافس الصقالبة على الاستئثار بحكمها بعد وفاة مبارك العامري سنة 408 هـ، وقد تمكن مجاهد العامري من صد قوات المنذر ومنعه من دخول المدينة، واستمر الصدام بين الطرفين حتى تم إعلان عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول سنة 411 هـ/1021 م حاكماً على بلنسية وما يلحق بها من المدن عندئذٍ قرر المنذر الانسحاب إلى سرقسطة بعد أن انسحب مجاهد العامري إلى قواعده في دانية .

ومن الظواهر السلبية التي رافقت عصر المنذر، تلك العلاقات المشبوهة التي كانت تربطه بأمرء الممالك الإسبانية الشمالية، فقد كان على علاقة مع أمير برشلونة رامون بوريل، وشانجة أمير نافار، وألفونسو الخامس ملك ليون، وقد بالغ المنذر في التقرب من هؤلاء الأمراء والملوك حتى أسخط عليه العامة، فرمته بشتى أوصاف الخسوع والخيانة ، مات سنة 414 هـ/1023 م وتناوب على حكم دويلة سرقسطة بعده اثنان من أسرة بني تجيب أولهما: يحيى بن المنذر الذي خلف والده وتلقب بالمظفر وفي زمانه أغار أمير برشلونة على أراضي دويلة سرقسطة واستولى على بعض القلاع والمناطق المهمة ، وثانيهما: المنذر بن يحيى الذي تولى حكم سرقسطة بعد وفاة والده سنة 420 هـ/1029 م وتلقب بمعز الدولة، واغتيل سنة 430 هـ/1039 م ، وباغتياله ينتهي حكم بني تجيب، لتبدأ أسرة أخرى في حكم سرقسطة وما والاها وهي أسرة بني هود وعميدها قائد مشهور من قواد بني تجيب هو: سليمان بن محمد بن هود، حكم سرقسطة سنة 431 هـ/1039 م، وتلقب بالمستعين وتميزت سنوات حكمه بالصراع المرير مع المأمون بن ذي النون

حاكم طليطلة وكانت المنطقة الواقعة بين الدولتين، من ناحية الجنوب الغربي من دويلة سرقسطة وناحية الشمال الشرقي من دويلة طليطلة، موضع الاحتكاك بين الطرفين. حيث دارت معارك دامية في سنة 436 هـ/1044 م وما بعدها بين قوات الطرفين وقد ألجأت هذه الحروب الطرفين إلى التحالف مع حكام الممالك الإسبانية لقاء الأموال الطائلة فتحالف ابن هود مع ملك قشتالة فرناندو، وتحالف المأمون بن ذي النون مع ملك نافار غرسية، فاستمر " ملكا قشتالة ونافار يعملان بكل ما بوسعهما على إذكاء هذه الفتنة، فيغير الأول على أراضي طليطلة لحساب ابن هود، ويغير الثاني على أراضي سرقسطة لحساب ابن ذي النون، ولم تخمد هذه المعركة الانتحارية بين الأميرين المسلمين إلا بعد وفاة ابن هود في سنة 438 هـ/1046 م ."

ومن سوء سياسة سليمان بن هود تقسيمه دويلة سرقسطة بين أولاده الخمسة، فولى ولده أحمد مدينة سرقسطة ويوسف مدينة لاردة، ومحمد قلعة أيوب، ولب مدينة وشقة، والمنذر مدينة تطيلة. وعندما توفي سليمان بن هود سنة 438 هـ استقل الأبناء كل في مدينته، وبدأ النزاع بينهم حتى تمكن أحمد حاكم مدينة سرقسطة والملقب بالمقتدر التغلب على جميع أملاك أخوته باستثناء ما كان تحت حكم أخيه يوسف ولم يحدث هذا

فقط بل نكل أحمد المقتدر بأخوته تنكيلاً ضجت منه العامة وطالبت بخلعه ، ورجحت كفة منافسه يوسف صاحب لاردة، واستجدت ظروف طارئة أعلنت كفة المقتدر مرة أخرى ، وقوت مكانته في هذه الدويلة بعد أن تمكن من استرداد كافة القواعد التابعة لدويلة سرقسطة باستثناء مدينة لاردة ، ثم احتل مدينة طرطوشة سنة 452 هـ/1060 م منهيماً بذلك حكم الصقالبة في هذا الثغر.

ومن الأحداث الأساسية التي وقعت في عهد أحمد المقتدر احتلال مدينة بربشتر من قبل النورمانديين سنة 456 هـ/1064 م فقد خرج النورمانديون من قاعدتهم نورماندي، يريدون الأندلس، فحاصروا مدينة وشقة إحدى مدن دويلة سرقسطة، وعندما فشلوا في اقتحامها توجهوا إلى مدينة بربشتر التي تعرضت لحصار القوات الغازية، فترة أربعين يوماً، ولم يفكر المقتدر بن هود بنجدة المدينة لكونها من أعمال أخيه يوسف الذي تخاذل بدوره عن تقديم أي عون لها فتركها تلاقى مصيرها. وعلى الرغم من صمود المدينة وبسالة قواتها في الدفاع ورد الغزاة، إلا أنها سقطت ودخلها النورمانديون واستباحوها ودمروا عمرانها واقترفوا في سكانها من المناكير ما لم يقترفه آدمي قبلهم، فعبروا بتلك الأعمال عن حقيقتهم الوحشية وسيرتهم الهمجية، وقد كان صدى هذه النكبة قد عم بلاد الأندلس، مما عجل في العمل على استرجاعها وتطهيرها من دنس الغزاة، وقد سارت قوات المقتدر في جمادى الأولى سنة 457 هـ/1065 م فعلاً وتمكنت من تحرير المدينة بعد معركة شديدة هزم فيها النورمانديون وحلفاؤهم الموجودون معهم للدفاع عنها ، ووقعت للمقتدر بعد ذلك وقائع مع جيرانه من الممالك الشمالية (ارجون، ونافار، وقشتالة) فقد كانت هذه الممالك تتحين الفرص للنيل من هذه الدويلة سواء باقتطاع أقاليمها أو ابتزاز أموالها، وهذه الظروف نفسها كانت العامل في التجاء المقتدر إلى محالفة بعض ملوك هذه الممالك وبذل الأموال الطائلة لهم ضد البعض الآخر.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان المقتدر أحد كبار حكام الطوائف، تميز بمقدرة سياسية وعسكرية عالية على أن مشاريعه وأعماله كانت تنطوي أحياناً على بعض الصفات السيئة، وتمتعت سرقسطة في وقته بمكانة مميزة ومرموقة فقد كان بلاطه يضم كبار علماء العصر ومشاهيرهم في العلوم والآداب، وكان المقتدر نفسه عالماً من علماء عصره شغوفاً بدراسة الفلسفة والفلك والرياضيات وكان قصره المسمى بقصر الجعفرية نسبة إلى كنيته (أبو جعفر) من أكبر وأضخم قصور ذلك العصر وقد اشتهر في تاريخ الفن الإسلامي باسم دار السرور وكان أروع ما فيه بهوه الرائع الذي

زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة، فيسمى لذلك بالبهو الذهبي أو مجلس الذهب. ولما سقطت سرقسطة في يد الإسبان شوهدت معالم هذا القصر البديع وأدخلت فيه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وزخارفه العربية.

مات المقتدر سنة 474 هـ/1081 م وقد اقرت نفس الخطأ الذي اقرتفه والده من قبل، فقد قسم دويلة سرقسطة بين ولديه فخص ولده الأكبر يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها، وولده المنذر بلاردة وطرطوشة ودانية، وعادت الحرب الأهلية بين الطرفين واستعان كل طرف على الآخر بمرتزقة الممالك الإسبانية الشمالية، فتحالف المؤتمن مع السيد الكمبيادور صديق والده القديم واستعان المنذر بملك أرجوان وأمير برشلونة، ودارت بين الطرفين سلسلة من الصدامات خربت على أثرها العديد من المدن والحصون ولم تجن الأطراف المتنازعة غير المزيد من الخسائر في الرجال والأموال.

ولم يحكم المؤتمن أكثر من أربع سنوات فتوفى سنة 478 هـ/1085 م فخلفه في حكم سرقسطة وأعمالها ولده: أحمد المستعين، والذي لم يصف جديداً على سياسة والده فاستمر في التحالف مع السيد واشترك في الصراع حول السيطرة على بلنسية " وقد سبق الحديث عن ذلك " وقد دخل المستعين بعد فشله من احتلال بلنسية في صراع وحروب شديدة مع مملكة أرجون التي باتت تهدد دويلته من الشمال، وسأقت تلكالحروب المستعين إلى طلب العون من ملك قشتالة مقابل دفع مبالغ كبيرة من المال، ولكن قوات أرجون تمكنت من احتلال مدينة وشقة سنة 489 هـ/1096 م التي تعد ثاني مدينة في دويلة سرقسطة، ودارت بعد ذلك معارك شديدة بين الطرفين آخرها معركة (فالتيرا) سنة 503/1110 م التي قتل فيها المستعين وارتدت قواته منسحبة باتجاه قاعدة سرقسطة، وخلف عبد الملك الملقب بعماد الدولة والده المستعين فشهد دخول المرابطين سرقسطة أواخر سنة 503 هـ لينهوا حكم أسرة بني هود الذي استمر أكثر من سبعين سنة .

8 - دويلة دانية والجزائر الشرقية:

تمكن مجاهد العامري أحد موالى المنصور ابن أبي عامر من السيطرة على مدينة دانية خلال فترة اضطراب الأندلس، وحكمها باسمه ثم تغلب على الجزائر الشرقية في حدود سنة 405 هـ/1014 م .

وبحكم الموقع الجغرافي لدانية من الأندلس فقد تخلصت هذه المدينة من المنازعات التي شغلت حكام الطوائف سنين عديدة، وقامت سياسة مجاهد العامري على بناء وتحصين قواعد دويلته والاهتمام ببناء قوات عسكرية برية وبحرية، أعدت منذ البداية لمهمات تتعدى حدود الأندلس، وكانت أولى تلك المهمات تتحدد في تنفيذ مخططاته الرامية للسيطرة على جزر البحر المتوسط، ومنها جزيرة سردينيا التي احتلت سنة 406 هـ/1015 م ، والتعرض للمدن الإيطالية جنوه وبيزا ولوني التي أصابها قواته البحرية مرات عديدة. ولكن العامري لم يتمكن من الاحتفاظ بجزيرة سردينيا طويلاً ، فاضطر إلى الانسحاب منها بعد أن خسر المعركة أمام قوات التحالف الصليبي الذي قاده البابا بندكتوس الثامن وضم فيما ضم قوات جنوه وبيزا البحرية وذلك في سنة 407 هـ/1016 م والعام الذي يليه.

وعلى الرغم من هذا الفشل الذي أصاب قوات مجاهد العامري، فقد ظل من أبرز القادة البحريين الذين عرفوا في ذلك العصر وكان اسمه يثير الذعر والخوف والاضطراب في الأوساط الأجنبية وفي موانئ البحر المتوسط خاصة، وظلت سفنه تجوب البحر المتوسط وتغير على المدن الإيطالية وتقطع عليها خطوط مواصلاتها سنين عديدة .

وأما الصفحة الأخرى البارزة في دويلة العامري، فتتمثل بالنشاط العلمي والأدبي الذي حظي باعتناء زائد من قبله، مع سعيه الدائم إلى دعوة العلماء واقتناء مؤلفاتهم النادرة والجديدة . ويعد أبو عمرو الداني إمام القراءات في زمانه،

وابن عبد البر ، وابن سيده ، من أشهر علماء العصر على الإطلاق فقد طارت مؤلفاتهم شرقاً وغرباً، وهم الذين رفدوا الحياة العلمية بكل جديد ونفيس في مجالات تخصصاتهم المختلفة.

مات مجاهد العامري سنة 436 هـ/1044 م بعد أن حكم دانية والجزائر الشرقية زهاء ثلاثين سنة، وخلفه على الحكم ولده: علي الملقب بإقبال الدولة والذي نهج على سياسة والده في الداخل والخارج، وفي عهده ضمت دانية إلى دويلة سرقسطة سنة 468 هـ/1076 م عندما سيطر عليها المقتدر بن هود .

أما الجزائر الشرقية والتي تعد ميورقة من أهم جزرها فقد كانت تحت حكم عبد الله المرتضي الذي استبد بحكمها حتى وفاته سنة 468 هـ وخلفه مساعده في حكم الجزيرة مبشر بن سليمان، وفي عهده تعرضت ميورقة لهجوم الأساطيل الغربية المتحالفة (بيزا الإيطالية وأمير برشلونة وفرنسا) بعد أن بارك البابا هذه الحملة التي ضربت حصاراً على الجزيرة سنة 508 هـ/1114 م وصمدت له صموداً رائعاً على الرغم من قطع المحاصرين لكافة الإمدادات والمؤن عنها، وخلال الحصار توفي مبشر بن سليمان، وتولى قيادة المقاومة أبو الربيع سليمان الذي لم يتمكن من الصمود طويلاً فسقطت مدينة ميورقة سنة 508 هـ/1114 م ودخلتها القوات المتحالفة بعد أن فني معظم المدافعين عنها، فنهبها الغازون عن آخرها وقتلوا جميع من صادفوه حياً من سكانها، واستمرت القوات المتحالفة في عبثها وتخريبها للمدينة حتى حررها المرابطون سنة 509 هـ/1115 م من سيطرة قوات التحالف الغربية عليها .

الكيانات المستقلة (دويلات صغيرة) :

وقامت في الأندلس دويلات أو إمارات صغيرة حكمت من قبل الأسر المتنفة واتخذت من مدنها مراكز ومقرات لها. ولم يكن لهذه الدويلات أو الإمارات كبير شأن فهي لم ترق إلى مصاف الدويلات السابقة، بيد أنها كانت محوراً يثير النزاع بين الدويلات الأخرى ومنها على سبيل المثال:

أ - بنو طاهر في مدينة مرسية:

وعמיד هذه الأسرة هو أبو بكر أحمد بن إسحاق بن طاهر أحد العلماء المعروفين وكان رئيس مدينة مرسية مدة تزيد على ست وثلاثين سنة، وبوفاته سنة 455 هـ خلفه ولده محمد بن طاهر وفي عهده سقطت مرسية بيد بني عباد سنة 471 هـ.

ب - بنو برزال في قرمونة:

ورأس حكومتها أبو عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي وكان نفوذه يمتد إلى مدينة استجة والمدور، وقد تقلب البرزالي المذكور تحت طاعة القوى المختلفة من دويلات الطوائف حتى سيطر بنو عباد على أملاكه سنة 459 هـ .

ج - بنو يفرن في رندة:

ورأسهم أبو النور هلال بن دوناس اليفرني الذي حكم حتى وفاته سنة 449 هـ/1057 م وخلفه ولده أبو النصر فتوح والذي انتهت على يده إمارة رندة وضممت إلى دويلة إشبيلية سنة 457 هـ/1065 م (126).

د - بنو دمر في مورور:

وزعيمهم نوح بن أبي تزيدي الدمري حكم ابتداء من سنة 403 هـ/1013 م لغاية 433 هـ/1041 م وخلفه ولده محمد والذي مات في حبس ابن عباد 449 هـ/1057 م، واستمر بنو دمر يحكمون هذه المدينة حتى سنة 458 هـ/1066 عندما احتلها بنو عباد.

هـ - بنو خزرون في أركش:

وزعيمهم أبو عبد الله محمد بن خزرون المتغلب على أركش في سنة 402 هـ واستمر في حكمها حتى وفاته سنة 420 هـ/1029 م فأعقبه ولده عبدون وآخرون من هذه الأسرة حتى سقوطها في يد بني عباد سنة 461 هـ/1068 م .

سمات عصر دويلات الطوائف:

استمر عصر دويلات الطوائف في الأندلس أكثر من ثمانين سنة، تنازعت فيه الدويلات القائمة أسباب الفرقة والخلاف

ومن خلال العرض السابق لدويلات الطوائف القائمة في الأندلس، يمكن إجمال أهم السمات الأساسية المشتركة لهذا العصر بما يأتي:

1 - انفراط عرى الوحدة الوطنية، وتحول البلاد إلى وحدات أو كيانات صغيرة تسمى بدويلات الطوائف، تتميز كل منها بكيان خاص قائم على مبدأ الزعامة لأسرة من الأسر. والاعتماد على قوة عسكرية لتنفيذ أهدافها وإن كانت تلك القوة تتكون في معظم الأحيان من خليط من العناصر الموالية لهذه الأسرة أو تلك. ونظام الحكم قائم على أساس مبدأ الوراثة، وغالباً ما كان هذا النظام سبباً في حدوث النزاع بين أفراد الأسرة الواحدة، لا سيما عندما تقسم أملاك الدويلة بين أكثر من واحد من أبناء الحاكم.

2 - توجه جميع الدويلات القائمة نحو العمل لمصالحها الذاتية، دون أي حساب للقضايا القومية، أو حتى مصلحة الجماعة المنضوية تحت لوائها، وكان حكام هذه الدويلات ضعافاً في وطنيتهم ودينهم، ولم يولوا الكرامة الشخصية أي اهتمام فعندما سقطت بربشتر، وطليلة لم نجد من بين حكام هذه الدويلات من سارع إلى إنجائها، بل إن المقتدر بن هود لم يحرك ساكناً عندما سقطت بربشتر في يد النورمانديين لكونها من أملاك أخيه يوسف، وكان " بينهما نزاع شخصي " حتى أجبر أخيراً أمام غضبة وثورة الشعب إلى إرسال قواته وتطهير المدينة من دنس النورمانديين. أما طليلة فسقوطها هز الأندلس من أقصاها إلى أقصاها، ولم نجد من أولئك الحكام إلا المواقف المتخاذلة والمشينة.

3 - الصراع العنيف بين هذه الدويلات، لكسب ما يمكن كسبه من القلاع والحصون والمدن، وقد فقدت الأندلس جراء ذلك الصراع الألوف من أبنائها، وتعرض كثير من المناطق إلى الخراب والدمار، وفقد الأمن، وساءت الأحوال الاقتصادية نتيجة الاضطراب والفوضى التي كانت تصيب المناطق المتنازع عليها.

4 - دخول جميع دويلات الطوائف بشكل أو بآخر في سلسلة من المحالفات مع أمراء وملوك إسبانيا الشمالية أعداء الأندلس التقليديين، وأصبحت تلك المحالفات جزءاً من السياسة الخارجية لدويلات الطوائف، وغاية تلك المحالفات اقتسام أملاك الدويلات الأخرى، حتى باتت المحالفات تشكل خطراً كبيراً على معظم الدويلات مادياً، نتيجة دفع الأموال الكبيرة لتلك الدويلات مقابل مساعدات معينة، ومعنوياً لتدخلها في سياسة الدويلات القائمة في الأندلس حتى فقدت أكثر الدويلات استقلالها الذاتي، بل وأصبح رؤساؤها يرسمون سياساتهم العدائية للنيل من الدويلات الأخرى، وكان ذلك هدف سعت إليه الممالك الإسبانية الشمالية ومنذ البداية لإضعاف كل طرف من الطرفين المتنازعين.

5 - حرص كافة حكام الطوائف على الإرتسام بسمات الملك والتلقب بشتى الألقاب الملوكية والسلطانية وزاد بعضهم أن اصطنع لدويلته وحكمه الشرعية والخلفية اللازمة لتسوية أعماله وفرض سلطانه على الآخرين، عن طريق تنصيب الخلفاء بطريقة تثير السخرية والاستهجان، كما فعل بنو عباد عندما نصبوا خلف الحصري وادعوا أنه الخليفة هشام المؤيد، وكاتبوا في ذلك حكام الطوائف يدعونهم لمبايعته والدخول في طاعته. أو كما فعل صاحب دانية والجزائر عندما نصب المعطي خليفة وهو شخص من العامة فبايعوه مقتفين بذلك دعوى بني عباد.

ويمكن القول ان كان ثمة من حسنة لهذه الدويلات وسمة إيجابية تذكر لها فهي توجهاتها العلمية " فقد كانت في الفترات القليلة التي تجانب فيها الحرب الأهلية تتمتع بقسط لا بأس به من الرخاء وتغمرها الحركة والنشاط، وكان ملوك الطوائف بالرغم من طغيانهم المطبق... من حماة العلوم والآداب وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسي والفكر الإسلامي بصفة عامة " .



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

اسم المحاضرة الثانية عشر باللغة العربية: الأندلس في عصر المرابطين والموحدين :

اسم المحاضرة الثانية عشر باللغة الإنكليزية : **Andalusia in the era of the Almoravids and Almohads** :

الأندلس في عصر المرابطين والموحدين :

- عصر المرابطين 484 - 540 هـ/ 1092 - 1145 م.

الأندلس ولاية مرابطية:

يرجع أصل المرابطين الى داعية المرابطين الديني عبد الله بن ياسين قوة سياسية من الملتهمين (المرابطين) خلال الأعوام 429 - 444 هـ، قامت هذه القوة خلال الفترة 444 هـ - 476 هـ بالقضاء على إمارات المغرب الأقصى المتنازعة ووحدتها سياسياً، قد دخلت هذه الدولة الفتية في علاقات متشابكة مع إمارة بني حماد في الجزائر، وإمارة بني زيري في تونس، ومع إمارات الطوائف بالأندلس وهي موضع البحث ..

تميز عصر دويلات الطوائف في الأندلس بالحروب المستمرة بين ملوك هذه الدويلات، كما تميز أيضاً بتبعية أغلبية أمراء الطوائف لملوك الإمارات الإسبانية في الشمال وأخص ولاءهم لألفونسو السادس ملك قشتالة، الذي اتخذ صوراً وأشكالاً مختلفة.

وعلى الرغم من سياسة الولاء هذه، إلا أنها لم تجد نفعاً، فقد كان هدف ألفونسو السادس إسقاط هذه الدويلات الواحدة بعد الأخرى، وكان هدفه الأول مدينة طليطلة قلب الأندلس، فسيطر عليها عام 478 هـ/ 1085 م بالتعاون مع جيوش إسبانية وأوروبية، واتخذها عاصمة لدولته، ومركزاً يشن منها الغارات المتكررة على مدن الأندلس المجاورة

إزاء هذا المصاب الجلل، تزعم صالح العلماء والفقهاء في الدعوة إلى توحيد الأندلس، من أجل رد كيد ألفونسو السادس، ووضع حد لمطامعه التوسعية على حساب الأراضي الأندلسية، إلا أن هذه الدعوة لم تأتِ بالنتيجة المطلوبة، أمام الانهيار النفسي لأكثر ملوك الطوائف ، فاتجهت أنظار الشعب وصالح العلماء وبعض الأمراء صوب المغرب الأقصى، باتجاه القوة الفتية التي ظهر كيانها السياسي وهي دولة المرابطين.

بعد سقوط مدينة طليطلة بيد الإسبان عام 478 هـ، ازداد عبث الإسبان في سائر أنحاء الأندلس، فقرر أمراء الطوائف -وعلى رأسهم المعتمد به عباد أمير إشبيلية- دعوة المرابطين من أجل رد خطر الإسبان، فجاءت هذه الدعوة بعد ثلاثة أشهر من سقوط مدينة طليطلة .

إن فترة تحول الأندلس إلى ولاية مرابطية مرت بالمراحل الآتية:

1 - الجهاد المشترك بين المرابطين وملوك الطوائف ضد الممالك الإسبانية 479 - 483 هـ.

كانت الخطوة الأولى التي اتخذها أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في هذا المجال هي العبور بقواته إلى الأندلس في ربيع الأول من عام 479 هـ/حزيران 1086 م من أجل نصره أهل الأندلس، والإعداد لإرجاع مدينة طليطلة إلى دولة الإسلام .

رحب ملوك الطوائف بهذه الخطوة، وساهموا بقواتهم من أجل الجهاد في سبيل الله، وإنقاذ الأندلس من خطر الإسبان. وبعد أن وحدوا الجهود سارت القوات المشتركة صوب سهل الزلاقة شمالي بطليوس بروح جهادية عالية. تمنى النفس بالنصر أو الاستشهاد في سبيل الله .

وفي الوقت نفسه كان ألفونسو السادس محاصراً مدينة سرقسطة قاعدة مملكة بني هود، فلما وصلت إلى مسامعه هذه الاستعدادات الإسلامية، ترك حصار سرقسطة وسار بقواته صوب بطليوس بعد أن أرسل صريخة إلى دول أوروبا التي سارعت بإرسال الإمدادات إليه . وبعد استعدادات عسكرية من الطرفين، وقعت معركة الزلاقة في يوم الجمعة، 12 رجب من عام 479 هـ/تشرين الأول 1086 م، انهزمت فيها قوى الإسبان والأوروبيين، وطعن ألفونسو السادس ملك قشتالة وهرب مع شلة من جنوده صوب مدينة طليطلة. وكانت معركة الزلاقة مع المعارك المهمة في بلد الأندلس، استبشاراً للمسلمين في العدوتين، على الرغم من عدم استرجاع مدينة طليطلة من سيطرة الإسبان .

بعد معركة الزلاقة رجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن ترك حاميات مرابطية في الأندلس تساعد القوات الأندلسية في التصدي لهجمات الإسبان التي بدأت تشن غاراتها على الأندلس انتقاماً لهزيمتها في الزلاقة. وفي الوقت نفسه ازداد عبث الإسبان الموجودين في حصن البيط في شرقي الأندلس، والذين كرروا هجماتهم على مدن لورقة ومرسية، فاستنجد المعتمد بن عباد، وبعض فقهاء الأندلس بأمير المرابطين يوسف به تاشفين مرة أخرى، فعبر إلى الأندلس ثانية في ربيع الأول من عام 481 هـ/1088 م وسار صوب حصن البيط، بعد أن توافدت إليه جيوش أمراء الطوائف . شددت القوات الإسلامية الحصار على هذا الحصن لمدة أربعة أشهر، وقد أعيته مناعة الحصن وحلول فصل الشتاء، فانسحبت هذه القوات صوب مدينة لورقة . وخلال هذه الفترة استعان الإسبان المحاصرون في الحصن بملكهم ألفونسو السادس الذي أنجدهم مسرعاً وخلصهم من الخطر بعد أن دك أسوار الحصن، وانسحب صوب طليطلة لا يلوي على شيء، لأنه كان يخشى أن تتكرر هزيمة الزلاقة .

تخلصت القوات الإسلامية من خطر حصن البيط دون الدخول في معركة حاسمة، ورجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن ترك حاميات مرابطية بالأندلس تتصدى لهجمات الإسبان وبخاصة في الشرق. وكان من نتائج عبور أمير المرابطين إلى الأندلس اكتشاف الخلافات العميقة بين ملوك الطوائف، التي توحدتها ظاهرياً مخاطر الإسبان، إلا أنه سرعان ما تعود هذه الخلافات من جديد، بالإضافة إلى التعاون السري بين بعض ملوك الطوائف وألفونسو السادس ملك قشتالة. فكان على يوسف بن تاشفين أن ينسحب من ميدان المعركة ويترك الأندلس فريسة للإسبان، أو أن يعتمد على نفسه وقواته فقط لمواصلة الجهاد، ويتطلب هذا الأمر خلع ملوك الطوائف.

2 - خلع ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس تحت سيادة المرابطين:

قرر أمير المرابطين يوسف بن تاشفين خلع أمراء الطوائف، والاعتماد على نفسه في مواجهة خطر الإسبان، وقد دفعه إلى هذا العمل عدة أمور:

أ - الخلافات الشديدة والمنازعات بين ملوك الطوائف، وقد فشلت جميع جهود يوسف بن تاشفين في إزالة هذه الخلافات .

ب - الموقف الحرج الذي أحاط بالقوات المرابطية الموجودة في بلد الأندلس، حيث قطع ملوك الطوائف الميرة والتموين عن هذه القوات، فأخرج مركزها، فساء هذا الأمر يوسف بن تاشفين .

ج - قدم المرابطون تضحيات كبيرة في سبيل إنقاذ بلد الأندلس من الخطر الإسباني في معارك الزلافة وحصن البيطر. وقد اعتبر ملوك الطوائف هذه التضحيات أموراً فرضتها الأخوة الإسلامية، وبذلك عاد هؤلاء الملوك إلى منازعاتهم، كما عادوا إلى التعاون مع ملوك الإسبان والارتقاء في أحضانهم، بل تطور الأمر إلى الكيد لقوات المرابطين الموجودة في بلد الأندلس .

بعد أن اطمأن يوسف بن تاشفين إلى الأسباب التي تمكنه من خلع ملوك الطوائف، عزز هذا الأمر بصفة شرعية حيث أفتى الفقهاء بالأمر. وكان أهل الأندلس يدركون أن الانتصار في معركة البيطر لم يكن بالمستوى الجهادي المطلوب، وقد أكد الفقهاء لعامة الشعب أن الخصومات بين ملوك الطوائف هي السبب في ذلك كله .

عزز يوسف بن تاشفين موقفه حيال خلع ملوك الطوائف من ناحيتين:

الأولى: الحصول على فتاوى فقهاء المشرق الإسلامي أمثال الغزالي والطرطوشي، قد وصلت فتاواهم إليه عام

493 هـ، وقد بدأ فعلاً بخلع ملوك الطوائف منذ عام 483 هـ.

والثانية: الحصول على تأييد فقهاء الأندلس وعامة الناس الذين أكثروا من شكاوهم إليه بعد العبور الثاني، وكشفوا ليوسف بن تاشفين النقب عن سوء ومكر ملوك الطوائف، وحرصوه على خلعهم، وكان على رأس هؤلاء الفقهاء (أبو جعفر بن القليعي) قاضي قرطبة، الذي عبر إلى المغرب وأخبر أمير المرابطين ببعض الأمور التي تتعلق بملوك الطوائف وبخاصة الأمير عبد الله بن بلقين ملك غرناطة .

تضافرت العوامل التي اعتمدها أمير المرابطين في خلع ملوك الطوائف فعبر بقواته إلى الأندلس في أوائل عام 483 هـ. ولم يبدأ بعزل ملوك الطوائف، بل بدأ بمحاربة الإسبان ليقطع أي اتصال لهم مع حلفائهم من ملوك الطوائف . فسار يوسف بن تاشفين بقواته صوب مدينة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة وشدد حولها الحصار، ووصل في زحفه إلى مدن الحدود مما يلي شمالي طليطلة، ثم حاصر مدينة قلعة رباح الواقعة على الطريق المؤدية إلى مملكة قشتالة .

تصدى لهذا الزحف المرابطي ألفونسو السادس ملك قشتالة فانسحبت القوات المرابطية دون أن تدخل في معركة حاسمة مع الإسبان، ولم تشترك القوات الأندلسية في هذه الحملة، مما أدى إلى تدمير يوسف بن تاشفين، إضافة إلى أن ملوك الطوائف أحسوا بنوايا يوسف بن تاشفين نحوهم فباتوا يترقبون الأمور الجسام .

عاد أمير المرابطين بقواته من أحواز طليطلة صوب الجنوب، بعد أن قطع الصلة بين ملوك الطوائف والإسبان ليضع بداية النهاية لملوك الطوائف.

- القضاء على ممالك الطوائف 483 - 509 هـ :

ثمة ظاهرتان يمكن ملاحظتهما في هذا الموضوع:

الأولى: -

إن أكثر ممالك الطوائف سيطرت عليها القوات المرابطية نتيجة تعاون ملوكها مع الإسبان وموقفهم المضاد للمرابطين، ولهذا سيطرت القوات المرابطية على هذه الممالك تبعاً:

فسيطرت على مملكة غرناطة عام 483 هـ/1090 م، وعلى مملكة إشبيلية عام 483 - 484 هـ/1091 م، وعلى مملكة المرية عام 484 هـ/1091 م، وعلى مملكة مرسية عام 484 هـ/1091 م وعلى مملكة بطليوس عام 488 هـ/1095 م، وعلى إمارة البونت عام 496 هـ/1103 م، وعلى إمارة شنتمرية الشرق (سهلة بني رزين) عام 497 هـ/1104 م، وعلى مملكة سرقسطة عام 503 هـ/1110 م. وقد تمت هذه السيطرة بعد جهود كبيرة قامت بها القوات المرابطية في مقاومة الخطر الإسباني المساعد لملوك الطوائف أولاً، وبمقاومة ملوك الطوائف الذين تصدوا للقوات المرابطية ثانياً.

الثانية: -

إن بعض ممالك الطوائف مثل مملكة بلنسية ومملكة الجزائر الشرقية دخلتها القوات المرابطية لإنقاذها من خطر هجمات الإسبان، أي أن هذه الممالك هي التي طلبت العون من المرابطين فبعد أن كانت مملكة بلنسية مسرحاً لهجمات الإسبان 479 - 495 هـ وخاصة هجمات السيد الكمبيادور (فارس قشتالي مغامر)، الذي عاث في المنطقة فساداً، وأرهب أهلها، وتصدى للقوات المرابطية خلال هذه الفترة الطويلة.

وبعد موت الكمبيادور عام 492 هـ/1099 م تعاونت زوجته خمينا مع ألفونسو السادس من أجل التصدي للقوات المرابطية التي دخلت المدينة عام 495 هـ/1102 م بعد إرهاب شديد فوجدوها أطلالاً دارسة. أما الجزائر الشرقية (البليار) فقد تعرضت لهجمات الأساطيل الإسبانية والإيطالية في عام 508 هـ/1114 م، وبعد مقاومة عنيفة دخلت هذه الأساطيل أهم جزرها وهي جزيرة ميورقة وعملت فيها الخراب والدمار. فاستعان أهل الجزائر الشرقية بالمرابطين الذين أنجدوهم بأسطول بحري دخل الجزائر في عام 509 هـ/1116 م وبذلك تدخلت الجزائر الشرقية في حوزة المرابطين.

ترك جهاد المرابطين للممالك الإسبانية 483 - 542 هـ:

كانت الممالك الإسبانية المعاصرة لهذه الفترة هي:

أ - مملكة قشتالة وليون 483 - 542 هـ وكان أشهر ملوكها:

1 - ألفونسو السادس 458 - 502 هـ/1065 - 1109 م.

2 - أوراقة ابنته 502 - 520 هـ/1065 - 1126 م.

3 - ألفونسو السابع (السليطين) 520 - 552 هـ/1126 - 1157 م.

يبدو لنا من استعراض الروايات التاريخية التي تناولت المعارك العسكرية بين المرابطين ومملكة قشتالة وليون خلال هذه الفترة، أن هذه المعارك مرت في مرحلتين:

المرحلة الأولى 483 - 523 هـ:

في هذه المرحلة كان التفوق العسكري للجيش المرابطية التي بادرت بالهجوم على مدينة طليطلة عاصمة قشتالة وأحوازها، فاسترجعت بعض المدن والحصون المحيطة بها، كما انتصرت القوات المرابطية على القوات القشتالية في معركة حاسمة وهي معركة اقليش الواقعة شرقي طليطلة في عام 501 هـ/1108 م حيث انهزمت فيها القوات الإسبانية وقتل قائدها الأمير (سانشو) ابن ألفونسو السادس. وبعد هذا الانتصار كررت القوات المرابطية هجومها على مدينة طليطلة وأوشكت أن تسترجعها إلى دولة الإسلام وبخاصة في عام 507 هـ/1114 م.

المرحلة الثانية 523 - 542 هـ:

بعد أن خسرت القوات المرابطية في معركة القلاعة عام 523 هـ أمام هجمات قوات مملكة أرغون الإسبانية (سنذكرها فيما بعد)، بدأت قوات مملكة قشتالة بتكرار الهجوم المستمر على مدن الأندلس بقيادة ملكها الطموح (السليطين)، ويبدو لنا أن القوات القشتالية اتخذت لها عدة محاور، من أهمها:

أ - محور قرطبة، حيث قامت القوات الإسبانية بمهاجمة قرطبة وأحوازها عدة مرات في عام 524 هـ/1130 م، وفي عام 528 هـ/1133 م وفي عام 536 هـ/1142 م، وفي عام 538 هـ/1143.

ب - محور إشبيلية، قامت القوات القشتالية بمهاجمة إشبيلية والمدن المجاورة لها في عام 526 هـ/1132 م، وفي عام 536 هـ/1142 م وعام 538 هـ/1143 م.

ج - محور بطليوس وغربي الأندلس، قامت هذه القوات بهجومها عام 528 هـ/1134 م، وفي عام 532 هـ/1137 م، وفي عام 536 هـ/1142 م.

وبلغ من شدة هجوم القوات القشتالية، أنها وصلت إلى أحواز مدن قرطبة وإشبيلية وألقت الرعب في نفوس أهلها، ولا ينكر دور القوات المرابطية في هذه الفترة التي كرست جل استعدادتها العسكرية من أجل التصدي للقوات الإسبانية، وكانت القوات المرابطية في أغلب الأحيان تنتزع النصر من القوات القشتالية انتزاعاً، وفي بعض الأحيان خسرت المعارك وفقدت خيرة رجالها وقادتها. ومما عرقل مساعي المرابطين الجهادية هذه، نشاط الموحدين في عدوة المغرب وبداية سيطرتهم على أهم المدن والحصون المرابطية، وكذلك بسبب الثورات المتعاقبة التي قامت في بلد الأندلس وتهدف إلى تخليص الأندلس من الحكم المرابطي ..

ب - مملكة البرتغال 483 - 542 هـ:

إن جهاد المرابطين مع مملكة البرتغال مر في مرحلتين:

المرحلة الأولى: 483 - 533 هـ:

ففي هذه المرحلة اتخذت القوات المرابطية من مدينة بطليوس قاعدة عسكرية تخرج منها الحملات الجهادية صوب الشمال إلى أراضي مملكة البرتغال، فاستطاعت القوات المرابطية استرجاع بعض المدن المهمة من سيطرة الإسبان ومن أهمها مدن: يابرة واشبونة م وشنترين وذلك في عام 505 هـ/1112 م، ومدينة قلمرية وذلك في عام 511 هـ/1117 م ..

المرحلة الثانية 533 - 542 هـ:

بعد الصلح الذي تم بين ملك قشتالة (السليطين) وملك البرتغال (ابن الرنك) عام 533 هـ/1139 م وجه ملك البرتغال جهوده من أجل السيطرة على بعض القواعد الأندلسية القريبة من حدود إمارته. فتصدى للقوات المرابطية في غربي الأندلس وانتصر عليها في موقعة (أوريك) على ضفة نهر التاجة. كما استغلت إمارة البرتغال ثورة أهل الأندلس على المرابطين، فسيطرت على مدن شنترين وباجة وماردة واشبونة، أي إنها استرجعت معظم المدن التي استردها المرابطون في المرحلة الأولى ..

ج - مملكة برشلونة 483 - 542 هـ:

واصلت مملكة برشلونة الإسبانية توسعها على حساب أراضي الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) منذ عام 483 هـ/1090م، حيث سيطرت على مدينة طركونة، وفق حملة صليبية باركها البابا أوربان الثاني . وقد حاولت القوات المرابطية عدة مرات استرجاع ثغر طركونة وبرشلونة، حيث أرسلت القوات المرابطية البرية في عام 495 هـ/1102 م وفي عام 508 هـ/1115 م إلى برشلونة وتوغلت في أراضيها، إلا أنه كان نصراً محدوداً وخسر المرابطون خيرة رجالهم في هذه الحملات . كما أرسلت حملات مرابطية بحرية إلى منطقة برشلونة، وأسرت الكثير من أهلها وبخاصة (البربتير) -الذي دخل في خدمة المرابطين فيما بعد- وذلك في عام 511 هـ/1117 م . وبعد سقوط المرية بيد الإسبان عام 542 هـ شجعهم الأمر على غزو مدينة طرطوشة، التي كان لها أهمية عند الإسبان باعتبارها أعظم ثغور الشمال الشرقي البحرية، كما كانت مأوى المسلمين المجاهدين الذين كثيراً ما كانوا يرابطون في هذا الثغر، ويكررون هجماتهم على مملكة برشلونة وأرغون وشواطئ فرنسا، حتى اعتقدت الممالك الإسبانية أن المسلمين بطرطوشة ربما يستطيعون إسقاط مملكة برشلونة ومملكة أرغون، بل ربما يستطيعون أن يرجعوا سرقسطة إلى عهدها الإسلامي .

لهذا ركزت مملكة برشلونة على مدينة طرطوشة، فهاجمتها بقوات إسبانية وأوروبية باركها البابا، فسيطرت عليها عام 543 هـ/1148 م .

د - مملكة أرغون 483 - 542 هـ:

وأشهر ملوك هذه المملكة الإسبانية:

ورث عرش أرغون بعد أن تنازل الراهب عن هذا العرش إلى صهره ملك برشلونة ولذا لقب ملك برشلونة هذا (كونت برشلونة وأمير أرغون) .

ومما يلاحظ في هذا المجال أن ألفونسو السابع (السليطين) ملك قشتالة فرض نوعاً من الهيمنة والسيطرة على بقية أمراء الممالك الإسبانية. فقد اعترف ملك أرغون (الراهب راميرو 529 - 532 هـ) بأنه يحكم أرغون في ظل ملك قشتالة، وأعلن الاعتراف نفسه ملك النافار، كما أعلن رامون برنجير الرابع ملك برشلونة الاعتراف نفسه . وكرر هذا الملك محاولاته من أجل استرجاع أهم قواعد الثغر الأعلى فبدأ منذ عام 503 هـ/1110 م يهاجم سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى والمدن الأخرى، فقام بمحاولتين في عام 504 هـ/1111 م من أجل السيطرة على سرقسطة ففشل .

ونتيجة لسقوط بيت المقدس بيد الأوروبيين عام 492 هـ/1099 م، عبرت قوات أوروبية إلى إسبانيا وبدأت تعاون ملك أرغون من أجل استرداد أهم المدن الأندلسية، فبدأ ألفونسو المحارب بمحاصرة مدينة تطيلة عام 511 هـ/1117 م واحتلها، وبذلك انهار الخط الدفاعي لمدينة سرقسطة. وفي عام 512 هـ/1118 م شدد الحصار على مدينة سرقسطة، تساعده قوات أوروبية، واستمر هذا الحصار زهاء سبعة أشهر، وحاصر الإسبان المدينة اقتصادياً إلى جانب الهجمات المتكررة عليها. ففي رمضان من عام 512 هـ/1118 م دخل ألفونسو المحارب وحلفاؤه المدينة، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة سميت بكنيسة (لاسيو Laseo) ، واتخذ من مدينة سرقسطة عاصمة لمملكة أرغون الإسبانية. وبسقوط سرقسطة أصبحت قواعد الثغر الأعلى الأخرى مهددة أمام زحف ألفونسو المحارب، الذي سيطر على مدينة روطة المنيعية في العام نفسه. ثم سيطر في عام 513 هـ/1120 م على مدينة طرسونة، كما فرض سيطرته على مدينة قلعة أيوب وكانت أمنع ما تبقى من معاقل الثغر الأعلى .

وإزاء هذه الانتصارات المتلاحقة التي أحرزها ألفونسو المحارب، ازداد نشاطه العسكري في السيطرة على المعاقل المنيعية في منطقة الثغر الأعلى، ففي عام 514 هـ/1120 م انتصر على القوات المرابطية في معركة قتنده، في حيز دروكة من عمل سرقسطة، واستشهد من المسلمين الآلاف ومن بينهم العديد من الفقهاء والعلماء . كما قام ملك أرغون ألفونسو المحارب بحملته المدمرة عام 519 - 520 هـ والتي اخترق بها بلد الأندلس من أقصاه إلى أقصاه متحدياً المسلمين فيها ومتعاوناً مع بعض معاهدي الإسبان الذين سهلوا له هذه المهمة، وكانت هذه الحملة، حملة تحذ كشفت عن ضعف الدفاع في الأندلس، وأن خطط المرابطين منذ نكبة سرقسطة وقتنده لم تكن كفيلة بصد عدوان الإسبان، كما كشفت عن مبلغ خطر المعاهدين الإسبان الذين نعموا بالسلام والأمن في ظل الحكم العربي بالأندلس .

ومن المعارك الأخرى المهمة التي انتصر فيها ألفونسو المحارب على القوات المرابطية هي معركة القلاعة عام 323 هـ/1129 م الواقعة في شرقي الأندلس، وفتحت الأبواب أمام شدة الهجمات الإسبانية على مدينة بلنسية وما جاورها من الحصون .

بعد أن تجاوز ألفونسو المحارب خلافاته مع ملك قشتالة (السليطين) عام 524 هـ/1130 م، جهز قواته صوب ما تبقى من قواعد الثغر الأعلى، وكان هدفه الاستيلاء على لاردة وإفراغة ومكناسة، ثم الاستيلاء على ثغر

طرطوشة. فهاجم مدينة مكناسة عام 527 هـ/1133 م وسلمت أمورها للملك الإسباني، ثم زحف نحو مدينة إفراغة فتصدت له القوات المرابطية، ودارت تحت أسوار هذه المدينة معركة من أعنف المعارك في هذه الفترة انتصر بها المرابطون لأول مرة، ضد ملك أرغون في رمضان من عام 528 هـ/17 تموز 1134 م، وبعد هذه المعركة مات ألفونسو المحارب بأيام. وقد كان لنصر المرابطين في إفراغة صدى عميق في سائر أنحاء الأندلس، حيث أعادت للمرابطين سمعتهم العسكرية، ولو أنهم لم يستغلوا هذا النصر ويزحفوا إلى سرقسطة من أجل إرجاعها إلى دولة الإسلام.

أما بقية مدن الثغر الأعلى مثل لاردة وإفراغة وأقليش فقد سقطت بيد الإسبان عام 544 هـ/1149 م.

الأندلس ولاية موحدية 540 - 620 هـ/1145 - 1223 م:

تضافرت عوامل متعددة في إضعاف المرابطين سواء في شمال أفريقيا أو في الأندلس، ولعل ضعف الأمراء الذين تولوا الحكم بعد علي بن يوسف بن تاشفين (500 - 537 هـ) كان في مقدمة الأسباب، بالإضافة إلى ظهور نشاط الموحدين في عدوة المغرب، هذا النشاط الذي مر في مرحلتين:

الأولى:

مرحلة أبي عبد الله محمد بن تومرت، وقد بدأت هذه المرحلة من عام 515 هـ إلى عام 524 هـ. وقد أسس محمد بن تومرت دعوة على أساس ديني قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أساس قبلي وهو الصراع بين القبائل البربرية قبيلة لمتونة (المرابطين)، وقبيلة هرغة من مصمودة (الموحدين). واتخذ محمد بن تومرت حصن (تينمل) مقراً له ولدعوته، وحاولت القوات المرابطية في هذه المرحلة السيطرة على هذا الحصن ففشلت ..

الثانية:

مرحلة عبد المؤمن بن علي 524 - 543 هـ والتي توجت بسقوط دولة المرابطين، وقيام دولة الموحدين، وذلك من خلال معارك دامية يطول شرحها.

وفي الأندلس منيت القوات المرابطية بهزائم متكررة أمام القوات الإسبانية، واستطاعت الممالك الإسبانية استرداد أهم المدن والقواعد الأندلسية تباعاً، كما وضحنا ذلك. إضافة إلى قيام بعض حركات التمرد ضدهم والتي عرفت باسم حركات المريرين وبخاصة في الجنوب الغربي من الأندلس، ومثل هذه الحركات، وبأهداف مختلفة قامت في شرقي الأندلس، وفي وسط وجنوب الأندلس. ويتبين لنا من خلال دراسة هذه الحركات التي قامت بين الأعوام 539 - 541 هـ، وهي سنة عبور الموحدين إلى الأندلس، أن أكثر ثوار الأندلس ضد المرابطين هم من الفقهاء والقضاة وأعلام الأدب، وهذا يعود إلى المركز والنفوذ اللذين تمتعوا بهما في ظل دولة المرابطين، حتى تركزت فيهم عناصر الزعامة المحلية، فلما بدأ سلطان المرابطين بالأفول كما ذكرنا، قام هؤلاء الفقهاء والعلماء بحركاتهم من أجل استرداد سلطانهم القومي، إلا أن معظم هذه الحركات تم القضاء عليها إما بواسطة القوات المرابطية الموجودة في ولاية الأندلس، أو بانضواء قادتها تحت لواء الدولة الموحدية.

أ - عبور الموحدين إلى الأندلس:

كان أول جيش أرسله الموحدون إلى الأندلس في عام 541 هـ وذلك من أجل إزالة

ما بقي فيها للمرابطين من سلطان، ومن أجل القضاء على الزعامات المحلية التي ظهرت في الأندلس في خاتمة حكم المرابطين. ولعل في مقدمة الأسباب التي دفعت الموحدين إلى ذلك، الحفاظ على كيان الإسلام في بلد الأندلس، إضافة إلى الحفاظ على كيانهم في عدوة المغرب من هجوم مرابطي محتمل من الأندلس. ومما شجعهم على التطلع لبلد الأندلس أيضاً الدعوات الرسمية والشخصية التي تلقوها من العلماء والحكام المحليين الذين رحبوا بقدوم الموحدين، وفي مقدمتهم: علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول في مدينة قانس، والثائر ابن حمدين القاضي زعيم ثورة قرطبة، والثائر أبو الغمر بن عزون زعيم ثورة مدينة شريش على المرابطين وغيرهم كثير ..

على أثر ذلك قرر عبد المؤمن بن علي إرسال ثلاثة جيوش إلى الأندلس عبرت في عام 541 هـ/1146 م وسيطرت على مدن الجنوب مثال طريف والجزيرة الخضراء، كما أعلن أهل شريش ولاءهم للموحدين، وقد سماهم الموحدون تقديراً لذلك (السابقون الأولون).

ثم زحفت القوات الموحدية إلى غربي الأندلس، فسيطرت على مدن لبلبة وبظليوس وشلب وباجة ويايرة بكل سهولة حيث أعلن حكامها الولاء للوفاة الجديد. إلا أن المدينة المهمة التي امتنعت على الموحدين في غربي الأندلس، والتي شددوا عليها الحصار براً وبحراً هي مدينة إشبيلية، إلا أن القوات الموحدية اقتحمتها في شهر شعبان من عام 541 هـ/1147 م بعد أن أبيدت بعض القوات المرابطية فيها .

إلا أن معظم مدن غربي الأندلس -ما عدا شريش- تمردت على الحكم الموحد، وكان هذا التمرد بزعامة مدينة إشبيلية التي انهزمت منها القوات الموحدية.

ولما وصلت هذه الأنباء إلى عبد المؤمن بن علي في عدوة المغرب، أرسل جيشاً جديداً إلى الأندلس أعاد السيطرة على معظم مدن غربي الأندلس . واستطاعت الجيوش الموحدية السيطرة على مدينة قرطبة، بعد تفاهم وتعاون مع حاكم قرطبة (يحيى بن غانية المرابطي) الذي فضل التعاون مع الموحدين من أجل التخلص من خطر الإشبانية ملك قشتالة، فدخلت القوات الموحدية قرطبة في عام 543 هـ/1148 م .

ومن قرطبة أخذت القوات الموحدية ترسل سراياها إلى المدن والحصون المجاورة في وسط الأندلس، فسيطرت على مدينة أبدة وبياسة، وسيطرت بعض السرايا الأخرى على حصن شلير وأركش وبرشانة . وقام صاحب مالقة (أبو الحكم بن حسون)، الذي كان يخشى هجمات بقايا القوات المرابطية القريبة منه، ويخشى كذلك الخطر الموحد، فتعاون مع الجند الإشبانية لرد هذه المخاطر، لكن سكان المدينة ثاروا عليه فقتلوه في عام 547 هـ/1152 م، وبعدها دخلت القوات الموحدية مدينة مالقة .

وبقيت مدينة غرناطة آخر معاقل المرابطين في الأندلس، فحاول يحيى بن غانية المرابطي إقناع حاكم غرناطة المرابطي (ميمون بن بدر اللمتوني) بالاستسلام للموحدين، فامتنع ميمون بشدة. وفي هذه الفترة مات يحيى بن غانية في عام 343 هـ/1148 م، واستمر ميمون حاكم غرناطة في عناده إلى عام 551 هـ 1156 م فنزل عن مدينة غرناطة للموحدين بعد أن حصل على الأمان من زعيم الموحدين الخليفة عبد المؤمن بن علي .

انتهز الإسبان ثورة أهل الأندلس على المرابطين، فاستولوا على مدينة المرية في عام 542 هـ/1147 م، وأصرت القوات الموحدية بعد سيطرتها على مدن وسط الأندلس على استرجاع هذه المدينة البحرية المهمة، فجهزت قواتها البرية وأساطيلها البحرية وحاصرت المدينة بقيادة أبي سعيد والي غرناطة الموحد، وهو ابن الخليفة عبد المؤمن، وبعد حصار دام سبعة أشهر فتح الموحدون المدينة ودخلوها في أواخر عام 552 هـ/1157 م بعد أن فشلت جهود الممالك الإسبانية وأعوانها من القوات الأوروبية في استرجاع المدينة .

- علاقات الموحدين السياسية بالإمارات الأندلسية المستقلة:

1 - علاقة الموحدين مع ابن مردنيش أمير شرقي الأندلس:

استطاع أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي بالولاء (وهو من المولدين) ، بالتعاون مع إبراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك (المقطوع الأذن)، الاستقلال في منطقة شرقي الأندلس، وعزز هذا الأمر بالتعاون مع الممالك الإسبانية وبعض الدول الأوروبية، ففي عام 543 هـ/1148 م عقد معاهدة صلح مع جمهورية بيزا مدتها عشر سنوات، وكذلك مع جمهورية جنوه، وجرت الهدايا المتبادلة بينه وبين ملك انكلترا، وبسبب هذا التعاون لقبه البابا بـ (صاحب الذكر الحميد)، وعرف أيضاً باسم الملك .

أوجدت معاهدة تطيلة التي عقدت بين ملك قشتالة وملك أرغون عام 545 هـ/ 1151 م والتي اتفق الملكان فيها على تقسيم بلاد الأندلس، فكان نصيب ملك أرغون شرقي الأندلس والاستيلاء عليها يشترط أن يتولى حكم مدينتي مرسية وبلنسية بصفته تابعاً لملك قشتالة، حالة من الذعر عند ابن مردنيش الذي أسرع إلى عقد محالفات مع هذين الملكين تعهد بأن يدفع خمسين ألف مثقال ذهباً سنوياً إلى كل منهما .

ونتيجة لارتداء ابن مردنيش في أحضان الإسبان، ثار عليه أهل شرقي الأندلس وبخاصة أهل لورقة وبلنسية، واستطاع ابن مردنيش القضاء عليها، مما أغضب هذا الأمر الدولة الموحدية التي كانت لها علاقة بالثوار، ولهذا أرسل الخليفة عبد المؤمن رسالة إلى ابن مردنيش حول هذا الأمر . وبعد ذلك أخذ ابن مردنيش يغزو بلاد الأندلس التابعة للموحدين بغية الاستيلاء عليها، ففي عام 554 هـ/1160 م سار بقواته من مرسية بالتعاون مع قوات إسبانية، فسيطر على مدينة جيان ثم واصل سيره إلى مدينة قرطبة فشدد عليها الحصار ولم تقع بيده لضمود أهلها وواليتها.

ثم واصل سيره إلى مدينة إشبيلية فحاصرها ثلاثة أيام، ففشل في السيطرة عليها لقوة المقاومة أيضاً، وفي عام 555 هـ/1160 م بعث ابن مردنيش جيشاً بقيادة إبراهيم بن همشك للاستيلاء على قرطبة، فحاصرها ولاقت الأمرين من هذا الحصار، وقتل واليها بسبب كمين دبر له، إلا أن أهلها أحسنوا الدفاع عنها، وبعدها سار ابن همشك إلى مدينة قرمونة فاستولى عليها بالتعاون مع أحد زعمائها المدعو عبد الله بن شراحيل . وحاول ابن همشك السيطرة على إشبيلية فشدد عليها الحصار، وأنزل بها أفدح الخسائر، مما دعى واليها السيد أبا يعقوب يوسف أن يستنجد بوالده الخليفة عبد المؤمن. وكانت الخطوة الأولى التي قام بها عبد المؤمن بهذا الصدد هو المباشرة فوراً ببناء قاعدة حربية في جبل طارق عرفت باسم مدينة الفتح، انجز بناءها في شهر ذي القعدة من عام 555 هـ/1160 م وبعد الإنجاز عبر الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس واجتمع هناك بزعماء الموحدين والأندلسيين، وقبيل رجوعه أمر قواده بمواصلة غزو ابن مردنيش وقتاله .

فكانت أول مدينة استرجعها الموحدون من ابن مردنيش وحليفه ابن همشك هي مدين قرمونة وذلك في مطلع عام 557 هـ/1161 م .

عزز الموحدون قواتهم في مدن إشبيلية وقرطبة، فأصبح من العسير السيطرة عليهما من قبل قوات ابن مردنيش وحليفه، إلا أن الحليف ابن همشك سار صوب غرناطة وبالتعاون مع يهود المدينة ودخلها، فتحصن الموحدون في قصبته واستمروا في مقاومة الغزاة، وفي الوقت نفسه بعثوا صريخهم إلى الخليفة عبد المؤمن، وكذلك استنجد ابن همشك بحليفه ابن مردنيش، فسارت قوات الطرفين إلى غرناطة فكان اللقاء في مرج الرقاد (بظاهر غرناطة) فحلت الهزيمة بالموحدين وذلك في عام 557 هـ. ونكل ابن همشك بأهل غرناطة وأسرى الموحدين أشنع تنكيل ولما بلغت أخبار معركة مرج الرقاد الخليفة عبد المؤمن أرسل جيشاً كبيراً عبر إلى الأندلس وعهد بقيادته إلى ابنه أبييعقوب يوسف، اتجه صوب غرناطة من أجل استرجاعها. وفي الوقت نفسه سار ابن مردنيش -بعد أن وصلت إليه أنباء عبور هذا الجيش- صوب غرناطة لنجدة حليفه ابن همشك تعاونه قوات إسبانية، فعسكر قبالة غرناطة يفصله نهر حدرة عن حليفه. وبعد أن شحذت همم الموحدين هاجموا غرناطة في رجب من عام 557 هـ/1162 م انهزم فيها ابن همشك وقتل الكثير من قواته، فدخلت القوات الموحدية المدينة منتصرة، ولم يستطع ابن مردنيش تقديم المساعدات لحليفه، وكان يرى بأم عينيه هزيمة الحليف الذي لاحقته القوات الموحدية فأوقعت بقواته الخسائر الكبيرة.

عزم الموحدون على غزو بلاد ابن مردنيش والقضاء عليه، فكانت الخطوة الأولى التي اتخذوها في هذا المجال: أولاً نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة، وثانياً تحصين مدينة غرناطة، وثالثاً عبر الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس في ربيع الأول من عام 558 هـ/1163 م. ولكن هذه الأمور تعثرت بوفاة الخليفة الموحد في جمادى الآخرة من العام نفسه 558 هـ، وظهر الخلاف بين أولاده حول أمر الخلافة ولم يحل هذا الخلاف حتى عام 563 هـ، فاستفاد ابن مردنيش من هذه الأحوال، وسار بقواته صوب غرناطة، إلا أن القوات الموحدية تصدت له، فرجع ابن مردنيش منسحباً إلى بلاده .

وصلت إمدادات إضافية من المغرب إلى الأندلس، فسارت القوات الموحدية صوب بلاد ابن مردنيش في عام 560 هـ/1165 م فاتحة الحصون والقلاع الواقعة في الطريق، فوصلت إلى مشارف مدينة لورقة. فلما وصلت هذه الأخبار إلى ابن مردنيش خشي سقوط لورقة بيد الموحدين، فسار بقواته تعاونه فرقة من الإسبان صوب لورقة، والتي ارتد عنها الموحدون الذين ساروا صوب مرسية، فأسرع إليها ابن مردنيش، فكان اللقاء بين الطرفين في ذي الحجة من عام 560 هـ/تشرين الأول 1165 م، في معركة فحص الجلاب، فانهزم ابن مردنيش وانسحب إلى مرسية، فلحقه الموحدون وشددوا عليه الحصار، ثم انسحبوا دون أن تقدم لنا الروايات تعليلاً لذلك.

وفي عام 562 هـ/1167 م قام والي غرناطة الموحد بالسيطرة على بعض حصون ابن مردنيش أمثال حصن لبسة قرب وادي أش، وحصن بسطه، كما ألحق هذا الوالي هزائم متكررة بقوات ابن مردنيش وحلفائه الإسبان.

بدأ الضعف والوهن يدب في إمارة ابن مردنيش، وذلك بسبب: تدمير الرعية منه والتي أثقلها بالضرائب لسد وإشباع رغبات الفرق الإسبانية التي اعتمد عليها، مما جلبت له عداوة كبار قواده، إضافة إلى سوء العلاقات بين ابن مردنيش وصهره يوسف بن هلال، وإبراهيم بن همشك، فقامت الحروب والمنازعات فيما بينهما، فكان من نتائجها انضمام إبراهيم بن همشك إلى الموحدين .

استمرت الحروب أكثر من سنة بين الحليفين السابقين، وإزاء اشتداد هجمات ابن مردنيش، استغاث ابن همشك بالموحدين حتى عبر بنفسه إلى عدوة المغرب يطلب العون منهم، فأعانوه لما رأوا صدق عزمه. وعبر إبراهيم بن همشك مع القوات الموحدية التي عبرت إلى الأندلس لقتال ابن مردنيش في عام 566 هـ/1171 م، والتي استقرت في قرطبة، ثم واصلت سيرها إلى بلاد ابن مردنيش، ويمت صوب مرسية، بعد أن استولت على الحصون والقلاع الواقعة في الطريق بما فيها مدينة لورقة التي استتجت بالموحدين، وجزيرة شقر كذلك، كما خرجت طاعة المرية على ابن مردنيش وأعلنت الولاء والطاعة للموحدين .

خلال هذا الوقت كانت القوات الموحدية محاصرة لمدينة مرسية وأذاقت ابن مردنيش الأمرين. ولما عبر الخليفة الموحد أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس في عام 566 هـ/1171 م ونزل بإشبيلية، ذهب إليه أخوه السيد أبو حفص قائد الجيوش الموحدية المحاصرة لابن مردنيش وجلب معه الأعيان والولاة الذين أعلنوا الولاء للموحدين.

انتهز ابن مردنيش هذا الأمر فهاجم جزيرة شقر محاولاً استرجاعها إلا أنه فشل أمام ضربات واليها، فرجع إلى مرسية يعاني من مرضه الذي مات فيه عام 567 هـ . وتولس الأمر من بعده ابنه أبو القمر هلال الذي دخل في طاعة الموحدين بعد أن رأى بأن لا جدوى للعصيان .

2 - علاقة الموحدين مع بني غانية أمراء الجزائر الشرقية:

ينتمي بنو غانية حكام الجزائر الشرقية (البليار) إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية، واشتهر منهم يحيى ومحمد أولاد علي المسوفي، أحد رجالات أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وسموا بهذا الاسم نسبة إلى أمهم غانية، وهو تقليد مرابطي معروف.

وتولى يحيى ومحمد أعمالاً إدارية في الأندلس، واشتهر منهما محمد بن غانية الذي بعثه أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الجزائر الشرقية لإصلاح ما فسد من أمورها على يد الوالي المرابطي وأنور بن أبي بكر اللمتوني، وذلك في عام 520 هـ/112 م.

عاصر محمد بن علي المسوفي المعروف بابن غانية أفول نجم المرابطين في عدوة المغرب والأندلس، وقيام دولة الموحدين التي ورثت المرابطين في حكم بلاد العدوتين، فعزز ابن غانية حكمه في هذه الجزائر النائية واستمر ولاؤه للمرابطين ولدولة بني العباس، وأصبحت جزائره ملجأً للفارين من فلول لمتونة والمرابطين الذين لقوا الرعاية والأمان في ظل حكم هذه الأسرة، واستمر محمد بن غانية يحكم الجزائر الشرقية إلى عام 550 هـ/1155 م .

خلف محمد بن غانية أربعة أولاد، وهم عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة، فبعد منازعات بين هؤلاء الأخوة استطاع إسحاق أن يحكم هذه الجزر، واستمر على سياسة أبيه في استقبال فلول لمتونة الوافدين عليه . واعتمد إسحاق بن غانية على أسطول قوي، حسبت له الممالك الإسبانية وجمهوريات جنوه وبيزا والبندقية ألف حساب ودفع ملوكها الأموال الطائلة لهذا الأمير وعقدوا معه المعاهدات لضمان تحرك أساطيلهم

التجارية بحرية في حوض البحر المتوسط، وذلك في عام 572 هـ/1177 م .

كان بنو غانية في الجزائر الشرقية يشعرون بالأمان خلال قتال ابن مردنيش للموحدين، ولكن بعد وفاة ابن مردنيش وسيطرة الموحدين على شرقي الأندلس عام 567 هـ/1172 م، شعر إسحاق بن غانية بالخطر فأخذ في

مصانعة الموحدين والتودد إليهم بإرسال الهدايا الثمينة إلى حكامهم .

ثم بعث الموحدون كتبهم إلى إسحاق بن غانية في عام 578 هـ/1183 م يدعونه فيها إلى الدخول في طاعتهم، فامتنع عن ذلك بعد مشاورات طويلة مع أتباعه. ولما استشهد في عام 579 هـ/1184 م خلفه ابنه علي في الحكم، الذي استغل الظروف السيئة التي مرت بها دولة الموحدين والمتمثلة في فشل قواتهم أمام مدينة شنترين ومقتل خليفتهم أبي يعقوب يوسف (558 - 580 هـ) في عام 580 هـ/1184 م، ومبايعة الأمير الجديد أبي يوسف يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور (580 - 595 هـ)، وانشقاق بني عبد المؤمن على أنفسهم وامتناع بعضهم عن البيعة للأمير الجديد، فشجعت هذه الظروف علي بن إسحاق بن غانية على التمرد على دولة الموحدين، بل وأكثر من ذلك شحن قواته البحرية وقرر مهاجمة مدينة بجاية قاعدة الحكم في المغرب الأوسط .

هاجم علي بن إسحاق إلى مهاجمة بجاية، سار الأمير علي بن إسحاق بالأسطول الذي يقوده رشيد الرومي، ونزل بجاية فسيطر عليها بسهولة لخلوها من وسائل الدفاع، وذلك في عام 580 هـ - 581 هـ/1184 - 1185 م .

تصدى والي بجاية الموحد (أبو الربيع سليمان) للقوات الغازية، فانهزم أمامها إلى تلمسان فتحصن بها تحسباً للظروف. وبعدها فتح بقية المدن.

ولما علم الخليفة الموحد المنصور (580 - 595 هـ) جهز جيشاً برياً قوياً وعهد قيادته إلى ابن عمه السيد أبي زيد بن أبي حفص، وجهز الأسطول البحري الذي خرج من سبتة معانواً الجيش البري وفق خطة حربية واحدة.

استطاعت الجيوش الموحدية المشتركة استرجاع المدن التي استولى عليها ابن غانية تباعاً، ودمرت الأسطول البحري وأسرت قائده رشيداً الرومي وذلك في عام 581 هـ/1185 م، فهرب علي بن إسحاق وأخوه يحيى وأعوانهما إلى جوف الصحراء فعجز الموحدون عن اللحاق بهم .

وصل بنو غانية إلى منطقة الواحات ببلاد الجريد وكسبوا ود قبائل العرب من بني رياح وبني جشم بالعطايا والهبات، وفي هذه الأثناء بلغ علي بن إسحاق بن غانية نزول شرف الدين قراقوش بقواته الغز بلدة الحامة في جهات طرابلس، فراسله من أجل التعاون بينهما لرفع راية بني العباس هناك، واتفقا على تقسيم البلاد التي يستوليان عليها سوية، فالبلاد الواقعة غربي بونة أي المغربين الأوسط والأقصى من حق علي بن إسحاق بن غانية، وأما البلاد الواقعة شرقي بونة فمن حق قراقوش، وكان هذا الاتفاق في عام 581 هـ/1185 م .

وبعد هذا الاتفاق حاول علي بن إسحاق السيطرة على البلاد التي أصبحت من ضمن حقه، فهاجم مدينة أشير واستولى عليها، إلا أن القوات الموحدية استرجعت المدينة بعد مقتل قائد الجيش المهاجم. ثم سار علي بن غانية إلى مدينة توزر فاستولى عليها بعد عناء وذلك في عام 582 هـ/1186 م ، ثم قصد جزيرة باشر وهي بالقرب من تونس فاستولى عليها، ثم حاصر مدينة تونس، ولكن يبدو أن علي بن غانية قد فشل في الاستيلاء عليها، فقصد في عام 582 هـ مدينة قفصة فحاصرها واستولى عليها بمعاونة أهلها .

وفي الوقت نفسه استولى قراقوش بمعاونة بعض العرب من بني ذياب على جبل نفوسة ثم سار يساعده مسعود بن زمام شيخ بني رياح وسيطر على طرابلس وما جاورها .

وبعد ذلك انضم قراقوش بقواته إلى قوات علي بن إسحاق بن غانية فقصدوا بلاد أفريقية (دولة تونس) فملكوها جميعاً ما عدا مدينتي تونس والمهدية لقوة تحصيناتها، وبعدها تلقب علي بن غانية بلقب أمير المسلمين وأقام الدعوة للخلافة العباسية في هذه البلاد ، واتبع ذلك سفارة ابنه وكاتبه عبد البر إلى بغداد فلقيا الترحاب من الخليفة الناصر الذي طلب بدوره من صلاح الدين الأيوبي أن يناصر بني غانية في أعمالهم.

رأى الخليفة المنصور الموحد أن أمر بني غانية وحليفهم قراقوش بلغ درجة كبيرة من الخطورة، فسار بقواته في عام 582 هـ/1186 م صوب تونس، وبعد أن استراح فيها بدأ بإرسال قواته لمقاتلة بني غانية المرابطين قرب مدينة قفصة، فأوقع بنو غانية هزيمة منكرة بالقوات الموحدية التي رجعت فلولها مدحورة إلى تونس، وذلك في عام 583 هـ/1187 م ، وعرفت هذه المعركة بمعركة سهل عمرة .

كان لهزيمة سهل عمرة وقع مؤثر في نفس الخليفة المنصور الموحد الذي سار بنفسه من تونس في رجب من عام 583 هـ/1187 م واتجه جنوباً صوب القيروان، ومن هناك بعث كتاباً إلى ابن غانية وحلفائه يندرهم بوجوب الدخول في الطاعة، فلم يكتف علي بن غانية بعدم رد الجواب بل اعتقل أيضاً سفير الخليفة الموحد.

بعدها سار المنصور بقواته صوب الحمة فنشبت المعركة بين الطرفين في شعبان من عام 583 هـ/1187 م وانتهت هذه المعركة بهزيمة ابن غانية وحليفه قراقوش، حيث استطاع خليفة الموحدين دخول قابس فسيطر على اتباع قراقوش وماله من ذخائر ومتاع، فأرسلها جميعاً إلى مراكش . ثم سار الخليفة المنصور صوب مدينة توزر ففتحها ثم دخل مدينة قفصة وأرجعها إلى الطاعة، ثم رجع إلى مدينة تونس.

نتيجة انتصار خليفة الموحدين هذا، خذل قراقوش وابن زيان زعيم الغز حليفهم ابن غانية، فراسلوا خليفة الموحدين طالبين العفو منه والدخول في طاعته. وبعدها سار المنصور لضرب قبائل العرب التي تعاونت مع ابن غانية فألحق بهم الهزائم وهجر زعماء الخلف وأتباعهم إلى بلاد المغرب الأقصى، وبعد أن رتب أمور تونس غادرها إلى مراكش في عام 584 هـ/1188 م . وفي العام نفسه 584 هـ/1188 م مات علي بن إسحاق بن غانية بعد أن فشل في الاستيلاء على بلاد الجريد . وتولى الأمر أخوه يحيى بن إسحاق بن غانية الذي بدأ ولايته بالحرب مع قراقوش، الذي أعلن العصيان على الموحدين أولاً، ومن ثم سيطر على بعض المناطق التي كانت تحت سيطرة علي بن إسحاق بن غانية ثانياً .

تصدى يحيى بن غانية لقراقوش فهزمه في موضع محسن بالقرب من طرابلس، ثم سار ابن غانية صوب طرابلس ودخلها عنوة، بعد أن وصلته إمدادات عسكرية من أخيه عبد الله حاكم ميورقة، وأسر حاكم طرابلس ياقوت مولى قراقوش الذي بقي أسيراً في ميورقة إلى أن دخلها الموحدون ، ثم سار ابن غانية صوب قابس وشدد الحصار عليها فدخلها عنوة في عام 591 هـ/1195 م .

خلال عصر الخليفة الموحد أبي عبد الله محمد الناصر (595 - 610 هـ) تجددت الحروب بين الموحدين وابن غانية في إفريقية خلال 595 - 597 هـ بعد أن سيطر ابن غانية على أكثر بلاد إفريقية، حيث سار السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص بقواته لملاقاة ابن غانية فأصيب بالهزائم المنكرة، وأجبرت فلولة على الفرار، وكان ذلك بالقرب من مدينة قسنطينة.

ثم سار ابن غانية بعد ذلك صوب مدينة تونس في عام 599 هـ/1203 م ودخلها بعد حصار طويل، وقبض على السيد أبي زيد وأعوانه ، ثم سار صوب جبل نفوسة فأرجعه إلى الطاعة بعد إعلان أهله العصيان، وبذلك أصبح

ابن غانية سيد إفريقية بلا منازع وخطب فيها لبني العباس في بغداد .

ولما استفحل أمر بني غانية في إفريقية، أدركت الدولة الموحدية أن القضاء عليهم في إفريقية، يجب أن يسبقه القضاء على مركز قوتهم في جزيرة ميورقة، لأن هذه الجزيرة كانت بمثابة المورد الذي يغذي بني غانية في إفريقية بالرجال والعتاد، لذلك رأى الخليفة الموحد الناصر لدين الله (595 - 610 هـ) أن استقرار نفوذ الموحدون في إفريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزيرة ميورقة قاعدة بني غانية، ولهذا صمم على السيطرة عليها.

ففي عام 599 هـ/1203 م خرجت الأساطيل الموحدية من ثغر دانية فنزلت جزيرة يابسة ومنها هاجمت جزيرة ميورقة، فدخلتها بعد عناء كبير، وقتل عبد الله بن غانية على يد رجل من الأكراد يعرف باسم عمر المقدم، وبذلك دخلت الجزائر الشرقية في طاعة الموحدون. ثم بعد ذلك تفرغ الخليفة الموحد لقتال بني غانية في بلاد إفريقية فسير إليهم الجيوش في عام 601 هـ/1204 م والتي قادها بنفسه ويعاونها الأسطول البحري، وخلال الأعوام من 601 هـ إلى عام 631 هـ (وهي السنة التي مات فيها يحيى بن إسحاق بن غانية) بدأت رياح المعارك تهب في غير صالح بني غانية في بلاد إفريقية، فاستطاعت الجيوش الموحدية استرجاع مدن إفريقية تباعاً من أيدي بني غانية بعد أن ألحقت بهم الهزائم المتكررة .

3 - علاقة الموحدون مع محمد بن هود بالأندلس:

كان محمد بن هود أول من ثار على الموحدون في الأندلس، فهو سليل أسرة بني هود أصحاب مملكة سرقسطة. سيطر المرابطون عليها عام 503 هـ/1110 م وانتزعوها من عماد الدولة بن أبي جعفر بن هود، ثم انتهز ابنه سيف الدولة فرصة ثورة الأندلسيين على المرابطين سنة 539 هـ/1145 م فقام بثورة على المرابطين، كما ساعد الثوار الآخرين حتى أصبح أميراً على شرقي الأندلس، ثم استشهد عام 540 هـ/1146 في موقعة البسيط ضد الإشبانية.

لم تشترك أسرة بني هود بعد هذا التاريخ في الأعمال السياسية أو العسكرية خلال فترة طويلة من عصر الموحدون. فلم يشتهر منهم أحد إلا هذا (محمد بن هود) الذي قام بالثورة على الموحدون سنة 625 هـ/1228، فقد اشتهر منذ عام 614 هـ/1217 م بعد استرجاعه حصن شنفيرة من الإشبانية في شرقي الأندلس .

عزز محمد بن هود حركته ببعض الخرافات التي سمعها من البعض لتبرير الثورة ضد الموحدون ، وانضم إليه طوائف من الجند وبعض عصابات اللصوص؛ وبدأ حركته في رجب عام 625 هـ/1228 م متخذاً من حصن الصخور - الصخيرات- مقراً له، ويقع هذا الحصن على نهر شقورة بالقرب من مرسية، ومنى نفسه واتباعه بأنه سيمتلك كل الأندلس، وأنه سيعيد الدعوة للخلافة العباسية .

بدأ محمد بن هود أول أعماله بالسيطرة على مدينة مرسية وقبض على واليها الموحد، فخطب محمد بن هود (سمى نفسه المتوكل على الله) لنفسه وللخليفة العباسي في بغداد المستنصر بالله (623 - 640)، رافعاً الأعلام السود شعار العباسيين.

أدرك الموحدون خطورة هذا الأمر فسار إليه والي بلنسية ولكن حلت به الهزيمة فعاد إلى شاطبة، ومنها بعث صريخه إلى خليفة الموحدون المأمون (621 - 629 هـ) الموجود في إشبيلية يطلب منه العون. سار المأمون بقواته

صوب مرسية، وألحق الهزيمة بابن هود، ثم رجع المأمون إلى إشبيلية في أوائل عام 626 هـ/1229 م، وعجل العبور إلى مراكش لاضطراب أمرها، وترك أمر ابن هود يزداد قوة .

أعلنت مدن شرقي الأندلس ولاءها لابن هود، كما أعلنت مدينة إشبيلية طاعتها له، وبعدها سار محمد بن هود وراء الخليفة المأمون، فوجده في جزيرة طريف يهجم بالعبور إلى المغرب، فقامت بينهما معركة في رمضان من عام 626 هـ/1229 م عرفت بموقعة طريف، انهزم فيها المأمون ونجا بعبوره إلى المغرب فاستولى ابن هود على جبل الفتح والجزيرة الخضراء .

نتيجة هذا الأمر دخلت معظم قواعد الأندلس في طاعة ابن هود، وألحق أهل الأندلس الأذى والضرر بجند الموحدين، ولم يبق فيها خارج طاعته غير مدينتي بلنسية ولبلة . وفي الوقت نفسه أعلنت بعض المدن في عدوة المغرب ولاءها لمحمد بن هود أمثال مدينة سبتة ومدينة رباط الفتح، وعزز محمد بن هود هذا الأمر بالتقليد العباسي لشرعية حكمه، فوصله في عام 629 هـ أو في عام 631 هـ/1234 م كتاب الخليفة العباسي المستنصر يحملته إلى الأندلس حسن الكردي الملقب بالكمال فقرأت رسالة الخليفة على الناس في غرناطة حيث كان محمد بن هود موجوداً .

عزز هذا الكتاب أمر ابن هود في الأندلس حتى أن المتمردين عليه رجعوا إلى طاعته بعد وصول هذه الرسالة العباسية، فقد رجع إلى طاعته محمد بن يوسف بن نصر الذي ثار على ابن هود عام 629 هـ/1232 م واستقل في مدينة جيان ودعا للأمير أبي زكريا الحفصي أمير إفريقية.

في بداية أمر المتوكل محمد بن هود قام بصد هجمات الممالك الإسبانية على قواعد الأندلس، إلا أنه عندما انهزم عام 627 هـ/1230 م أمام قوات الفونسو التاسع ملك ليون، تكالبت عليه بقية الممالك الإسبانية، فرأى المتوكل بن هود بأن لا قبل له في مجاهدة الإسبان فقرر عقد معاهدات الصلح مع ملوك ليون وقشتالة.

ففي سنة 632 هـ/1235 م عقد الصلح مع ملك قشتالة مقابل أموال طائلة يدفعها ابن هود، إلا أن هذا الصلح لم يلزم ملك قشتالة فاستولى في العام التالي 633 هـ/1236 م على مدينة قرطبة ولم يستطع ابن هود إنقاذها.

توفي محمد بن هود عام 635 هـ/1237 م، فخلفه في الحكم ابنه الواثق بالله محمد بن هود الذي خلع طاعة العباسيين وخطب للحفصيين بأفريقية .

4 - علاقة الموحدين بأبي جميل زيان:

هو من سلالة يوسف بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين. وقد استخدم الموحدون أبناء آل مردنيش في حكم الولايات وقيادة الأساطيل بعد سيطرتهم على الأندلس .

كان يحكم بلنسية في أواسط عام 620 هـ/1224 م أمير موحدي هو أبو زيد عبد الرحمن من سلالة عبد المؤمن، وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة إذ ذاك يعتبر بلنسية جزءاً من كورة طليطلة ومن ثم فهي من حصة مملكة قشتالة. ولهذا فقد تصدى للهجوم عليها، فأحس أبو زيد بضعفه أمام ملك قشتالة، فدخل في طاعته، وفي الوقت نفسه كانت لخايمة الأول ملك أرغون الأطماع نفسها، فخاف منه أبو زيد واتفق معه على أن يقدم له خمس خراج بلنسية

ومرسية كجزية سنوية. فكان هذا الأمر من أهم أسباب قيام محمد بن يوسف بن هود في مرسية، وثار على أبي زيد في بلنسية أبو جميل زيان وطرده منها.

سار أبو جميل زيان بقواته فاستولى على مدينة دانية، وكذلك سيطر على جنجالة في عام 626 هـ/1229 م، واعترف بطاعته أبناء عمومته في جزيرة شقر وشاطبة، لكنهما ما لبثا أن خلعا طاعة ابن عمهما، وبايعا محمد بن هود. ومعنى ذلك فقد استفحل الخلاف بين محمد بن هود وبين أبي جميل زيان. لجأ السيد أبو زيد الموحدى إلى ملك أرغون الإسباني يستمد منه العون لاسترداد مدينتي بلنسية ومرسية، فوافق الملك الإسباني على ذلك لقاء غلات كثيرة يقدمها أبو زيد له. سار أبو زيد بالقوات الإسبانية صوب بلنسية ومرسية إلا أن الظروف لم تكن مواتية له، فرجع إلى أرغون وشرح الأمر لحليفه الملك الإسباني وطلب أن يكون تابعاً له، فأعطاه الملك الإسباني بعض الحصون، وأشارت بعض الروايات أن السيد أبا زيد اعتنق المسيحية هناك.

وخلال السنوات من عام 630 هـ - 631 هـ/1233 م إلى عام 636 هـ/1238 م شدد ملك أرغون خايمة الأول الحصار على مدينة بلنسية، فسيطر أولاً على أهم حصونها، ثم سار صوب بلنسية تساعده قوات أوروبية، وقد صمد أبو جميل زيان طيلة الوقت لصد هذا الهجوم الإسباني غير أنه لم يفلح في النهاية، كما لم تفلح القوات الحفصية القادمة من تونس بحراً أن تقدم له المساعدات، فسقطت بلنسية بيد ملك أرغون عام 636 هـ وترك أبو جميل زيان المدينة ورحل إلى جزيرة شقر واتخذها مركزاً لحكمه، وبعدها قطع الخطبة للعباسيين وخطب للحفصيين في إفريقية.

إلا أن أبا جميل زيان لم يمكث طويلاً في شقر حيث أخرجه منها أحد قواد ملك أرغون الإسباني، فسار أبو جميل زيان إلى مدينة دانية فاتخذها مقراً لحكمه، وفي عام 636 هـ/1239 م سار أبو جميل زيان إلى مرسية وسيطر عليها وحكمها باسم الحفصيين أمراء إفريقية.

قائد الحفصيون الأمير زيان ولاية شرقي الأندلس، إلا أنه لم يتمتع طويلاً بهذه الولاية، لأن الوثائق بالله محمد بن هود خلعه عنها في أواخر عام 637 هـ/1240 م وأعلن ولاءه للحفصيين.

وفي الوقت نفسه لم يستطع ابن هود الصمود أمام هجمات ملك قشتالة الفونسو بن فرناندو الثالث، الذي يطمع بالسيطرة على مدينة مرسية، فأعلن ابن هود تبعيته لهذا الملك الإسباني واعترف بأنه يحكم مرسية بصفته تابعاً لملك قشتالة.

5 - علاقة الموحدين بابن نصر:

هو محمد بن يوسف بن الأحمر الأنصاري يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، اشتهرت أسرته بقيادة الجند في ناحية أرجونة من أعمال ولاية جيان.

ونظراً لكثرة هجمات الممالك الإسبانية على قواعد المسلمين أولاً، ولعجز محمد بن هود في صد هذا العدوان، تطلع السكان إلى قيادة محمد بن يوسف بن الأحمر في حصن أرجونة واعتبروه المنقذ والقائد المنتظر الذي سيخلص البلاد من خطر الإسبان. فأعلن ابن نصر ثورته في عام 629 هـ/1232 م في حصن أرجونة، فدخلت في طاعته وادي أش وبسطة وشريش وجيان وقرطبة وقرمونة. وتسمى ابن نصر على ذلك بأمرير المسلمين وخطب للخلافة العباسية منافساً في ذلك لابن هود.

أدرك ابن هود مدى خطورة قيام ابن نصر ودخول بعض البلاد في طاعته، فقد اعتبره ابن هود خارجاً عنه من ناحية، ومزاحماً له في حكم الأندلس من ناحية أخرى. فقامت بينهما الحروب وحلت الهزيمة بابن هود ثلاث مرات آخرها في عام 633 هـ أو عام 634 هـ.

بدأت دولة ابن نصر بالاتساع على أثر وفاة ابن هود في عام 635 هـ/1238 م، فأول المدن المهمة التي دخلت في طاعته مدينة غرناطة في هذا العام نفسه.

وفي العام نفسه سيطر ابن نصر على مدينة المرية، وفي عام 636 هـ/1239 م أعلنت مدينة مالقة الولاء والطاعة لابن نصر.

في عام 637 هـ/1240 م قطع ابن نصر الخطبة للعباسيين، وخطب للموحدين في مراكش، على عهد الخليفة الموحي الرشيد (629 - 640 هـ)، ولما توفي الرشيد عام 640 هـ/1243 م قطع ابن نصر الخطبة للموحدين، وخطب للحفصيين في إفريقية.

واستمر ابن نصر يدعو للحفصيين حتى عام 647 هـ/1249 م، فقطعها عنهم وهي سنة وفاة الأمير الحفصي أبي زكريا، وتسمى ابن نصر بعدها بأمير المسلمين.

لم يستطع ابن نصر الوقوف في وجه الإسبان أو رد غزواتهم المتواصلة على الأندلس، فعقد الصلح مع ملك قشتالة فرناندو الثالث في عام 643 هـ/1246 م، وجاء فيه: أن يتنازل ابن نصر لملك قشتالة عن مدينة جيان وأحوازها، وأن يعترف ابن نصر بالولاء والطاعة لملك قشتالة وأن يدفع له مائة وخمسين ألف دينار، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي بصفته من الأمراء التابعين للملك الإسباني.

ترك جهاد الموحدون للممالك الإسبانية :

ورث الموحدون دولة المرابطين في مجاهدة الممالك الإسبانية هذه، وكان أول عمل قام به عبد المؤمن بن علي (المتوفى عام 558 هـ/1163 م) لهذا الغرض هو بناء مدينة الفتح على سفح جبل طارق والتي كمل بناؤها في عام 555 هـ/1160 م لكي تكون معسكراً موحدياً في الأندلس تنطلق منه الجيوش لمجاهدة الإسبان.

وبعد أن افتتح عبد المؤمن هذه المدينة رجع إلى المغرب بعد أن وفر حامية قوية من الموحدين والأندلسيين، وجعل غرناطة مركزاً دفاعياً قوياً، كما نقلت العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة سنة 557 هـ. ثم بدأ عبد المؤمن يجهز الجيوش لرد عدوان الممالك الإسبانية، وسار بها من مراكش إلى مدينة الرباط (رباط الفتح)، ولكن عبد المؤمن مرض ومات في عام 558 هـ كما ذكرنا، وتولى الأمر من بعده أبو يعقوب يوسف (558 - 580 هـ) الذي أمر هذه الجيوش بالرجوع إلى بلادها حتى يتخذ قراراً جديداً. في عام 560 هـ عبرت حملة عسكرية موحدية إلى الأندلس لتعزيز دفاعات بعض المناطق ضد هجمات الممالك الإسبانية، كما حدث صدام مسلح مع محمد بن سعد بن مردنيش فيمرسية، والذي كانت له صلات ودية مع عدد من ملوك إسبانيا، حيث بلغ عدد المرتزقة الإسبان في جيشه. في لقاء له مع الجيش الموحي، ما يقرب من ألف مقاتل، وكان النصر في هذا اللقاء للموحدين وعرفت هذه المعركة بفحص الجلاب على بعد 12 كم جنوبي مدينة مرسية، وتوفي ابن مردنيش بعد ذلك.

خلال هذه الأحداث كان ملك البرتغال ألفونسو بن الرنك وبعض المغامرين يهددون الحصون الإسلامية في غربي الأندلس، ففي عام 542 هـ/1147 م استطاع ملك البرتغال بالتعاون مع قوات صليبية من الإنجليز والألمان

والهولنديين، متجهين نحو المشرق، أن يستولي على مدينة لشبونة، ثم استولى على مدينة شنترين. وفي عام 555 هـ/1160 م استولى على قصر أبي دانس (قصر الفتح). وفي الوقت نفسه قام مغامر برتغالي يسمى (العلج جراندة الجليقي) فاستولى على بعض مدن غربي الأندلس.

عبرت قوات موحدية إلى الأندلس للحد من خطر الممالك الإسبانية، واستطاع الموحدون في الأندلس من عقد معاهدة صلح مع فراندة الثاني (الببوج - الأحقق أو الكثير اللعاب) ملك ليون، إلا أنه خرق هذه المعاهدة وهاجم قواعد الأندلس عام 570 هـ/1174 م فردت القوات الموحدية والأندلسية على هذا الأمر بأن هاجمت مدينة لذريق الليوني وتسميها الرواية الإسلامية باسم (السبطاط).

عبر الخليفة الموحد أبو يعقوب إلى الأندلس عام 566 هـ وبقي فيها زهاء خمسة أعوام إلى عام 571 هـ يحارب الممالك الإسبانية، إلا أنه لم يجن ثماراً طيبة ولم يحرز النصر الكبير، وبعدها عاد إلى مراكش. فجدد الإسبان هجومهم على الأندلس فقام ملك قشتالة ألفونسو الثامن بمهاجمة الأراضي الأندلسية، فتصدت له القوات الموحدية قرب طلبيرة عام 578 هـ. وبعدها عبر الخليفة الموحد إلى الأندلس في عام 580 هـ واتجه صوب مدينة شنترين ونازلها في عدة معارك، إلا أن الخليفة أبا يعقوب أمر بالانسحاب فجأة قبل افتتاحها، ثم أصيب في المعركة وتوفي بعد قليل في ربيع الآخر من عام 580 هـ/تموز 1184 م.

تولى الخلافة ابنه ولقب بالمنصور (580 - 595 هـ). وبعد أن نظم أمور دولته عبر إلى الأندلس عام 586 هـ/1190 م وذلك لرد اعتداءات ملك البرتغال الجديد شانجة الأول الذي سيطر على مدينة شلب الأندلسية بمعاونة القوات الصليبية وكان ذلك في عام 585 هـ/1189 م (159). استطاع خليفة الموحدين بعد معارك جهادية عنيفة من استرجاع مدينة شلب وقصر الفتح (قصر أبي دانس) وذلك في عام 587 هـ/1191 م، ورجع بعدها إلى عدوة المغرب .

في عهد ملك قشتالة ألفونسو الثامن (النبيل) عقد مع الموحدين معاهدة أمدها خمس سنين (586 - 591 هـ). فلما انتهت مدة المعاهدة بدأ ملك قشتالة بمهاجمة الأراضي الإسلامية، فعبر إليه المنصور الموحد بجيوش كبيرة فكان اللقاء قرب حصن الارك قرب مدينة قلعة رباح في عام 591 هـ/1195 م فأحرز الموحدون النصر الكبير وافتتحوا حصن الارك ولحقت هزيمة منكرة بالقشتاليين. وبعد هذه المعركة عقدت هدنة بين الطرفين ابتداءً من عام 594 هـ/1198 م ولمدة عشر سنوات أو أكثر.

في عام 595 هـ توفي الخليفة المنصور، فخلفه ابنه الناصر لدين الله (595 - 610 هـ) الذي كانت سنه دون العشرين. بدأ الفونسو الثامن في عام 606 هـ/1209 م -قبل انتهاء أجل الهدنة- مهاجمة الأراضي الأندلسية، وعاونه في ذلك بطرة الثاني ملك أرغون، فبعث أهل الأندلس بصريخهم إلى خليفة الموحدين الذي جهز جيوشه وعبر إلى الأندلس عام 607 هـ/1211 م، فالتقى الناصر بألفونسو الثامن عند حصن العقاب عام 609 هـ/1212 م وكانت تساعده جيوش صليبية تولى البابا (انوصان الثالث) إعدادها، وانتهى اللقاء بهزيمة جيش الناصر وتشتت قوة الموحدين (164)، ثم عاد الناصر إلى مراكش حيث توفي عام 610 هـ/1213 م، ربما كمداً من نتيجة الهزيمة في معركة العقاب التي عُدت نذيراً بانحلال الدولة الموحدية.

خلف الناصر ابنه أبو يعقوب الملقب بالمستنصر بالله (610 - 620 هـ)، الذي عقد معاهدة سلم مع ملك قشتالة الجديد (فراندة الثالث)، ولكن الأندلس خسرت في هذه المرة بعض المدن، منها قصر الفتح (قصر أبي دانس) التي سيطر عليها ملك البرتغال (ألفونسو الثالث) بمساعدة أساطيل ألمانية وذلك في عام 614 هـ.

تعاقب على الحكم عدة خلفاء .. هذا التبديل السريع في تنصيب الخلفاء تبعه اعتداء ملوك إسبانيا على الأراضي الأندلسية وسيطرتهم على كثير من المدن والحصون، حيث قام ملك قشتالة فردنند الثالث بقسط وافر في هذا المجال، كما أن هذا الأمر أدى إلى ظهور زعامات محلية في عدوة المغرب أهمها:

1 - في المغرب الأقصى ظهرت دولة بني مرين وكان المؤسس لهذه الدولة الأمير عبد الحق بن محيو (توفي عام 614 هـ). اتخذ ملوكها فاس ومراكش عواصم لهم.

2 - في المغرب الأوسط، استقل بنو زيان، أعلن زعيمهم يغمراسن بن زيان الاستقلال في تلمسان عام 633 هـ.

3 - في المغرب الأدنى استقل بنو حفص بزعامة (عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص) حوالي عام 623 هـ .

كما أن أخطار هذا الضعف انعكس على الوجود الموحد في بلد الأندلس، ففي عام 627 هـ/1230 م سقطت جزيرة ميورقة بيد ملك أرغون (جايمش بن بطرة) الذي عاونته جيوش أوروبية من إيطاليا وفرنسا. أما جزيرة اليابسة فسقطت بعد أختها الكبرى بسنوات قليلة. ولكن جزيرة منورقة لم تسقط إلا بعد حوالي ستين سنة، أي في عام 686 هـ/1287 م بيد القوات الأراغونية.

هذا الأمر المضطرب في الأندلس أدى إلى ظهور زعامات محلية أدت إلى قيام مملكة غرناطة بزعامة بني الأحمر، وفي المدة ما بين ضعف الدولة الموحدية وقيام مملكة غرناطة (نحو عام 635 هـ أو بعدها) سقطت عدة حواضر أندلسية بيد الممالك الإسبانية.

أولى الحواضر المهمة الأندلسية التي سقطت هي مدينة قرطبة وذلك في عام 633 هـ/1236 م حيث دخلتها القوات القشتالية بزعامة ملكها فراندة بن الفنش (فرناندو الثالث). وخلال الأعوام من 631 هـ/1233 م إلى عام 636 هـ/1238 م تعرضت مدينة بلنسية إلى هجمات ملك أرغون جايمش الأول الملقب بالغازي وساعدته جيوش أوروبية باركها البابا (جريجوري التاسع)، واستطاع حاكم بلنسية أبو جميل زيان أن يقاوم هذا الهجوم الصليبي فترة من الزمن، إلا أن المدينة سقطت أمام شدة الحصار، ولم تنفع استغاثاته لأمرأء عدوة المغرب.

تلا ذلك سقوط عدد من المدن القريبة مثل: جزيرة شُقر في أواخر عام 639 هـ ومدينة دانية في عام 641 هـ، ومدينة جيان في عام 643 هـ، ومدينة شاطبة في عام 644 هـ، ومدينة مرسية في عام 664 هـ، أما مدينة إشبيلية فسقطت بيد ملك قشتالة (فرناندو الثالث) عام 646 هـ/1248 م وذلك بعد أعمال حربية استمرت لعدة سنوات، وحصار طويل دام حوالي سنة ونصف.

هكذا سقطت بيد ملوك الإسبان ومن ساعدتهم من الصليبيين عدد من قواعد الأندلس في هذه المدة التي عاصرت نهاية الدولة الموحدية، إلا أن المسلمين في الأندلس استطاعوا الحفاظ على بعض المناطق في جنوبي البلاد، حيث قامت مملكة غرناطة، وبالإمكان تسميتها بالأندلس الصغرى، بعد انهيار الأندلس الكبرى.



كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة : أ.د. بديع محمد ابراهيم

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الأندلس

اسم المادة باللغة الإنكليزية : **History of Andalusia**

اسم المحاضرة الثالثة عشر باللغة العربية: مصادر ومراجع اعداد المحاضرات

اسم المحاضرة الثالثة عشر باللغة الإنكليزية: **Sources and references for preparing lectures:**

مصادر ومراجع :

المحاضرات مأخوذة وبتصرف من كتاب : تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس
للدكتور : خليل ابراهيم السامرائي - د: عبدالواحد ذنون طه - د: ناطق صالح مطلوب

ويمكن الرجوع الى مصادر ومراجع اخرى منها :

- ابن عذارى المراكشي: ابو العباس أحمد بن محمد (كان حياً سنة 712هـ)
- البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب , نشر كولان وليفي بروفنسال , ليدن , 1948.
- الحجى , عبد الرحمن علي , التاريخ الأندلسي .
- رضا: محمد سعيد , محمد بشير العامري
- تاريخ المغرب والأندلس في العصور الإسلامية
- السامرائي: خليل إبراهيم وآخرون
- مؤنس: حسين:
- معالم تاريخ المغرب والأندلس